غاية المراد

في

إحياء روح الجهاد

ج ّغ ُإعداد

جميلة ُأص ِش ً

دم ق ُاطـثغ ِنفـظح

دار البيان للإش ش ُاروزيع
ُ4 ش محرَت ه – ِنطح شا َ تاليذ ˆ – ا.عِىذسيج
خ/ 3 4 33 - 0

إّذاء

إلى من استحق منصب الإمامة في أهل التقوى والدين..

إلى حُماة الإسلام وحُرَّاس الفضيلة..

إلى الدعاة الراسخين الثابتين على الهدى..

إلى معلمي الناس الخير..

هذا زمانكم الذي تتطلع إليه الأجيال..

أحيوا روح الجهاد في الأمة لتتحقق على أيديكم مرة أخرى معجزة التاريخ..

لتمضي عصورُ الذلِّ والهمِّ والوَنَى
لتمضي كما مرَّتْ صروفٌ وأدهرُ

وتشرقَ من وجهِ الوجودِ شريعتي
وكلُّ جميلٍ في مُحيَّاه يُزهِرُ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِل له، ومَن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون)**.. **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)**.. **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)**..

أما بعد..

لقد نجح أعداؤنا في تشويه معنى "الجهاد" برسم صورة مخيفة تدل عليه؛ فصارت كلمة "الجهاد" تعادل كلمة "الإرهاب"، وصارت مقاومة المحتل في فلسطين والعراق وأفغانستان إرهابا..!

وما أعظم دهاءهم! فقد انخدع جمع غفير من المسلمين أنفسهم بهذه الصورة المزورة التي رسمها أعداؤنا لمآثر عزنا وأمجاد أسلافنا؛ حتى كادوا يؤمنون بصحتها!!

وما أحوج الأمة اليوم إلى الدعاة العاملين ليعلنوها مدوية في العالمين: إن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين، ولا يرده جور جائر ولا فسق فاسق إلى أن تقوم الساعة..

ما أحوج الأمة اليوم إلى دور العلماء المخلصين والدعاة العاملين ليبدأوا ويعيدوا في تعليم العباد فقه الجهاد، ويحرضوهم على قتال العدو الصائل، ويبصروهم بضرورة الجهاد

لصد الهجمة الشرسة على ديار الإسلام والمسلمين..

وليس لما قضى المولى مناصٌ ففي الوجدانِ فألٌ واصطبارٌ

وقد وفقني الله تبارك وتعالى إلى جمع مادة هذا الكتاب، الذي غاية المراد منه إحياء روح الجهاد في نفوس العباد.. وليس لي فيه من فضل إلا جمع ألفاظه وترتيب أبوابه.. ولله وحده الفضل والمنة..

وإني إذ أضع هذا الجهد المتواضع بين أيدي إخواني وأخواتي الدعاة؛ أسأل المولى عز وجل أن يشرح صدورهم إلى الرجوع إليه والاستفادة منه؛ لينثروا أزاهيره في رياض القلوب، ويعطروا بها نفوس الناشئة عسى الله أن يخرج منهم نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، وما ذلك على الله بعزيز؛ إذا صح العزم وخلصت النوايا..

والله مكتفِلٌ برميةِ مَن رمَى لكن سؤالُ الدهرِ: أين الرامي؟!

وإني لأتضرع إلى الله عز وجل أن يجزي خير الجزاء كل عالِم نقلت عنه حرفًا في هذا الكتاب المبارك، وأسأله جل في علاه أن يوفق كل مَن طالع الكتاب أو نقل عنه لينال شرف التحريض على الجهاد في سبيل الله..

اللهم أقم علَم الجهاد، واقمع أهل الكفر والفساد، واقذف اللهم حب الجهاد في قلوب المسلمين، ولا تسلط عليهم بذنوبهم من لا يخافك فيهم ولا يرحمهم.

جميلة الرشيدي

الإسكندرية في

١٧ من ربيع الآخر ١٤٣٠- ١٣ من أبريل ٢٠٠٩

تمهيد

تعد دولة الخلافة العثمانية ظاهرة تاريخية فريدة، فقد شغلت حيزًا كبيرًا من الزمان والمكان؛ إذ عاشت أكثر من ستة قرون، وامتدت رقعتها الجغرافية إلى آسيا وأوروبا وإفريقيا، وكانت جيوشها أكثر جيوش العالم عددًا وأحسنها تدريبًا وتسليحًا وتنظيمًا، فقد عبرت جيوش هذه الدولة الفتية البحر من الأناضول إلى جنوبي شرق ووسط أوروبا، وفتحت بلاد اليونان وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا والمجر ورودس وكريت وقبرص وألبانيا حتى بلغت مشارف فيينا – عاصمة النمسا – وجنوبي إيطاليا؛ فكانت أول دولة إسلامية تصل إلي هذا العمق في الأرض الأوروبية.

وكان هذا الانتشار الواسع للدولة العثمانية وتهديدها للمسيحية في عقر دارها سببًا قويًّا في عداء أوروبا المسيحية لها، وسعيها الدءوب لتقويض أركانها، وهدم بنيانها الشامخ، فقامت ضدها الأحلاف والتكتلات المسيحية في حروب كان النصر فيها حليف الدولة العثمانية في أغلب الأحيان، غير أن عوامل الضعف والتآكل بدأت تضرب في الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، فكان سقوطها في الداخل المرحلة الأولى لسقوطها وزوال خلافتها حيث ضعفت عسكريًّا أمام روسيا القيصرية، حتى أطلق عليها القيصر الروسي "نيقولا الأول" لقب: "رجل أوروبا المريض"، وأصبحت مطمعًا للدول الاستعمارية الكبرى: بريطانيا وفرنسا وروسيا.

ولم يدخر الغرب في معركته ضد الخلافة سلاحًا إلا استخدمه، بدءًا من الإرساليات التبشيرية والغزو الفكري، وإشعال الثورات والفتن الطائفية والمذهبية،
واصطناع الجواسيس والأعوان وشراء الذمم بالمال،
حتى تم تقويض الخلافة على يد مصطفى كمال.

ويذكر المؤرخ الفرنسي "دين جروسيه" في كتابه "وجه آسيا" أن عملية تصفية الخلافة العثمانية استغرقت مائتين وعشرين عامًا، بدأت بمعاهدة "كارلوفجة" سنة (١١١١ هـ - ١٦٩٩م)، تضافرت فيها جهود الدول الكبرى عبر السنين الطوال، إلا أن اختلاف أطماع هذه الدول وتضارب مصالحها في تركة الدولة العثمانية كان سببًا في إطالة عمرها.

ولما زاد ضعف الدولة العثمانية في أواخر عهدها، كانت الدول الأوربية قد شرعت في دعم الحركات التي تقوم ضد العثمانيين علنا، فبدأت الفكرة القومية تبرز في كل مكان تحت تأثير النصارى الذين لا دعوة لهم سواها وسط المجتمع الإسلامي، واستفاد النصارى من دعوتهم هذه فضموا إليها الأقليات التي كانت تتحرك بإشارات الدول الأجنبية، ونجحوا في الإيقاع بعدد من شباب المسلمبن عن طريق إغرائهم بالجنس والمال!!

وجاء دور اليهود، وكانت وجهتهم فلسطين، وفلسطين تتبع الدولة العثمانية، وبذلوا إمكاناتهم الضخمة في سبيل تحقيق هذا الهدف، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني خيب آمالهم ورد إغراءاتهم؛ فوجهوا سهامهم عليه..

فادعوا أنه كان سفاكا للدماء حتى أطلقوا عليه اسم "السلطان الأحمر"، وادعوا أن الشركسيات السبايا تملأ قصره، وأن رجالات مخابراته قد ملأت كل مكان، وأن أبناءه يترنمون برنين الذهب الذي يلقونه في مياه البوسفور.. وراجت هذه الشائعات، وعملت الدوائر الأجنبية على نشرها، ولا تزال تردد، مع العلم أن الدولة العثمانية هي التي قبلت اليهود في أراضيها عندما طردوا من الأندلس مع المسلمين!! وانتقل قسم منهم إلى البلقان، وأظهر عدد منهم الإسلام، بينما بقوا حقيقة على دينهم، يعملون ضد الدولة في الخفاء، وأطلق على هؤلاء اليهود اسم "الدونمة" أي المرتدون، وكان لهم دور في الحركات القومية، ومع العسكريين الذين حكموا تركيا بعد السلطان عبد الحميد.

وهذا اعتراف من زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية "تيودور هزتزل" بموقف

السلطان عبد الحميد، يقول: "أُقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية، أو عن طريق الزج بها في حروب تُهزَم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية، أو بالطريقتين معا في آن واحد."

فقد اتخذ السلطان عبد الحميد الثاني كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي لليهود في فلسطين، وفي سبيل ذلك عمل جاهدا على عدم إعطاء أي امتياز لليهود من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أرض فلسطين.

ولابد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم. ويعزز هذا الاتجاه هرتزل عندما قال: "إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، مادام السلطان عبد الحميد قائما في الحكم، مستمرا فيه".

وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثاني، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

وتمكنت القوى القومية من الانتصار على السلطان نتيجة الدعايات ضده، وتحركت قوة من الجيش واستولت على الحكم، واضطر السلطان للرضوخ لمطالبهم، وأظهر الرضا ريثما يجد الوقت المناسب، واستدار العام، وظهر للعسكريين أن السلطان ينتظر الفرصة المناسبة فاستبدلوه..

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد إلا أنه في الحقيقة لا يملك أي سلطة فعلية، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية "الاتحاد والترقي"، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها، قومية في عصبيتها، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها. فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية

الطورانية[1] التي تدعو إلى تحرير كافة الأتراك. مدعين أن الشعوب الإسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة، وهي الأفكار التي تطورت أخيرا بمجهودات بعض كتاب الجمعية؛ فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة. بعد أن كانت اللغة العربية تقف إلى جانبها. فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية، في مواجهة حركة التتريك.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/١٩١٤-١٩١٨م) دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) في حين تمكن الإنجليز بمراسلات الشريف حسين حاكم بلاد الحجاز من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا)؛ فسادت فكرة القومية العربية، ووقع الصدام بين العرب والترك.

أعلن الشريف حسين بن علي الجهاد ضد الأتراك الذين كانوا قد أعلنوا الجهاد ضد الحلفاء باسم الخليفة!! فضاع معنى الجهاد، وانقسم المسلمون بين: أي الجهادين يتبعون؟!! وهذا ما أراده الحلفاء..

وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها، ووقعت الآستانة تحت سيطرة الإنجليز، وأصبح الخليفة كالأسير في أيديهم، وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هازنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في إستانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية!!

اجتمعت إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية، وإبراز طابع الجامعة الطورانية، وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفا وقسوة؛ مما مهد إلى زوال الدولة والتهام الغرب للأجزاء العربية، ومنح اليهود وعد بلفور الذي يعطيهم

---

[1] تنسب الطورانية إلى هضبة طوران الواقعة فى آسيا الوسطى، حيث كانت تعيش الأقوام التركية قبل نزوحها غربا إلى خراسان وما وراء النهر. وقد قام "ضيا كوك آلب" الأب الروحى للقوميين الأتراك بنشر منظومته الشهيرة (طوران) سنة ١٩١١م وفيها طرح فكرة الوحدة الطورانية. ومؤداها أن: وطن الترك ليس الدولة العثمانية أو الأناضول وإنما هو "طوران"، ثم دعى إلى الاهتمام برقى العنصر التركى أولا.

الحق في إقامة دولة فلسطين.

وكانت اللعبة العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائيا تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة، وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها..

وتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنجليزية بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان الذين احتلوا أزمير بتمكين من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ وتوغلوا في حقد صليبي دفين في الأناضول، فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك ورفع القرآن ورد اليونانيين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته وأخلت أمامه المواقع، وبدأ مصطفى كمال يطفو على السطح تدريجيا، وابتهج العالم الإسلامي، وأطلق عليه لقب "الغازي"، ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء.. فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة:

اللهُ أكبرُ كم في الفتحِ من عجبِ يا خالدَ التركِ جدِّدْ خالدَ العربِ !

وكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر باستسلام الخليفة وحيد الدين محمد السادس القابع في الآستانة مستكينا لما يجري عليه من الذل، كبر في نظرهم الأول بمقدار مايهون الثاني، وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهدار دم مصطفى كمال واعتباره عاصيا متمردا. ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلاً مكافحا يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة، الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة..!!

لقد استطاعت المخابرات الإنجليزية أن تجد ضالتها المنشودة في شخصية مصطفى كمال، وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزية ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الإنجليزي "أرمسترونج"؛ الذي تعززت علاقته معه في فلسطين وسورية، عندما

كان مصطفى كمال قائدا هناك في الجيش العثماني.

بدأ أتاتورك في خوض معركة مع مجلس النواب لإعلان الجمهورية وإلغاء الخلافة، وازدادت حدة المعارضة، وتأزم الموقف.. وهنا تحركت بريطانيا لإنقاذ الغازي، وأعطته فرصة لتجميع الناس ضد العدو الخارجي (بريطانيا)، وكذلك ثار الأكراد في الشرق، ولا ندري هل حركها الإنجليز لإنقاذ أتاتورك، ولكن الثابت أنه استغل تلك الثورات لصالحه! لقد صاح في الشعب: إن تركيا في خطر فالعدو الأجنبي الأصيل -إنجلترا- يظاهر الأكراد ويمدهم بالمال والسلاح.

هذه أنجح طريقة لإنقاذ العملاء عند اهتزاز الأرض تحت أقدامهم، ولذلك رأينا كيف عاد أتاتورك بهذه المسرحية القائد الأوحد..!

وقد اتخذ هذه الثورة ذريعة لتصفية المعارضة واتهمهم بالاتصال بالإنجليز، فأثار النواب ضدهم ففروا من البلاد، وأقرت الجمعية الوطنية وقف الدستور وتخويل الغازي سلطة كاملة لإنقاذ البلاد.. وألغيت حصانة النواب، وفرضت الرقابة الصارمة على الصحف، وصار أي إجراء أو نقد شفوي للحكومة خيانة وطنية عظمى تعاقب عليها محاكم الاستقلال بالإعدام.

وبعد أن جمع كل السلطات في يده جاءت معاهدة "لوزان" التي استمرت محادثاتها ثلاثة أشهر من نوفمبر (١٩٢٢م) إلى فبراير (١٩٢٣م)، ومعاهدة لوزان كانت إنقاذا لأتاتورك من وضعه الحرج، إذ اشتدت المعارضة ضده في البلد، وفي مجلس النواب.. وقد وضع "كرزون" رئيس الوفد الإنجليزي أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا، وهي:

١- قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.

٢- إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.

٣- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.

٤- اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

وعندما وقف "كرزون" وزير خارجية إنجلترا في مجلس العموم البريطاني يستعرض ما جرى مع تركيا، احتج بعض النواب الإنجليز بعنف على كرزون، واستغربوا كيف اعترفت إنجلترا باستقلال تركيا، التي يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب.

فأجاب كرزون: لقد قضينا على تركيا، التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم؛ لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين: الإسلام والخلافة.. فصفق النواب الإنجليز كلهم وسكتت المعارضة.

وأما الذي ظهر للناس من المعاهدة أن جيوش الاحتلال الإنجليزية جلت عن العاصمة وذيولها بين سيقانها..!

وفي الثالث من مارس ١٩٢٤م دعا مصطفى كمال الجمعية التأسيسية إلى اجتماع، وكان على ثقة تامة من أن أحدا في الجمعية التأسيسية – التي لم يبقَ منها سوى اسمها – لن يجرؤ على معارضته، وطرح على الجمعية مشروع قرار بإلغاء الخلافة التي أسماها: "هذا الورم من القرون الوسطى"، وقد أجيز القرار الذي شمل نفي الخليفة في اليوم التالي دون مناقشة، وانطفأت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة التي كان المسلمون طيلة القرون يستمدون من بقائها رمز وحدتهم واستمرار كيانهم.

وبسقوط الخلافة سقطت مفاهيم الدولة المبنية على المبادئ والقيم الرفيعة والأخلاقيات، وحلّت محلها المفاهيم المبنية على المصالح والأهواء والماديات.

بسقوط الخلافة لم يتبق للأمة الإسلامية منذ ذلك التاريخ دولة حقيقية تمثلهم، ولم يعودوا يحيون في جماعة إسلامية يقودها خليفة مبايع شرعًا على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والخلافة كما وصفها القلقشندي: "حظيرة الإسلام، ومحيط دائرته، ومربع رعاياه، ومرتع سائمته، والتي بها يحفظ الدين ويُحمى، وبها تُصان بيضة الإسلام، وتسكن

الدهماء، وتقام الحدود فتمنع المحارم عن الانتهاك، وتُحفظ الفروج فَتُصان الأنساب عن الاختلاط، وتُحصن الثغور فلا تطرق، ويُذاد عن الحُرَمِ فلا تُقرع".. تلكم هي المعاني التي افتُقدت بسقوط دولة الخلافة.

وقد تحققت توقعات المعارضين لقرار إلغاء الخلافة؛ إذ استتبع ذلك خطوات متتالية في الاتجاه نحو الفصل بين الإسلام والحكم، وتحول الدولة إلى علمانية لا دينية؛ فقد عمد الأوروبيون إلى قطع الصلة التي تربط المسلمين بشريعة ربهم، وكان ذلك في قمة أولوياتهم، تمثل ذلك في الإلغاء السريع والفوري لفرمان السلطان العثماني، الذي ألزم فيه جميع المحاكم الشرعية في كل دول السلطنة بالتحاكم إلى الشريعة الإسلامية، والإفتاء وإصدار أحكام القضاء بمذهب الإمام أبي حنيفة.

وأقام الأوروبيون نظامًا جديدًا قوامه القانون الوضعي الغربي في مختلف مسائل الأسرة والتجارة والمعاملات، وكان نتيجة ذلك إباحة الربا والزنا والخمر في المجتمع الإسلامي، عن طريق قانون العقوبات الوضعي، الذي أباح هتك الأعراض وأخرج المجتمع الإسلامي جزئيًّا من ضوابطه ومبادئه وأخلاقه وقيمه، وفى دائرة المعاملات فرضت القوانين التي تبيح التعامل بالربا، وجعلته أساس التعامل في البيع والشراء والإجارة.

وبعد أن تمكن الأوروبيون من تركيا عن طريق أتاتورك، وباستخدام المعاهدات المعروفة والمشهورة تاريخيًّا، التي اشترطت على تركيا قطع صلتها بالإسلام، ووضع دستور مدني علماني للبلاد، ذهبوا لباقي الدول العربية والإسلامية لجعلها نسخة طبق الأصل من تركيا قضاءً وتشريعًا.

وكأن إلغاء الخلافة كان إشارة البدء لتحولات عميقة الجذور في كيان الأمة الإسلامية كلها؛ إذ انتقلت العدوى رويدا رويدا من تركيا إلى سائر البلاد، واقتفت أثرها في معظم هذه القرارات، إن لم تكن بقرارات رسمية؛ فقد تمت عن طريق التقليد والمحاكاة..

والحقيقة المرة أن مصطفى كمال أصبح نموذجا صارخا للحكام في العالم الإسلامي وقد كان لأسلوبه الاستبدادي أثره في سياسات مَن جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبررا كافيا للقضاء على الإسلام؛ فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد شمال الأفريقي وإخراجها من دينها وعقيدتها وإسلامها بأنه لايجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم!!

لقد أصبح مصطفى كمال زعيما روحيا لكثير من الحكام

الذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزائلة.

وبعد انتصار أوروبا في معركة تصفية الخلافة، تمكن الأوربيون من السيطرة المباشرة على الدول الإسلامية عن طريق الاحتلال العسكري الطويل، الذي أنهك واستنزف موارد هذه الدول، وتمثل الانتصار في هذه المعركة الخبيثة في السيطرة شبه الكاملة على جميع مناحي الحياة، من تشريع وسياسة، واقتصاد وإعلام وثقافة..

فظهر جيل من القادة في بلاد المسلمين يعتنقون العلمانية، ويؤمنون بالمادية،

ويقدسون العروبة والقومية، والفرعونية والآشورية والفينيقية..

ويكفرون بالحل الإسلامي، الذي يصفونه بالرجعية!

والمحصلة النهائية: تصدع داخلي، وتفشي للجهل والضعف والسطحية، والخرافات والانحرافات العقدية في أوساط الشعوب الإسلامية والعربية؛ التي لازالت إلى اليوم -بعد خمسة وثمانين عامًا من نكبة سقوط الخلافة- تبحث عن ذاتها ولغتها وهويتها، وقيمها وحضارتها وثقافتها، على أمل تغيير واقعها وبناء مستقبلها؛ ولكن دون فائدة تذكر، ودون نتيجة ملموسة على الأرض؛ فقد انفرط العقد الذي كان يربط هذه الدول ببعضها، والذي كان يربطهم بالقوة المكملة لهم وهي قوة الأتراك، تحت راية واحدة وهي راية الخلافة العثمانية.

وأمعن الغرب الأوروبي في تفتيت العالم الإسلامي وتجزئته، عن طريق إشعال الفتن

والثورات الطائفية وتغذية النعرات المذهبية، يقول "برنارد لويس" في كتابه "الشرق الأوسط والغرب": [إن التغريب في المنطقة العربية أدى إلى تفكيكها وتجزئتها، وإن هذا التفكيك السياسي واكبه تفكيك اجتماعي وثقافي، والواقع أن إلحاق المنطقة بالغرب لم يكن ممكنًا إلا من طريق تفكيكها وتجزئتها، عن طريق إثارة الفتن الطائفية، وافتعال أسباب الخصومات والعنف.] ا.هـ

وكان هذا التفكيك والتفتيت والتجزئة في العالم الإسلامي، في مقابل نزعة للوحدة والاندماج عند دول أوروبا، وحدة قائمة على التنسيق والتعاون، مبنية على نهضة علمية غير مسبوقة، مصحوبة بتطورات تكنولوجية هائلة، خاصة في المجال العسكري، ثم احتكار غير قابل للكسر في المجال النووي وعلوم الفضاء، يظلل ذلك كله إرادة ورغبة حميمة وعزم وإصرار على المضي قدمًا في اقتسام التركة وإذلال الورثة! [1]

وبي مما رمتنا به الليالي ... جراحاتٌ لها في القلب عُمقُ
فمعذرةُ اليراعةِ والقوافي ... جلالُ الرُّزءِ عن وصفٍ يَدِقُّ

إدَ ٌ ٌ يشْنُ جٌّ ٌ ا ٌ ذعَّادُ: [2]

إن النصرانية بعدما تحولت صليبية فقد انخلعت من كل شعار ينسبها إلى السماء.. لقد كان من أبرز خلال رجال الدين الأولين في المسيحية الرقة واللطف، وقد وصف الله عيسى عليه السلام بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ**

---

[1] الدولة العثمانية للصلابي – المنارة المفقودة لعزام – تاريخ العالم الإسلامي لياغي – سقوط الخلافة الإسلامية: مقالة لمصطفى عاشور – واقع الأمة بعد سقوط الخلافة: مقالة لهشام عبد الله.

[2] الإِحْنَة: الحقد في الصدر، والجمع: إِحَن.

اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]، واستخراج الرأفة والرحمة من قلوب الصليبيين الآن يشبه استخراج المياه من الصحراوات القاحلة!!

إن صناعات الموت ووسائل الفتك، وأسباب المحن والرزايا ما تجود الآن في مكان مثل ما تجود في أقطار الغرب الصليبي..

وما ابتأست بلاد بدخول قوم فيها مثلما ابتأست الأقطار (المتخلفة) بدخول الرواد والمكتشفين الغربيين، لقد تحولت الرأفة والرحمة إلى لعنة وهمجية!!

ونحن حين نستقري أخبار المستعمرين والفاتحين الأوربيين والأمريكيين نزدداد يقينا بأن القوم لا علاقة لهم بعيسى ولا بكتابه.. فالبون بعيد بين وحي الله وما في أيدي القوم الآن من تراث روحي مضطرب!

لم تهدأ أحقاد أوربا على الإسلام في قرن من القرون القديمة أو الحديثة، وعاطفتها ضد هذا الدين النقي الطيب قد ترجمت عنها فيما شرعت من قوانين، لا لتعاقب بها المسلمين كأفراد، بل لتنكر وجودهم الإنساني كجماعات ودول!! هذه هي الحقيقة الكالحة!!

ولقد قال الله للمسلمين منذ أول الأمر: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧] وهي قولة الأبد التي لا تتخصص بزمن ولا بيئة! وقولة الحق التي لا تتعلق بظرف ولا حالة!

وتتوالى مواقفهم الخبيثة مترجمة عما نبأنا الله من أخبارهم! فهذا نشيدهم الذي كان يترنم به المحارب وهو يلبس بزة الحرب قادما لاستعمار بلاد الإسلام:

أماه..

أتمي صلاتك.. لا تبكي..

بل اضحكي وتأملي..

أنا ذاهب إلى طرابلس..

فرحا مسرورا..

سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة..!

سأحارب الديانة الإسلامية..

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن.. [1]

وقد انتصرت جيوش الحقد هذه على أمة الإسلام التي قادها أسوأ قادة عرفهم التاريخ!! انتصرت جيوش الغرب بعد أن ذلل لها هؤلاء الحكام السبيل..!!

وتعلمت (دول العالم الحر) أن الاستبداد هو وسيلتها الفذة لتحويل الشعوب المسلمة عن دينها.. فقررت أن تعبث بالدساتير في كل بلد إسلامي، وأن تظاهر حُكاما بينهم وبين الجماهير فجوات بعيدة القرار.. ذلك أنه في غيبة الحرية وسطوة القهر يمكن إلغاء مظاهر إسلامية كثيرة.. والإسلام لم تنتقص أطرافه في الحاضر القريب إلا تحت وطأة الاستبداد.. فالاستبداد غول الأمم والجماعات، غول الذمم والكرامات..

وهو لا شك سيبرز لك وحده، وستبدو جرثومته الخبيثة عندما تبحث عن السر في تأخر المسلمين، وتخلف قافلتهم منذ عدة قرون.

يقول المستشرق و. ك. سميث الأمريكي، والخبير بشئون الباكستان: "**إذا أعطي المسلمون الحرية في العالم الإسلامي، وعاشوا في ظل أنظمة ديمقراطية، فإن الإسلام ينتصر في هذه البلاد، وبالديكتاتوريات وحدها يمكن الحيلولة بين الشعوب الإسلامية ودينها.**"

وينصح رئيس تحرير مجلة تايم في كتابه "سفر آسيا" الحكومة الأمريكية أن تنشئ في البلاد الإسلامية ديكتاتوريات عسكرية للحيلولة دون عودة الإسلام إلى السيطرة على

---

[1] القومية والغزو الفكري (نقلا عن: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام..)

الأمة الإسلامية، وبالتالي الانتصار على الغرب وحضارته واستعماره.

ولا يزال الغرب يبني علاقاته معنا على أساس أن الحروب الصليبية مستمرة بيننا وبينه، والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة متواترة؛ لا ينكرها إلا مَن لا يرى الشمس في رابعة النهار..

هذا "أيوجين روستو" رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية ومساعد وزير الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس جونسون لشئون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧م يقول: "يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية. لقد كان الصراع محتدما ما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة. ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي.."

ويتابع: "إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي؛ فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي، بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها.."

إن "روستو" يحدد أن هدف الاستعمار في الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية، وأن قيام إسرائيل هو جزء من هذا المخطط، وأن ذلك ليس إلا استمرارا للحروب الصليبية.[1]

إن مسلسل الإجرام الصليبي واحد لا يتغير مع توالي القرون، ومنذ عهد مجازر الحملات الصليبية الأولى، مرورا بمحاكم التفتيش ومجازر البوسنة وانتهاءً بآخر الحروب

---

[1] **معركة المصير (نقلا عن: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام..)**

الصليبية هذه الأيام في أفغانستان والعراق..

ففي بداية حرب البوسنة صرح وزير الإعلام الصربي قائلا: "نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة".. وهذه المقولة شبيهة بمقولة سمعها العالَم في الحاضر القريب نطق بها كبيرهم جورج بوش؛ فما أشبه الليلة بالبارحة!

وقال الرئيس الفرنسي أثناء الحرب الصليبية في البوسنة عند زيارته لمطار سراييفو: "لن أسمح بقيام دولة أصولية إسلامية في أوربا".

وأما موقف بريطانيا فكما هو واضح الآن، وقد كان واضحا أيضا في الحرب الصليبية البوسنية، فقد قال رئيس وزرائهم: "إن الهدف النهائي لنا هو تقسيم البوسنة ومنع قيام الدولة الإسلامية في أوربا، وهو الأمر الذي لا يمكن أن نسمح به أبدا".

فعداوة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين قضية مقررة محسومة، وعقيدة راسخة معلومة، بينها الله في القرآن الكريم، وشهد بها التاريخ والواقع الأليم..

قال تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**﴾ [النساء:٨٩]، وقال تعالى: ﴿**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ [الممتحنة:٢]

إن القرآن الكريم لم يحدثنا عن الأطماع الاقتصادية أو الأهداف السياسية والعسكرية أو الحضارية للنصارى واليهود، ولكنه ركز على الأغراض الدينية لهم، أما الأغراض الأخرى فتأتي بالتبع، وصدق الله؛ فقد كانت هتافات الجنود النصارى الزاحفين على بيت المقدس أيام الحروب الصليبية الأولى: أمر الله.. إنها إرادة الله..!

وهذه بعض الصور التي توضح خطوط السياسة الصليبية المنتهجة ضدنا على مدار التاريخ:

☆ لما فتح العرب المسلمون أ.د دُظ لم يُكرهوا أحدا من سكان البلاد الأصليين على الدخول في دينهم، بل أظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف، وأطلقوا للناس حريتهم في ذلك، فكان بعض الأسبان يدينون بالإسلام برضاهم.

فعهد العرب المسلمين في الأندلس كان عهد تسامح وحرية؛ لم تعهده من قبل ولا من بعد! و لم يجيز المسلمون أخذ مال أحد من أهل ذمتهم، بل اكتفوا بجزية بسيطة، وساووهم في جميع الأمور بأنفسهم..

فتأمل هذه المعاملة وقارن بينها وبين ما فعله النصارى بمسلمي الأندلس؛ حيث وصف المأساة التي حلت بالمسلمين الشاعر أبو البقاء الرندي بقوله:

وللمصائبِ سلوانٌ يُهوِّنُها وما
لما حلَّ بالإسلام سلوانُ
دهَى الجزيرةَ خَطبٌ لاعزاء له هَوى
له أحُدٌ وانهدَّ ثَهلانُ [1]
تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ مِن أسفٍ كما
بكى لفراقِ الإلفِ هيمانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ
تبكي وهي عيدانُ
على ديارٍ مِنَ الإسلام خاليةً قد
أقفرَتْ ولها بالكفرِ عُمرانُ
حيثُ المساجدُ قد صارتَ كنائسَ ما
فيها إلا نواقيسٌ وصُلبانُ
تلك المُصيبةُ أنسَتْ ما تقدَّمها وما
لها مِن طوال الدهر نسيانُ

أما ما فعله نصارى الأندلس بالمسلمين فقد شهد به شهود من أهلهم؛ حيث جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو: صحت النية سنة ١٦٠٩م على نفي العرب الموريسك، وكانوا يؤلفون عنصرا خاصا عصيا على التمثل، و لم ينزل عن مميزاته على كثرة ما بذل

---

(١) ثهلان: اسم جبل.

فيليب الثاني من الجهد؛ فوقع الاتفاق على التذرع بكل ما يمكن لإهلاكهم. فعمدت الحكومة إلى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها، ولإنجاز وحدة أسبانيا، وإنقاذ البلاد من أولئك المحالفين سرا للأتراك والإنجليز والفرنسيس!

وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو إلى طرد العرب مدعيا أن منهم تسعين ألفا يستطيعون حمل السلاح، وإذا أغار على أسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقفها!

وأعلن رئيس الأساقفة أن مما يُخشى منه أن يحتكر العرب جميع ثروتنا مما يؤدي بالمسيحيين إلى العدم والشقاء!

وعلى هذا كان من التعصب الديني أن قُضي على العرب. ولما تعذر تنصيرهم رأوا أن الطريق الوحيد إلى الخلاص من خطرهم المادي والمعنوي يكون بطردهم، وحُملوا إلى أفريقية حيث هلك عدد كبير منهم، وثار أربعون ألفا منهم واعتصموا في جبال بلنسية؛ فذُبحوا أو استُعبدوا..

وقال مؤرخ أسباني: يا لسعادة ملك توفق إلى أن يعمل هذا العمل من طرد العرب! ولكن الأمم خارج أسبانيا عدوا عمل الأسبان من تغريب العرب جنونا، بل وصفه "ريشليو" بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون!

وفي سنة ١٤٩٢ عمد الكاردينال "كسيمنس" إلى تنصير المسلمين بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الأولاد، ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم؛ فإنهم لم يسلموا أيضا، واشتد ديوان التفتيش في مراقبتهم..

وقد قُتل في أسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الديني نحو مائة ألف إنسان على الأقل، ونُفي منها مليون ونصف، وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة!!

وقال سيديليو: كان طرد العرب من أسبانيا من موجبات تأخرها، كما وقع لمدينة "نانت" يوم طُرد منها من كان مخالفا للكاثوليكية؛ فأضر ذلك بالصناعة الفرنسية. وقد

تمكن الكاردينال "كسيمنس" من تعوير جميع آثار المسلمين، وأمر بإحراق ثمانين ألف مخطوط عربي في ساحات غرناطة!![1]

☆ وفي **المذبحة الصليبية الأولى** عندما اقتحم الصليبيون الغزاة بيت المقدس؛ ذبحوا المسلمين العُزّل باسم الإله!! حتى بلغ عدد القتلى من المسلمين في ساحات الأقصى وطرقات المدينة نحو سبعين ألفا. وتخبرنا الروايات الصليبية نفسها بأطراف من المأساة؛ يقول "ريمون داجيل" في رواية موثقة لدى أدعياء المسيحية السمحة: "وقعنا على مشاهد لم يسبق لها مثيل، فقد قُتِل عدد كبير من أبناء المدينة فكانوا يُرمَون بالنبال أو يُجبرون على القفز جماعات من فوق الأسوار، كما عُذّب بعضهم قبل أن يُرمَوا في النار، شوارع المدينة كانت مليئة بالرءوس والأيدي والأرجل، وكان الجنود في كل مكان يسيرون فوق الجثث، لقد كانت مجزرة رهيبة، بعدها كنا نسير في بحيرات من الدم، لقد نهب الصليبيون حتى ارتووا".

وذكر ابن الأثير في كتابه "الكامل" أن المذبحة استمرت طوال يوم الدخول وليلته، واقتحم النصارى المسجد الأقصى في صباح اليوم التالي وأجهزوا على من احتموا فيه، وصُبغت ساحات المسجد بدماء العبَّاد والزهَّاد الركَّع السجود، وتوجه قائد الحملة في الضحى لدخول ساحة المسجد متلمسا طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته، وكان النظر لا يقع إلا على أكوام من الرءوس والأيدي والأقدام المقطعة في الطرقات والساحات، ونهب النصارى جميع الأمتعة، وخربوا أثاث المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ونهبوا القناديل التي بلغت نيفا وأربعين قنديلا، كل قنديل وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا نيفا وعشرين قنديلا من ذهب. وأبادوا أهل أنطاكية وخربوا حمص

[1] غابر الأندلس وحاضرها: محمد كرد علي

وبعلبك وحماة وعسقلان وقِنسرين وطبرية وغيرها من البلاد، وهجَّروا أهلها منها، وفعلوا الأفاعيل العظيمة التي استحيى حكماؤهم ومؤرخوهم منها.

☆ التعاون الصليبي مع كل عدو للإسلام قديم؛ تشهد عليه حروب المغول ووقوف النصارى مع التتار في قتال المسلمين!

والأخبار التاريخية تروي أن زوجة "هولاكو" كانت نصرانية، وأن النصرانيةكان لها انتشار بين المغول، كما كانت هناك صلات بين المغول والصليبيين؛ فحملة "هولاكو" على العراق اتخذت سمات الحرب الصليبية المغولية، وقد ظهر أثر هذا التحالف عند دخول المغول بغداد؛ فلم يتعرضوا للنصارى من أهلها بسوء؛ بل كانت بعض بيوتهم مأمنا التجأ إليها بعض المسلمين فنجوا من الهلاك!

بل بلغ الأمر حدًّا أكبر من ذلك؛ عندما منح "هولاكو" بطريرك النساطرة قصرا من قصور الخليفة؛ اتخذه مقرا وكنيسة، وأغدق عليهالعطايا!! [تاريخ الحروب الصليبية: رانسمان]

وقد أشار إلى هذه البلية الشاعر التنوخي في رثائه لبغداد بقوله:

علا الصليبُ على أعلى مَنابِرِها
وقامَ بالأمرِ مَن يَحويه زُنَّارُ [1]

ويشهد لهذا أيضا وصف ابن كثير لتلك الفاجعة بقوله: ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقِنى[2] الوسخ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

[1] الشاعر التنوخي يرثي بغداد: مقال لمأمون فريز جرار/ نقلا عن مجلة الأمة. والزُّنار: ما يلبسه الذمي يشده على وسطه.

[2] جمع قناة.

وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينجُ منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانا؛ بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة.. [البداية والنهاية]

✰ وخلال تاريخ الحركة الاستعمارية الغربية للعالم الإسلامي وبقية المستعمرات أظهر المستعمر الغربي صورا قاتمة كالحة ملؤها الظلم والقهر والاستغلال.

فعلى الصعيد الإنساني ارتكب المستعمرون مجازر بحق الشعوب التي قامت تدافع عن دينها وخيراتها، فقد بلغت أعداد قتلى المسلمين في الهند حتى عام ١٨٨٠م مليون مسلم سقطوا على يد الإنجليز، ومثله كانت الجزائر بلد المليون شهيد.

وكان البرتغاليون قد أحدثوا مجازر عند سيطرتهم على الشواطئ الهندية، ويسجل القائد البرتغالي البوكيرك بفخر بعضا منها وهو يخاطب ملك البرتغال مهنئا إياه بالسيطرة على مقاطعة جوا الهندية فيقول: "وبعد ذلك أحرقت المدينة، وأعملت السيف في كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أياما عدة.. وحيثما وجدنا المسلمين لم نوقر معهم نفسا، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيها النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت، وقد كان ذلك يا سيدي عملاً عظيما رائعا أجدنا بدايته وأحسنا نهايته." !!!

وفي مدغشقر قتلت القوات الفرنسية ثمانين ألفًا في ضربة واحدة للثائرين من سكان الجزيرة، فيما أعمل الإنجليز القتل في قبائل ماو ماو الأفريقية، ثم ادعوا أن وحوشا مفترسة ظهرت في المنطقة وتخطفت الآلاف إلى مصارعهم..!!!

وفي الجزائر يقول الجنرال الفرنسي شان: إن رجاله "وجدوا التسلية في جز رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة في بلدتي الحواش وبورقيبة"!!!

ويخط الماريشال سانت أرنو إلى زوجته بعض ما صنعه وجنوده في الجزائر فيقـــول: "إن بلاد بني منصر بديعة، وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا، فقُراها متقاربة، وأهلـــها متحابون، لقد أحرقنا فيها كل شيء، ودمرنا كل شيء.. أكتب إليك يحيط بي أفق مـــن النيران والدخان، لقد تركتني عند قبيلة البزار فأحرقتهم جميعا، ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع".

ويقول مونتياك في كتابه "رسائل جندي" وهو يصف إحدى المذابح التي حضرها: "لقد كانت مذبحة شنيعة حقا، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والأفنية التي انتشرت عليها الجثث في كل مكان، وقد أحصينا في جو هادئ بعد الاستيلاء على المدينة عدد القتلى من النساء والأطفال فألفيناهم ألفين وثلاثمائة، وأما عدد الجرحى فلا يكـــاد يذكر لسبب هو أننا لم نترك جرحاهم على قيد الحياة".

وقد بلغ عدد القتلى في مدينة سطيف في مايو ١٩٤٥م ما يقرب الأربعين ألفا.

ويشنع الكونت هيريسيون على هذه القبائح التي لا مبرر لها فيقول: "فظائع لا مثيل لها، أوامر الشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر.. في أناس مساكين جُلُّ ذنبهم أنهم لايستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب إليهم أن يرشدونا إليه"!

وقد تفنن المستعمرون في طرق إبادة هذه الشعوب، ومما أبدعوه في هذا الباب طريقة يسمونها "جهنم" حيث يتبع الجنود الهاربين من النساء والأطفال والرجال إلى الكهـــوف فيشعلون عند باب الكهف نارا عظيمة، فيموت مَن بداخله حرقا أو خنقا.

أما الأسباب الحقيقية التي تدفع دول الغرب الصليبي إلى ممارسة هذه الأساليب الوحشية؛ فبعد دراسة الحملة الفرنسية وتحليل تاريخها توصل العلامة محمود شاكر إلى أمر هـــام؛ مفاده أن الاستعمار يتحرك باتجاه البلاد الإسلامية ليس طمعا في ثرواتـــها فحسب، وليس بهدف تبشيرها فقط، بل إنه يقرأ مسيرة الأمة الإسلامية

من خلال الدراسات الاستشراقية الغربية، فإذا ما وجد
محاولة جادة للنهوض بهذه الأمة من كبوتها
تحرك لوأد هذا المولود قبل أن يكبر
ويعيد ما كان قبل قرون.[1]

لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ مِن كَمَدٍ إنْ كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

☆ في أفريقيا الشرقية أمة إسلامية كبيرة بعثرتها الظروف السيئة على أقطار شتى، ثم أدركتها أطماع الاستعمار فنالت منها كل منال!

من هذه الأمة البائسة "أريتريا" التي سقطت في براثن الاحتلال الإيطالي، ثم البريطاني. وما كادت تنتعش قليلا وترجو الخلاص من كلا البلاءين حتى تحركت نحوها الحبشة تطلب أن تضمها إليها فيما يسمى "الاتحاد الفيدرالي".[1]

وهب الجمهور الساخط يطلب الاستقلال بأمره، والنجاة من غول التعصب الحبشي القائم. بيد أن الأحباش كانوا بالمرصاد لهذه الحركات؛ فأرسلوا رجالهم بالخناجر والمسدسات يقتلون الأحرار ويبثون الرعب.

وعندما حاول أحد الزعماء الذهاب إلى منظمة الأمم المتحدة لعرض قضية بلاده اغتاله الأحباش وهو على أهبة السفر.

ثم التقى الساسة الأحباش مع الساسة العالميين على أمر قد قُدر! فضُمت "أريتريا" المسلمة إلى الحبشة!!

---

[1] أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: عبد الرحمن حبنكة – الاستعمار أحقاد وأطماع: محمد الغزالي (نقلا عن "الاستعمار في العصر الحديث ودوافعه الدينية" د/ منقذ السقار)

[1] الفيدرالية هي اتحاد اختياري بين ولايات أو دول أو أقوام تختلف قوميا أو عرقيا أو ديانة أو لغة أو ثقافة حتى تتحول إلى شخصية قانونية واحدة أو نظام سياسي واحد، مع احتفاظ أجزاء هذه الشخصية المتحدة بخصوصيتها وهويتها. ويوجد تفويض للكيان المركزي للاتحاد بالبعض من الصلاحيات المشتركة مع الاحتفاظ ببعض الصلاحيات لهذه الأجزاء أو الولايات. بما يعني توافر الاستقلال الذاتي للولايات المكونة للاتحاد. ولهذا أهم ما تتميز به الدول الفيدرالية أو الاتحادات الفيدرالية هو الاستقلال الذاتي لكل ولاية أو دولة مشتركة في الاتحاد. وللاتحاد الفيدرالي دستور أو قانون أساسي يسمى بالدستور الاتحادي يبين الأسس والركائز التي تقوم عليها الولايات أو الدول داخل الاتحاد، كما يحدد الاختصاصات والسلطات الاتحادية أو المركزية علاوة على بيان سلطات الولايات واختصاصاتها.

وشرع هؤلاء -فور تسلمهم مقاليد البلاد- في إزهاق روح الإسلام، وقتـــل كـــل كرامة لأهله!

فُتحت للفلاحين المسلمين سجون جماعية رهيبة، يُجلد فيها الفلاحون بالسياط، وبعد إنزال أفظع أنواع العذاب بهم كانوا يُلقَون في زنزانات بعد أن تُربط أيديهم بأرجلـــهم، ويتركون هكذا لعشر سنين أو أكثر، وعندما يخرجون من السجون كانوا لا يســـتطيعون الوقوف، لأن ظهورهم قد أخذت شكل القوس!

كل ذلك كان قبل استلام "هيلاسيلاسي" السلطة في الحبشة، فلما أصبح إمبراطور الحبشة وضع خطة لإنهاء المسلمين خلال خمسة عشر عاما، وتباهى بخطته هذه أمام الكونجرس الأمريكي!!

وقد سن تشريعات لإذلال المسلمين؛ منها أن أي موظف مسيحي لا يركع له المسلم حينما يدخل عليه في مكتبه؛ يعتبر ذلك إهانة موجهة إلى السلطة العليا التي تمثل الـــذات الملكية! وجزاؤه أن يُجلد خمسا وأربعين جلدة؛ ربما لا يبقى حيا بعد عشرين منـــها! وأن يُحبس مدة تتراوح بين سنتين وخمس سنين!!

وأمر أن تستباح دماؤهم لأقل سبب، فقد وُجد شرطي قتيلاً قرب قريـــة مســـلمة، فأرسلت الحكومة كتيبة كاملة قتلت أهل القرية كلهم وأحرقتهم مع قريتهم، ثم تـــبين أن القاتل هو صديق المقتول، الذي اعتدى على زوجته!!

حاول أحد العلماء واسمه الشيخ عبد القادر أن يثور على هذه الإبادة فجمع الرجال، واختفى في الغابات، فجمعت الحكومة أطفالهم ونساءهم وشـــيوخهم في أكـــواخ مـــن الحشيش والقصب، وسكبت عليهم البترين وأحرقتهم جميعا.

ومن قبضت عليه من الثوار كانت تعذبه عذابا رهيبا قبل قتله، مـــن ذلـــك إطفـــاء السجائر في عينيه وأذنيه، وهتك عرض بناته وزوجته وأخواته أمام عينيه، ودق خصـــيتيه

بأعقاب البنادق، وجره على الأسلاك الشائكة حتى يتفتت، وإلقاؤه جريحا قبل أن يموت لتأكله الحيوانات الجارحة، بعد أن تربطه بالسلاسل حتى لا يقاوم.

أصدر هيلاسيلاسى أمرا بإغلاق مدارس المسلمين وأمر بفتح مدارس مسيحية وأجبر المسلمين على إدخال أبنائهم فيها ليصبحوا مسيحيين.

وعين حُكاما فجرة على مقاطعات إريتريا، منهم واحد عينه على مقاطعة "جَمَة"، ابتدأ عمله بأن أصدر أمرا أن لا يقطف الفلاحون ثمار أراضيهم إلا بعد موافقته، وكان لا يسمح بقطافها إلا بعد أن تتلف، وأخيرا صادر تسعين بالمائة من الأراضي، أخذ هو نصفها وأعطى الإمبراطور نصفها. ونهب جميع ممتلكات الفلاحين المسلمين.. كما فرض على الفلاحين أن يبيعوا أبقارهم لشركة "أنكودا" اليهودية.

وأمرهم أن يبنوا كنيسة كبرى في الإقليم فبنوها.. وهو الذي استن بناء كنيسة على مدخل كل مدينة مسلمة حتى يُظن أن الحبشة كلها مسيحية.. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل فُتحت بيوت الدعارة وانتشرت الحانات في كل مقاطعة وفي كل شارع كبير من شوارع المدن..[1]

☆ بدأت الحرب في **اُج ْع خ ٌاْشَعد ه** [2] على غفلة من العالم الإسلامي الذي كان يتابع بإحباط تام ما آلت إليه القضية الأفغانية، وكان أهل البوسنة يذرعون البلاد الإسلامية طولا وعرضا يعرضون قضيتهم على إخوانهم المسلمين. وكانت القوات اليوغوسلافية تحاصر وتدك مواقع السلوفيين (سلوفينيا) وهي تدين بالمذهب الكاثوليكي، بينما يدين الصرب بالمذهب الأرثوذكسي. وساندت أوروبا السلوفينيين حتى أعلنوا استقلالهم، واعترفت أوروبا بهم، وبعدهم أعلن الكروات الاستقلال، فسحب الصرب جيوشهم

---

(1) كفاح دين (بتصرف)

(2) **بدأت هذه الحرب في ١٧ أبريل ١٩٩٢، و انتهت ١٩٩٥ بعد توقيع اتفاقية دايتون، و بعد إبادة أكثر من ثلاثمائة ألف مسلم باعتراف الأمم المتحدة.**

الجرارة، واتجهوا بها إلى كرواتيا التي ساندتها أوروبا بكل قوة وهي كاثوليكية، حتى إذا ما أعلنت البوسنة والهرسك استقلالها على لسان القائد المناضل علي عزت بيجوفيتش؛ وكان الصرب قد احتلوا ثلث مساحة كرواتيا أبقوا بها حامية من الجيش، واتجهوا إلى بلاد البوسنة الخالية من الأسلحة؛ حيث أن الكروات والسلوفيين يملكون أسلحة ودعمًا..!

بدأت القوات الصربية تعيث فسادا في البلاد طولا وعرضا، وقالوا للعالم: إن بلاد البوسنة لن تصمد سوى أربع أو خمس ساعات وتكون كلها بقبضة الصرب! (**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**)..

زحفت الكلاب الصربية على "سراييفو" التي ظلت تقاوم، وسقطت مدن: "بريدور" و"بانيالوكا" و"بالي" ومدن كثيرة بقبضة الصرب، بينما المدن الأخرى محاصرة، وقطعوا أوصال البوسنة، وظهر رئيس البوسنة والهرسك علي عزت بيجوفيتش بالتلفاز يعلن للشعب البوسنوي بداية حرب العصابات، وأنه لا جيش بالبوسنة، وكل أهل شارع أو منطقة أو قرية يدافعون عن أنفسهم حتى يستعيد المسلمون صفوفهم.

فكانت المجازر والروايات الحزينة والاغتصابات.. وانتشرت أخبار المذابح والجرائم الصربية التي أظهرت كوامن الحقد الصليبي على الإسلام والمسلمين..

كانت الدول النصرانية الأرثوذوكسية تدعم الصرب، ومنهم روسيا التي أمدت الصرب بأربعمائة عربة قطار من الذخيرة!! وكان هناك متطوعون للقتال ضد الإسلام والدفاع عن النصرانية، وقد قام متطوعون أرثوذوكس بالقتال إلى جانب إخوانهم الصرب، فقد وفد على الصرب متطوعون من بلغاريا والمجر وروسيا وقبرص..

إضافة إلى المرتزقة العراقيين الشيوعيين..!!

وفي جبال إيجمان دخل المجاهدون المسلمون معركة حامية مع الصـرب، وبينما أسد الله ثابتة في مواقعها إذ أرقهم وأشغلهم رجل طويل القامة، ضخم الجثة، كث اللحية، يحمل سلاحين للبيكا!![1] بيكا بيده اليمين، وأخرى بيده الشمال، ويرمي بالنيران باتجاه المجاهدين..!!

تقدم بعض المجاهدين العرب وعملوا له كمينًا؛ لأنهم يريدونه أسيرًا ليقفوا على حقيقة أمره لما فعله من استبسال ضد المجاهدين..

وسقط عدو الله في الكمين، وأُخذ أسيرًا، وعندما فتشه المجاهدون وجدوا معه جواز سفر فإذا هو ليس صربيًّا، بل من المجر!! وحين سألوه عن سبب قدومه، قال: الدفاع عن إخواني النصارى!!

وسقط غيره الكثير من الأسرى والجرحى من دول نصرانية عديدة.

وقد أنشأ الجيش الصربي شركة سياحية لها فروع في جميع أنحاء أوروبا تنظم الرحلات إلى البوسنة والهرسك. ومن مزايا الرحلة: الاشتراك بعملية قنص المسلمين المحاصرين في سراييفو، والاستمتاع بمشاهدة الحرب على الطبيعة!!

وفعلا قدمت مجموعات كثيرة، وشاركوا في قنص المسلمين وقتلـهم، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم. [بتصرف من "قصص الشهداء العرب في البوسنة"]

وبانت سوءة الغرب في تلك الحرب التي فاقت وحشية المغول والتتار، فقد عذبوا أئمة المساجد وطالبوهم بالكفر بالإسلام، والإيمان بالنصرانية، وأجبروا كثيرا من المسـلمين في مخيمات الأَسْر على أكل لحم الخنـزير، وكان الإعدام الجماعي من سمات وحشـيتهم، شمل ذلك الرجال والأطفال والنساء، بل كانوا يستنـزفون دماء المسلمين لإمداد الصرب الجرحى بالدم المسلم. وكانت جائزة كل صربي يقتل مسلما ما يعـادل ثلاثمائـة جنيـه إسترليني. وأما اغتصاب المسلمات العفيفات فأمر يندى له الجبين. وبلغ عـدد اللاجـئين

[1] يزن سلاح البيكا مع صندوقه عشرة كجم تقريبا.

الهاربين من هذه الوحشية أكثر من مليونين ونصف تلقفتهم الأيدي بين قابل ورافض. و لم يعرف العالم الأوربي لذلك مثيلاً منذ الحرب العالمية الثانية.

نُسبَى ونُطرَدُ يا أبي ونُبادُ ... فإلى متى يتطاولُ الأوغادُ؟
وإلى متى تُدمي الجراحُ قلوبَنا ... وإلى متى تتقرَّحُ الأكبادُ؟
نصحو على عزفِ الرصاصِ كأننا ... زرعٌ وغاراتُ العدوِّ حَصادُ
ونَبيتُ يجلِدُنا الشتاءُ بسَوطِهِ ... جَلدًا فما يَغشي العيونَ رُقادُ
يتسامَرُ الأعداءُ في أوطانِنا ... ونَصيبُنا التشريدُ والإبعادُ
نُشرَى كأنا في المحافِل سلعَةٌ ... ونُباعُ كي يتمتعَ الأسيادُ
أنَّى اتجهنا يا أبي ظهرتْ لنا ... إحَنٌ يُحرِكُ جمرَها الحُسَّادُ [1]

☆ **معتقل X-RAY :**

يقول عادل كامل في "مذكراتي في جوانتنامو": كما هو واضح من اسم المعسكر فهو يعني أنه مكشوف تماما من جميع الجهات، فلا مجال للاختباء فضلاً عن الهرب.

يقع المعسكر في جزء من جزيرة كوبا قبالة ولاية فلوريدا الأمريكية.

وقد تم تشييد المعسكر قريبا من ساحل البحر، وهذا الساحل عبارة عن شواطئ صخرية مرتفعة ومطلة على المحيط الأطلسي. وكانت دوريات خفر السواحل الأمريكية تطوف المياه روحة وإيابا، هذا فضلا عن أبراج المراقبة الكثيرة والتي تحرس المعتقل طوال اليوم.

[1] من قصيدة "عندما يعزف الرصاص" للشاعر د. عبد الرحمن العشماوي

والمعتقل عبارة عن عدد من الزنازين مقسمة إلى ستة عنابر، وكل عنبر بـه ستون زنزانة. والمعتقل مبني في أرض فضاء ليس فيه ما يقي من برد الشتاء والمطر أو من حر الصيف والشمس.

والزنزانة مشيدة من الشبك من الجهات الأربع ومن السقف، أما الأرضية فمبنية من الخرسانة.

مساحة الزنزانة حوالي مترين × متر وثمانين سنتيمترا. للزنزانة باب من حديد وشبك. تحتوي الزنزانة على حصيرة من الإسفنج الرقيق جدا سمكه حوالي نصف سنتيمتر، وقد وضع كل معتقل في زنزانة لوحده وأعطي بطانيتين خفيفتين وشرشف ومنشفة ونعل بلاستيك وسطلان أحدهما للماء الذي نستخدمه لكل شيء من الشرب والوضوء والاغتسال والآخر للخلاء وقضاء الحاجة.

وقد كان من أشد الأمور التي تضايقنا، هي أننا لا نستطيع أن نختلي لقضاء الحاجة! بقينا طوال سنوات الاعتقال بالملابس البرتقالية التي كانت تغسل من حين لآخر، وبشكل متقطع.

ويكثر في المعتقل وجود الزواحف والثعابين والعقارب والفئران والحشرات. وكانت الأنوار القوية المسلطة والمضاءة طوال الليل لا تمنعنا من القدرة على النوم فحسب، بل تجلب البعوض الذي يمنعنا من النوم أيضا.

لقد تم تصميم المعسكر بطريقة تهدف إلى زيادة الضغط النفسي على المعتقلين وإضعاف عزائمهم وكسر معنوياتهم، وفوق كل ذلك فقد كان الجنود يتعمدون إزعاجنا وتشغيل مكبرات الصوت العالية لمنعنا من النوم، ولكننا مع الوقت اكتسبنا مناعة ضد كل ما مر ولم نعد نلقي له بالاً.

ووسائل التعذيب التي تمارس ضد المعتقلين كانت متنوعة ومتجددة بشكل دائم، وقد استخدموا أساليب قاسية جدا، منها الضرب المبرح والتقييد إلى الأرض بشكل مستمر لمدة

ثماني وأربعين ساعة مع المنع من أداء الصلاة والذهاب إلى الحمام وعدم تقديم الطعام والشراب، ومنها تقييد الرجلين إلى اليدين من الخلف بشكل مؤلم، والتحرش الجنسي من قبل المجندات، وتعري المجندات أمام المعتقلين، وتلويث أجسادهم بدم الحيض، كما كانوا يهددون المعتقلين بالاعتداء عليهم جنسيا، وكانوا يقومون بإدخال قوات الشغب إلى غرف التحقيق لإرهاب المعتقلين وضربهم، وكانوا يقومون بتشغيل الموسيقى الصاخبة في الليل والنهار على المعتقل أثناء التحقيق معه؛ مع تسليط الأنوار العالية على أعينهم طوال الليل لمنعهم من النوم، فإذا ما أغلق المعتقل عينيه رشوا عليه مادة حارقة في الأنف لإرغامه على فتحهما. وكانوا يضعون المعتقلين في الزنزانة الانفرادية لفترات طويلة.

وقد وضعوني في السجن الانفرادي مدة شهر كامل، ووضع غيري من الإخوة لمدة تصل إلى ستة أشهر أحياناً وتحت درجات حرارة عالية أو منخفضة، وكانوا يهددوننا بإدخال الكلاب علينا في الزنزانة، وقاموا بمصادرة الفرش وقطعة البلاستيك الرقيقة المفروشة على أرضية الزنزانة لمدة تزيد على الشهر مما يضطر المعتقل للنوم على الخرسانة.

وكانت إدارة السجن تتلاعب بالطعام المقدم لنا بحيث تخلط الأرز المطبوخ بأرز غير مطبوخ، أو تخلط الخضروات السليمة بخضروات فاسدة عفنة تفوح منها رائحة كريهة.

وكانوا يزعجوننا أثناء أداء الصلوات بتعمد رفع الصوت وافتعال الإزعاج حتى يشوشوا علينا في الصلاة. وكانوا يغسلون العنابر ويكنسونها في أوقات النوم لمنعنا من النوم، ولكننا ولله الحمد كنا نتأقلم مع الظروف المتجددة.

لقد استخدم المحققون معنا جميع أساليب الترغيب والإغراء، فقد كانوا يمنوننا بإعطائنا الأموال والعودة إلى بلادنا مع توفير متع الحياة الغربية، وتم إغراؤنا بالنساء وهم من يدعي حفظ حقوق المرأة والدفاع عن كرامتها، ووعدونا بمنحنا الجنسية الأمريكية إذا قدمنا لهم المعلومات والأدلة التي تدين بعضنا البعض أو تفيدهم فيما يسمونه الحرب على الإرهاب.

ومن أساليب التعذيب النفسي أن يقوم الجنود بإخبار المعتقل بأنــه ســيفرج عنــه ويعطونه ملابس عادية ليلبسها ويأخذونه إلى الطائرة، وعند باب الطائرة يقولون له أنه قد حصل لبس في الأسماء ثم يعيدونه إلى الزنزانة.

ولكننا لم نرضخ لوسائل الترغيب والترهيب. وكانت تصرفات الجنود في نظرنا أقرب إلى تصرفات الأطفال أو المخبولين، وأيقنا بأنهم ليست عندهم مروءة ولا رجولة وأنهم لا يفهمون شرف الجندي الحقيقي، وأيقنا كذلك أنهم جبناء إلى درجة لم نكن نتصورها.

كان الصليب الأحمر يشارك في الجريمة التي نتعرض لها، وفي تلفيق الأكاذيب ضدنا. وكان موظفو الصليب الأحمر يعينون الجنود أثناء التحقيق باستدراج المعتقلين نفسيا للبوح ببعض المعلومات التي لا يتمكن المحققون من الحصول عليها من المعتقلين أثناء التحقيــق. وقد ينخدع المعتقل في بعض الأحيان بأن الصليب الأحمر قد جاء لمساعدته؛ ومِــن ثَــم يعطيه بعض المعلومات التي يقوم رجال الصليب الأحمر بنقلها للمحققين.

كنا نشكو للصليب الأحمر بأن الماء الذي نشربه في الزنازين كان ملوثــا، وكــانوا ينفون ذلك بشدة ويدعون أن الماء نقي وصحي، فكنا نطلب منهم أن يشربوا منه ليثبتــوا لنا أنهم صادقون، فيرفضون الشرب منه.

كان موظفو الصليب الأحمر يكذبون علينا ويعطوننا الوعود والآمال عــن قــرب الإفراج عنا إذا ما تعاونا مع المحققين.

لذلك فقد كنا متيقنين بأن هؤلاء يحملون من الحقد على العرب والمسلمين بنفس القدر الذي يحمله ضدنا الجنود الأمريكيون، مما يؤكد أن الصليب الأحمر كان يقوم بدور مشبوه في المعتقل.

كان الجنود يقدمون لنا كمية بسيطة من الطعام بحيث تبقينا على قيد الحياة فقــط، وكانت الكمية المقدمة لنا لا تزيد عن مقدار إصبع من أصابع اليد، رغم أنهــم يرمــون

كميات كبيرة من اللحم والدجاج في القمامة أمام أعين المعتقلين، وعندما نسألهم: لمـــاذا يرمون الطعام ولا يقدمونه لنا؟، يقولون: بأننا لا نستحق الطعام، وأننا نأكل أكثـــر ممـــا نستحق!

وكانوا يسرقون بعض الطعام المخصص للمعتقلين كالزبادي أو الخبـــز أو البـــيض، فكانوا يعطوننا بيضة واحدة ويأخذون الأخرى، أو يعطوننا خبـــزة واحـــدة ويســـرقون الأخرى، وكانوا في رمضان يخصصون عشر تمرات لكل معتقل، ولكنهم كانوا يقـــدمون لنا ثلاث تمرات ويرمون الباقي!

وفي الفترات التي أعقبت الإضراب عن الطعام وعدتنا الإدارة بتقديم الكورن فليكس ثلاث مرات في الأسبوع، ولكن الجنود كانوا يقدمونه لنا مـــرة واحـــدة في الأســـبوع، ويخفون الباقي ويأكلونه بأنفسهم.

وقد كنا نراهم يضعون البيض المسلوق وعلب الكـــورن فلـــيكس في حقائبـــهم ليأكلوها خارج المعسكر. وبينما كان الجنود يشربون الماء الصحي والمقطر كـــان المـــاء الموصل بالحنفيات في الزنازين مليء بالأتربة والصدأ والكلور، فكنا نصاب بآلام في البطن عند شربه وكنا نطلب منهم أن يغيروا الماء ولكنهم يرفضون حتى بقينا أكثر من ثـــلاث سنوات ونحن نشرب من هذا الماء الملوث!

أما حوادث إهانة المصحف الشريف فكانت تتكرر منذ الأيام الأولى في المعتقل. وقد وقعت إحدى هذه الحوادث أمامي، حيث كان أحد المعتقلين يضع مصحفه على بطانية، فجاء أحد الجنود وقام بشكل متعمد بحركة استفزازية بهدف إثارة المعـــتقلين، فســـحب البطانية وسقط المصحف على الأرض، فثار المعتقلون وبدأوا بالصراخ والاحتجاج علـــى هذا التصرف الأهوج، وأخبروه بأن هذا كتاب الله وعليه أن يحتـــرم مشـــاعر المعـــتقلين ودينهم، فقال مستهزئا: هل هذا هو كتابكم المقدس؟! ثم قام بركل المصحف عدة مرات برجله، فغضب الشباب كثيرا، وطلب مني الإخوة أن أوجه له تحذيرا بألا يكـــرر هـــذا

الفعل، فتكلمت معه بشدة وغضب، فكان يشتمني ويسبني، فقام الإخوة بالتكبير الجماعي بصوت واحد مرتفع جدا، حتى أصيب السجانون بحالة من الرعب، وبدأوا يركضون ناحية باب المعسكر طلبا للهرب.

عند ذلك خرج الضباط من مكاتبهم ورأوا المنظر وما أصاب جنودهم من الرعب وسمعوا أصوات التكبير والضرب على شبك الزنازين؛ فتم استنفار الجنود واستدعيت السيارات العسكرية، وتمت محاصرة المعتقل بالأسلحة الثقيلة!!

كان الأمر مروعا بالنسبة لهم، ولكن في نفس الوقت ارتفعت الروح المعنوية للشباب عندما اكتشفوا أنهم يملكون السلاح الأقوى وهو سلاح التكبير.

بعد ذلك جاءنا المسئولون ليستفسروا عن سبب الغضب والهيجان، فأخبرناهم بما حدث، وحذرناهم من التمادي في مثل هذا التصرف، فوعدونا بأن هذه الحادثة لن تتكرر وطلبوا منا الهدوء، ولأنني كنت المترجم للإخوة حيث كنت أجيد التحدث باللغة الإنجليزية، ظن الأمريكان بأنني كنت المحرك للشغب والعصيان فقاموا بنقلي من هذا العنبر إلى عنبر آخر.(1)

ملكنا فكان العدلُ منا سجيةً ... فلما ملكتُم سالَ بالدم أبطحُ
وحلّلتم قتلَ الأسارى وطالما ... غدونا عن الأسرى نَعِفُّ ونَصفحُ
فحسبُكمُ هذا التفاوتُ بيننا ... وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يَنضَحُ

☆ **وهذه مقاطع من رسالة سرية خطية لرئيسة الفلبين "جلوريا أورويو" موجهة إلى الرئيس الأمريكي "جورج بوش"، وقد حصلت مجلة "المجتمع" على نسخة**

(1) بتصرف من: مذكرات عادل كامل البحريني– العائد من جوانتنامو

منها، وهي تكشف ما يدبره الغرب المسيحي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، كما تجسد بما لا يدع مجالاً للشك مقدار العداء والشر الذي يضمره الغرب المسيحي للإسلام والمسلمين.

وفي الوقت نفسه تكشف عن المخططات التي يتم تدبيرها للقضاء على أي قوة للمسلمين والعمل على تشتيت وحدتهم وإهالة التراب على قضايا التحرر التي تناضل من أجلها الشعوب الإسلامية، وفي المقابل تكشف عن الترتيبات الرامية لإقامة القواعد والتحالفات الصليبية ضد المسلمين..

الرسالة تؤكد صراحة أن الإسلام هو العدو البديل بعد سقوط الشيوعية، وتحذر بكل وضوح من تنامي المد الإسلامي، وتضع الاقتراحات لوقفه، وتؤكد ضرورة تصفية جبهة "مورو" الإسلامية تمهيدا لتصفية قضية المسلمين في الفلبين من بعدها.

وتعترف الرسالة بضلوع المخابرات الأمريكية والفلبينية في صناعة جماعة "أبو سياف" لإيجاد مبررات لاستقدام القوات الأمريكية للمنطقة، وتؤكد عزمها نقض كل الاتفاقات المبرمة مع المسلمين!!

كما تكشف عن دور المعونات العسكرية الأمريكية في دعم نصارى جُزر الملوك وتيمور الشرقية في إندونيسيا.

كما تكشف عن مخطط لإقامة كومنولث[1] مسيحي، في منطقة آسيا الباسيفيكي ضد الإسلام. وتصف اليابان والصين ضمن الدول الأعداء للسياسة الأمريكية..

وهذه مقاطع من الرسالة:

---

[1] الكومنولث: رابطة تطوعية تضم دولا مستقلة تتشاور وتتعاون فيما يتعلق بالمصالح المشتركة لشعوبها والترويج للتفاهم على الصعيد الدولي والسلام العالمي. وتستطيع دول الكومنولث بالاستعانة بتراثها المشترك من اللغة والثقافة والقانون والتعليم أن تعمل معا في بيئة يعمها التفاهم والثقة. والصفة المميزة لنشاطات الكومنولث هي المزيج ما بين الرسمي (الحكومي) وغير الرسمي (جماعات وهيئات المجتمع المدني). وخلافا لهيئة الأمم، ليس لرابطة الكومنولث ميثاق. فهي ليست رابطة تحكمها القوانين، بل إن الدول الأعضاء فيها يوقعون على عدد من الإعلانات أو القرارات التي توثق المقاييس والمباديء المشتركة.

يا صديقي العظيم.. لقد نلت شرف إخبار سعادتكم بصفتكم القائد العظيم للعالم، بدعم حكومتي المطلق وغير المشروط لتصميمكم وإرادتكم السياسية القوية على سحق أركان الإرهاب العالمي المتخفي تحت إرهاب الحركة الإسلامية العالمية المعروفة بـ"القاعدة" حيثما وُجدت وكيفما تَخفت. إن الفلبين تقف جنبا إلى جنب مع أمريكا وليس مع الإرهابيين.

إن حكومة بلادي ترى أن الولايات المتحدة الأمريكية في موقف يجعلها تقوم بتنفيذ برنامجها النبيل المسمى "التغير العالمي للمواقع والحملة على الإرهاب" من خلال الحرب الدائرة في أفغانستان وإقامة قواعد عسكرية أمريكية في كل الدول الاستراتيجية التي يمكن استغلالها لاستقرار اقتصاد اتحاد سيادتكم العظيم. وهذه الدول ومعظمها دول عالم ثالث في آسيا والقارة السوداء غنية بالموارد الطبيعية غير المستغلة حتى الآن، وتمثل أسواقا كبيرة لفائض منتجات الولايات المتحدة الأمريكية مثل تكنولوجيا المعلومات وأنواع أخرى من المعدات العسكرية على سبيل المثال.

إن وضع حكومتكم العسكري النشط في دول استراتيجية عدة متمثلا في وزارتي الدفاع والخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية في الفلبين وكازاخستان وأفغانستان وطاجيكستان وأوزبكستان، سوف يدفع ويقوي قبضة سيطرة أمتكم العظيمة على اقتصاد العالم وقدراته العسكرية، وما أن تُقم هذه القواعد في هذه الدول فإن الدور المتصاعد لسعادتكم كقائد للعلم ولحكومتكم بصفتها رَجُلُ الشرطة العالمي سيكون مُهابا لا يتحداه أحد أو ينازعه فيه. ولربما ملأ الفراغ في ميزان القوى في المنطقة إذ تتحقق في هذا العقد من القرن "اتفاقية الرفاهية المشتركة لمجموعة الدول الآسيوية المطلة على المحيط الهادي" الذي حلمت به حكومتكم.

إن حكومتي تدرك تماما، أن احتياطيات الغاز والنفط في تلك الدول ذات الأغلبية المسلمة في منطقة بحر قزوين وآسيا الوسطى حيوية جدا للمصالح الاقتصادية الأمريكية، ما

إن تُحكم الولايات المتحدة الأمريكية قبضتها على أفغانستان والتي تمثل أقصر الطرق اقتصاديا لخط أنابيب الغاز المزمع إقامته قريبا.

يا سيدي الرئيس! إن التخطيط لإنشاء قواعد عسكرية سيُقوي الحملة الواسعة ضد التهديد المتنامي للإرهاب والأصولية الإسلامية في كل أرجاء المعمورة ومثل كل الأمم الديموقراطية فإن حكومتي تعتقد أن الإسلام قد حل فعليا محل تهديد الشيوعية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، وأصبح العدو اللدود للديموقراطية. وتشير مجموعة من تقارير وكالة الاستخبارات الأمريكية التي تسلمها مجلس الأمن القومي الفلبيني من سفارة أمريكا في مانيلا إلى أن الإسلام أصبح أسرع الأديان نموا من حيث العدد، مع تركز شديد له في إندونيسيا والهند وبنجلاديش وباكستان ومصر وتركيا وكومنولث الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتي السابق.

إن تصاعد الإسلام المُسلح في دول جنوب شرق آسيا يُمثل خطرا داهما على الاستقرار السياسي للحكومات الإسلامية الملكية والمعتدلة مثل ماليزيا وإندونيسيا وسلطنة بروناي دار السلام.

إنني يا سيادة الرئيس وبتواضع أؤكد لسيادتكم أن التحرير الفوري والتحالف الحتمي بين الفلبين والمناطق ذات السيطرة المسيحية مثل منطقة صباح وسارواك في إندونيسيا وتيمور الشرقية لا يمكن تحقيقه إلا إذا أحكمت الولايات المتحدة الأمريكية سيطرتها على الدول الآسيوية المطلة على المحيط الهادي، إن المسيحية يجب أن يكون لها قاعدة وقوة في جنوب شرق آسيا والمحيط الهادي لكسر سيطرة الأمم المعادية للمسيح في المنطقة الأرخبيلية.

ولقد اختارت حكومتي مسئولين كبارا من الجبهة الوطنية لتحرير مورو لتشكل بهم فصيلا منشقا أسميناه: "المجلس التنفيذي للجبهة الوطنية لتحرير مورو" مكون من خمسة عشر فردا. ولقد بدأنا انتخابات محلية للمنطقة الواسعة التي تتمتع بالحكم الذاتي في جزيرة

ميناناو المسلمة المسماة ARMM هذا الشهر حتى نُنصب المسئولين الخمس عشر كممثلين لنا ليحلوا محل "نور ميسواري" الذي يختبئ الآن، لكن القوات المسلحة الفلبينية تُهاجمه الآن في مخبئه الساحلي في جزيرة سولو. وقد طالبت وزارة خارجية بلادنا ماليزيا أن تتعاون معنا في القبض على "نور ميسواري" بمجرد لجوءه إلى "صباح" وتسليمه لمانيلا لمحاكمته مستقبلا. وبمجرد أن نضع قدمنا في الهيئات المختلفة للإقليم الذي يتمتع بحكم فردي سنشل حركة "المجلس التنفيذي للجبهة الوطنية لتحرير مورو" المكون من خمسة عشر مسئولا حتى يصبح بلا فعالية وبلا قائد وغير قادر على الحركة مثل الجبهة الأم.

مرة أخرى أعبر عن تقديري لإدراجكم "جيش الشعب الجديد" على القائمة المحدثة للمنظمات الإرهابية التي ستكون أهدافا مستقبلية لضربات في الحرب التي ليس لها حدود والتي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية.

يا سيدي الرئيس! إن نجاح وكالة الاستخبارات الأمريكية ووكالة التنسيق المخابراتي الوطنية التابعة لحكومتنا في خلق جماعة "أبو سياف" وجماعة "البنتاجون" التي تقوم بعمليات الخطف مقابل الفدية كجزء من برنامج مكافحة التمرد لتبرير عودة القواعد الأمريكية في جزر الفلبين، يمكن استخدامه الآن كسبب وجيه لمحو خطر التمزق وتحدي الانفصال الذي تفرضه علينا الجبهة الوطنية.

إن محاربي الجبهة الوطنية لديهم شجاعة أسلافهم الذين نجوا من الغزو الأسباني والذين تحدوا المؤسسات الديموقراطية الداعية إلى التحضر التي أقامها الأمريكيون. فقط عن طريق برميل البارود يمكن أن نخضع الجبهة الإسلامية لتحرير مورو.

وأود أن أخبر سيادتكم أنه أثناء اتباعنا سياسة سلام شامل مع الجبهة الإسلامية عقد مجلس الأمن القومي الفلبيني العزم على أن لا يلغي تدريبات " أولان ميناناو ٢/ بلاك ريين" لأننا نرى أن الجبهة الإسلامية لا تزال الخطر الأعظم الذي يهدد الأمن القومي، وأنه

إذا لم يقض عليها في غضون عام فستنمي نفسها لتشكل تهديدا على الأمـــن الإقليمـــي، آخذين في الاعتبار خبرتها العظيمة وحنكتها في حروب عالمية سابقة.

بمساعدتكم ستكون حكومتي حاسمة في سحق الجبهـــة الإســـلامية بعـــد تقـــويض الاتفاقات والالتزامات التي قطعناها على أنفسنا في الماضي، شاملة الاتفاقات التي اتفقنـــا عليها في طرابلس (ليبيا) وكوالالمبور (ماليزيا). لقد أصدرت أوامري للقـــوات المســـلحة الفلبينية لتعيد إعلان الحرب الشاملة ضد الجبهة الإسلامية في مارس الماضي بينما كانـــت تدريبات "كاليلانأجيلا ٢٠٠٢" أو "مينيداناو ـــ باليكتان ٢ـــ١" (كتـــف إلى كتـــف) مستمرة.

أما على المستوى الإقليمي فإن "باليكتان" سوف تدعم وبشـــكل كـــبير الخـــبرات والمعرفة والمهارات القتالية لرجال العصابات الأشداء البالغ عددهم ٧٥٠ وقد أدرجنـــاهم كجزء من العاملين بقوات الجيش الفلبيني المشاركين في منـــاورات "باليكتـــان" وقـــد تم اختيارهم من حركاتهم المذكورة التي كانت تقوم سرا بحرب عصابات وتدريبات فدائيـــة في معسكرات القوات الفلبينية على مدى العشرين سنة المنصرمة.

وإنني لأرجو أن يكون هذا التقديم المتواضع للشـــعب الفلبـــيني المســـيحي، مخـــبرا لسعادتكم أن حملة جمع التوقيعات التي ينتظر أن تصل إلى ما بين سبعة إلى عشرة مليـــون توقيع من كل جزر الفلبين، والولايات والأقاليم ذات الســـيطرة المســـيحية في ماليزيـــا وإندونيسيا والتي أطلقتها "حملة اكتشاف جزر الفلبين"، متوسلة حكـــومتكم أن تحيـــي "تشكيل كومنولث الفلبين"، حتى يتم في النهاية إعلان قيام "كومنولـــث لاس اســـلاس فلبيناس، سنغافورة، تايوان، هونج كونج، جزيرة ماكاو، صباح، ســـاراواك، بيرلـــيس، بيانج، سيلنجور، بيراك، جزر الملوك، تيمور الشرقية، سولويزي"، أو ما يعرف اختصـــارا بـــ"كومنولث المسيح في منطقة آسيا – الباسيفيكي".

لقد أصبحت في منتصف الطريق لتحقيق هذه المهمة المقدسة! فقريبا سوف تتسلم حكومة سيادتكم العشرة ملايين توقيع اللازمة لتحقيق هذا الهدف، ولتتخذ حيالها الإجراءات القانونية المناسبة، ومن هذه الإجراءات دعم هذه الخطوة لدى مجلس الأمن والجمعية العمومية للأمم المتحدة للاعتراف المباشر بها.

يا سيدي الرئيس! تقبل دعوات عائلتي من أجل رخاء شعب الولايات المتحدة الأمريكية وشعب الفلبين وتقديري العميق واحترامي لسيادتكم.

صديقتكَ المخلصة: جلوريا أورويو

20/11/2001 [1]

فيا عباد الله..

هذا غيض من فيض، ونقطة في بحر.. والحق يقال: إن أضغان الصليبية على الإسلام وأهله أعيت المداوين، وانتشر سوادها في الأولين والآخرين.

ورغم مكر الليل والنهار، ورغم المكائد التي لن تنتهي؛ فإن الله تعالى قد تكفل بنصر هذا الدين إلى يوم القيامة، وبظهوره على الدين كله، وشهد بذلك، وكفى باللَّه شهيدا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨-٩]

وصدق الله العظيم؛ ففي الوقت الذي سُلِّمت فيه الأندلس على صحفة من ذهب، كان محمد الفاتح قد افتتح القسطنطينية، وبزغ نور الإسلام في تركيا، وفي الوقت الذي تصورت أوروبا أنها محت الإسلام من الغرب، جاءها الإسلام من الشرق عن طريق تركيا..

(١) انفردت مجلة "المجتمع" الكويتية بنشر هذه الرسالة في العدد رقم: **١٥٢١** الصادر بتاريخ: **٢٨** رجب **١٤٢٣**هـ الموافق: **٥** أكتوبر **٢٠٠٢**م / نقلا عن موقع "التاريخ"

فـلا تحزَنَـنْ لـلـحقِّ، فـالحقُّ ظاهرٌ
ولـكن تُـرى هل كـنـتَ لـلـحقِّ تـنصرُ؟!

۞ ۞ ۞

ٱجاد ِشش˘ع لأجل دفع الصائ ً ٱؤر:

إن "ريتشارد" و"لويس" وغيرهما من قادة الصليبية القديمة قد عادوا للحياة مرة أخرة يحملون أسماء غير الأسماء.. فأحقادهم واضحة ونياهم لائحة، وخططهم لم يغيرها إلا فارق من الزمن فحسب!

فلا يزال الأوربيون الغزاة يطوون أفئدهم على جميع المشاعر التي حركت أسلافهم الأقدمين حين حاربونا باسم (الصليب) زهاء قرنين من الزمان.

إهم هم هم؛ بغضاؤهم للإسلام لم تنقص، بل ظلت في نماء، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالي إلا ضراما!

كل ما أفادوه من تقدم علمي في إبان غفوتنا؛ أهم غيروا الوسائل وأضافوا إليها مقدارا أكبر من الختْل[1] والخبث، وطوروا السلاح ليجعلوه أشد فتكا وأوسع هلكا.. ثم حشدوا كل ما لديهم ليجهزوا –في سكون أو ضجيج– على الكتاب والسنة، أي على رسالة محمد ﷺ عدوهم الألد!

ثم ليمزقوا أمته شر ممزق؛ فيسلطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثر في طلب النجاة دون جدوى! فقد فعل الاستعمار الثقافي بعد الاستعمار العسكري فعله في نفوس الكثيرين، وجعل أوربا تحسب أها قد بذرت في دار الإسلام فتنا لا تنتهي إلا بانتهاء هذا الإسلام المضطهد..

بيد أن الذخائر الروحية في أمتنا لا تنفد.. ولسوف تقوم من سقطتها، وتقاوم خصومها، وتتشبث بالحياة العزيزة، وتتهيأ لأداء رسالتها الكبرى مرة أخرى.. ولكن.. لن يتهيأ للأمة أن تؤدي رسالتها السامية إلا بإزاحة هذا الاستعمار

---

[1] الخَتْل: الخداع والمراوغة

البغيض من طريقها، وهذا الاستعمار البغيض لن يقمعه إلا السلاح

قال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج:٣٩-٤٠]

[هذه الآية تشير إلى العلة الحقيقية والسبب الأكيد الذي من أجله تُرفع راية الجهاد ويُعلى علَم القتال والجلاد، هذه العلة هي رفع الظلم.. (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**) و(أن) إذا جاءت مرتبطة بالحكم فإنها تشير إلى التعليل، ولذلك فعلة القتال الحقيقية وسببه الواضح الأصيل هو دفع الظلم، ورفع الظلم عن النفس ورفع الظلم عن الآخرين، وما تنزلت الشرائع ولا جاءت الرسل ولا نزل الوحي ولا وطئ جبريل الأرض إلا من أجل إقرار العدل في الأرض ورفع الظلم عن المظلومين..

قال تعالي: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد:٢٥]

فالشرائع والرسل والكتب المنزلة إنما جاءت جميعا لرفع الظلم عن الناس وإقرار العدل في واقعه.] [الجهاد فقه واجتهاد لعزام]

فقُوَى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان. والشر جامح والباطل مسلح. وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له.

فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة، وتحرسها من الأشواك والسموم.

و لم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عُزْلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل، اعتمادا على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب. فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر. وللصبر حد وللاحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه. والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم. ومِن ثَم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلا ريثما يستعدون للمقاومة، ويتهيأون للدفاع، ويتمكنون من وسائل الجهاد.. وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان.

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم؛ فهم في حمايته: (**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا**).. وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم؛ فهم مخذولون حتما: (**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**)..

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية؛ فهم مظلمون غير معتدين ولا متبطرين: (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**).. أي أخبرناهم بأنهم مظلومون. وهذا الإخبار كناية عن الإذن للدفاع؛ لأنك إذا قلت لأحد: إنك مظلوم، فكأنك استعديته على ظالمه، وذكرته بوجوب الدفاع، وقرينة ذلك تعقيبه بقوله: (**وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**).. فلهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم..

وإن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة، لا يعود خيرها عليهم وحدهم، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة. وذلك فوق أنهم مظلومون أُخرجوا من ديارهم بغير حق: (**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ**).. أي أُخرجوا متلبسين بعدم الحق عليهم الموجِب إخراجهم، فإن للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحق ثابت بالفطرة لأن من الفطرة أن الناشئ في أرض والمتولِّد بين قوم هو مساوٍ لجميع أهل ذلك الموطن في حق القرار في وطنهم وبين قومهم بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان من نشأة متقادمة أو قهر وغلبة لسكانه، ولا يزول ذلك الحق إلا بموجب قرره الشرع أو العوائد قبل الشرع. فمن ذلك في الشرائع

التغريب والنفي، ومن ذلك في قوانين أهـــل الجاهلية الجلاء والخَلع، وإنما يكـــون ذلك لاعتداء يعتديه المرء على قومه لا يجدون له مسلكا من الردع غير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.. ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم. فإن إيمانهم بالله لا ينجر منه اعتداء على غيرهم؛ إذ هو شيء قاصر على نفوسهم والإعلان به بالقول لا يضر بغيرهم. فالاعتداء عليهم بالإخراج من ديارهم لأجل ذلك ظلم بَواح واستخدام للقوة في تنفيذ الظلم..

فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين. وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدَى عليهم، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يُخرجون، لا الصراع على عَرَض من أعراض هذه الأرض التي تشتجر فيها الأطماع، وتتعارض فيها المصالح، وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع!

وهـــذا يـــدل على حكمة الجهـــاد، وأن المقصـــود منه إقـــامـــة ديـــن الله، وذب الكفار المؤذين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء؛ عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة.

ٌساء ٌزا وٌ ذِه ٱماعدة العامة.. داجة العقيدة إلىٌناف غ عنها: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾..

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهود. والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

وهي كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض. أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها. فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يُدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول.

فالجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره.. فلا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه.

وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان!

والله تعالى لا بد أن يُري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه. ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: (**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**) أي: يقوم بنصر دينه مخلصا له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا.

(**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**) أي: كامل القوة، عزيز لا يُرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم، فأبشروا يا معشر المسلمين، فإنكم وإنْ ضعف عَددكم وعُدَدكم، وقوي عدد عدوكم وعُددهم؛ فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على مَن خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.[(1)]

وقال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة:١٤-١٥]

قاتلوهم كما أمرتكم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديكم، ويمكنكم من رقابهم قتلا، ومن صدورهم ونحورهم طعنا، ويخزهم بذل الأسر والقهر والفقر لمن لم يُقتَل منهم، وينصركم عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد هذا، ويشفِ صدوركم مما نالوا منكم من الأذى و لم تكونوا تستطيعون دفعه؛ وقد كان في صدورهم من موجدة القهر والذل ما لا شفاء له إلا بهذا النصر عليهم..

ومَن طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه وأكملها؛ فإنه يعظم سروره، ويصير ذلك سببا لقوة النفس وصدق العزيمة.

---

(1) في ظلال القرآن – التحرير والتنوير – تيسير الكريم الرحمن

وفي قوله تعالى: ﴿**يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ**﴾ تشريف للمسلمين؛ إذ أُسند التعذيب إلى الله، وجُعلت أيدي المسلمين آلة له.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ**﴾ دليل على محبة الله لعباده المؤمنين واعتنائه بأحوالهم حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية؛ شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

وليس هذا وحده، ولكن خيرا آخر يُنتظر وثوابا آخر يُنال: ﴿**وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ**﴾.. فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين يُنصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم – وهذا ما كان فعلاً – وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم، وأجر هداية الضالين بأيديهم، وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين.. ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾.. يضع الأشياء مواضعها، ويعلم مَن يصلح للإيمان فيهديه، ومَن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.. فهو سبحانه عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات. حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات.

ومن سننه تعالى تفاوت البشر فى العقائد والأخلاق والأعمال، وقابلية التحول من حال إلى حال بما يطرأ عليهم من الأسباب والمؤثرات بحسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظم الاجتماع.(1)

فيا عباد الله..

كرامــةَ الأمـــةِ العصمـــاءِ قـــد ذُبـحَتْ ... وغُيِّبت تحتَ أطباقٍ من الطينِ
لـكنّها ســوف تحيــاَ مِن جَماجِمِنـــا ... وسوفَ نسقي ثَراها بالشرايينِ
أحيوا الجهادَ وشُدوا العزمَ وانتظروا ... إشراقَ خيبرٌ أو

(1) التحرير والتنوير – تفسير المراغي- تيسير الكريم الرحمن – في ظلال القرآن (2) من قصيدة "حي على الجهاد" للمبدع/ صالح بن علي العمري

أنسامَ حِطِّيــنِ [٢]

تشويق العباد إلى رفع علـ ُ أُجَبد

يــا أمتي يكفي الــرجوعُ إلى الـورا
قَــد
آنَ أن يـستيــقــظَ الـرُّقـــادُ
فَخُذِي بــأسبابِ الـعـُـلاَ وتــأكدي
أنَّ المسيــرَ إلى الجهادِ جِــهَادُ

ف

فضل لا يُضاهى وخير لا يتناهى:

إن الجهاد في هذه الأمة ماضٍ إلى يوم القيامة، ولا مكانة لهذه الأمة بدون الجهاد، فهو روحها، وفي وجوده حياتها، وتاريخ الأمة الإسلامية خير شاهد على ذلك، وإن الأهداف الكبرى التي تسعى لها الأمة لا يمكن تحقيقها إلا بجيل مجاهد يحب الموت كما يحب الأعداء الحياة، ولا يمكن رفع الذلة التي فرضت عليها إلا بالجهاد، ولا تستطيع أن تُبلِّغ دعـوة الله إلى الناس أجمعين بدون قيود أو حواجز إلا بالجهاد.

ولقد رتب الله سبحانه وتعالى بشائر النصر والفتح على الجهاد بالمال والنفس وعدَّ ذلك عاملاً أساسيا في تحقق النصر وحصول الفتح لأهل الإيمان.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الصف:١٠-١٣]

هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال: (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ).

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله؛ فلهذا قال: (وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم، لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو كان كريها للنفوس شاقا عليها، فإنه (خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فإن فيه الخير

الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه.

وفي الآخرة الفوز بثواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

(وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) أي: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب وبعضه من لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أنه الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وسرورها بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدا، ولا يبغون عنها حولا؛ ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا) أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي: (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ) لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح، (وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين..

وقد أنجز الله وعده، فرفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من العالم في زمن وجيز لم يعهد التاريخ نظيره، وامتلكوا بلاد القياصرة والأباطرة، وساسوا العالم سياسة شهد لهم بفضلها العدو قبل الصديق.

وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، إذا قام غيرهم بالجهاد فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: "**إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله**". [رواه الترمذي، وصححه الألباني]

فالإيمان بالله والجهاد بالمال والنفس في سبيله تجارة رابحة، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل، والثواب الآجل، فيظفر بالنصرة في الدنيا والغلبة على العدو وأخذ الغنائم وكرائم الأموال، ويحظى في الآخرة بغفران الذنب، ورضوان الرب، والكرامة في جنات الخلود والإقامة، ولا فوز أعظم من هذا.[1]

والجهاد في سبيل الله أفضل أعمال البر؛ فقد [روى مسلم عن النعمان بن بشير قال:

[1] تيسير الكريم الرحمن – تفسير المراغي

كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج.. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام.. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم.. فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُه فيما اختلفتم فيه.. فأنزل الله عز وجل: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [التوبة:١٩]

وأورد ابن عساكر عن المفضل بن فضالة، عن أبيه قال: استأذن قوم على عبد الملك ابن مروان أمير المؤمنين، وهو شديد المرض. ولما دخلوا عليه قال لهم: إنكم دخلتم عليّ حين إقبال آخرتي، وإدبار دنياي، وإني تذكرتُ أرجى عمل لي، فوجدته غزوة غزوتُها في سبيل الله، وأنا خلو من هذه الأشياء، فإياكم وأبوابنا الخبيثة هذه..!

أي أن عبد الملك بن مروان ينهاهم عن الاقتراب من أبواب السلاطين. وكان عبد الملك بن مروان من علماء التابعين قبل أن يكون أميرًا للمؤمنين، وركب البحر غازيا مجاهدًا للروم.

وخرج الخطيب في تاريخ بغداد عن محمد بن الفضيل بن عياض، قال: رأيتُ عبد الله ابن المبارك في النوم، فقلتُ له: أي العمل وجدتَ أفضل؟ قال: الأمر الذي كنتُ فيه. قلتُ له: الرباط والجهاد؟ قال: نعم. قلتُ: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرةً ما بعدها مغفرة.

وذُكر الغزو أمام أحمد بن حنبل، فبكى وقال: ما من أعمال البر شيءٌ أفضل منه، ولا يعدل لقاء العدو شيء، وأن يباشر القتال بنفسه هو أفضل الأعمال، والذين يقاتلون العدو هم الذين يدفعون عن الإسلام، وعن المسلمين وحريمهم، فأي عمل أفضل منه؟

الناس آمنون وهم خائفون؛ قد بذلوا مُهج أنفسهم في سبيل الله.

روى مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: "**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**". فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى! آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم.. قال: فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتل.

وروى عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد عن أبي عمران الجوني أنَّ الحادثة السابقة كانت أثناء فتح أصبهان في بلاد فارس، فلما كان المسلمون يجاهدون الفرس في أصبهان وقف أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يحمسهم على الجهاد، ويشجعهم على القتال.

ومعنى قوله ﷺ: "**إنَّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**" أن مَن رفع يده بالسيف ضاربا في سبيل الله، أو رفع عليه الكافر السيف لأنه يجاهد في سبيل الله، فإن السيف -في الحالتين- يظلِّلُ عليه، وبذلك صار كأنه وصل إلى أبواب الجنة، لأنه يوشك أن يُستشهد فيدخل الجنة في الحال، أو يؤخَّر فيموت على فراشه، فيدخلها في المآل.

ومعلوم أن مَن قاتل في سبيل الله فقد وجبت له الجنة، فكأنَّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف حقيقة.

روى أحمد وأبو عوانة والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: "**أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟" قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: "المهاجرون؛ يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نُحاسَب؟! وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك". قال: "فيُفتَح لهم فيقيلون فيه أربعين عاما قبل أن يدخلها**

الناس".] [مشارع الأشواق (بتصرف)]

فيا عباد الله..

لـبُّـوا لــ"حي علـى الجهـادِ" وبـادروا
فـالـقــدسُ تهتفُ رَبــوةً ووِهــاذَا

۞ ۞ ۞

احمل سلاحك واسدذق الإلحادا:

قال تعالى: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا . الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء:٧٤-٧٦].

(**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ**): فالإسلام لا يعرف قتالاً إلا في هذا السبيل. لا يعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة. ولا يعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي!

إنه لا يقاتل للاستيلاء على الأرض؛ ولا للاستيلاء على السكان.. لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات، والأسواق للمنتجات؛ أو لرءوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات!

إنه لا يقاتل لمجد شخص. ولا لمجد بيت. ولا لمجد طبقة. ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس. إنما يقاتل في سبيل الله. لإعلاء كلمة الله في الأرض. ولتمكين منهجه من تصريف الحياة. ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج، وعدله المطلق بين الناس مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يقتنع بها.. في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام..

وما شُرع القتال إلا لعدم حرية الدين، وظلم المشركين للمسلمين، فالقتال قبيح ولا

يجيزه العقل السليم إلا لإزالة قبيح أشد منه ضررا، والأمور بمقاصدها وغاياتها

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله، بقصد إعلاء كلمة الله، وتمكين منهجه في الحياة. ثم يُقتل.. يكون شهيدا. وينال مقام الشهداء عند الله.. وحين يخرج لأي هدف آخر -غير هذا الهدف- لا يسمى (شهيدا) ولا ينتظر أجره عند الله، بل عند صاحب الهدف الآخر الذي خرج له.. والذين يصفونه حينئذ بأنه (شهيد) يفترون على الله الكذب، ويزكون أنفسهم أو غيرهم بغير ما يزكي به الله الناس. افتراء على الله!

و لم يأمر الله بقتال قبل رسول الله ﷺ، فقد كان الرسول من السابقين على محمد ﷺ يبلغ قومه برسالته، فإن آمنوا فبها، وإن لم يؤمنوا يأتي العقاب من الله؛ بريح صرصر، رجفة، صيحة، خسف الأرض بهم، إغراق.. وما وُجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال، مثل بني إسرائيل، قال الحق: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** [البقرة: ٢٤٦].

هم الذين اقترحوا، لكن القتال الذي يُثَبِّت المبدأ وينشر المنهج لإعلاء كلمة الله، وسيطرة الخلافة الأمنية الإيمانية على الأرض، لم يشرع إلا على يد رسول الله ﷺ.

فكأن الله لم يأمن خلقا على خلق إلا أمة محمد ﷺ فقد جعلها أمينة.

فأنتم أمناء أن تتولوا تأديب المخالف، وبذلك أخذتم المستوى العالي في المنهج والمستوى العالي في الرسالة.

(**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ**): بهذا التحديد.. من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة. ولهم حينئذ فضل من الله عظيم؛ في كلتا الحالتين: سواء من يُقتل في سبيل الله، ومن يَغلب في سبيل الله أيضا:

(**وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**).. بهذه اللمسة يتجه المنهج القرآني إلى رفع هذه النفوس؛ وإلى تعليقها بالرجاء في فضل الله العظيم؛ في

كلتا الحالتين. وأن يهوِّن عليها ما تخشاه من القتل، وما ترجوه من الغنيمة كذلك! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله. كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هي اشترت الدنيا بالآخرة و لم تشتر الآخرة بالدنيا (ولفظ يشري من ألفاظ الضد فهي غالبا بمعنى يبيع) فهي خاسرة سواء غنموا أو لم يغنموا في معارك الأرض. وأين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهو يحتوي المال – فيما يحتويه – ويحتوي سواه؟!

ثم يلتفت السياق إلى خطاب الجماعة المسلمة كلها. يلتفت إليها لاستجاشة مروءة النفوس، وحساسية القلوب؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ الذين كانوا يقاسون في مكة ما يقاسون على أيدي المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجا من دار الظلم والعدوان.. يلتفت هذه الالتفاتة ليوحي إليهم بسمو المقصد، وشرف الغاية، ونبل الهدف في هذا القتال، الذي يدعوهم أن ينفروا إليه، غير متثاقلين ولا مبطئين.

وذلك في أسلوب تحضيضي؛ يستنكر البطء والقعود:

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾..

وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله؛ واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم في مشهد مثير لحمية المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟ هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأهم يعانون المحنة في عقيدتهم، والفتنة في دينهم. والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض، لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني، الذي تتبعه كرامة النفس والعرض، وحق المال والأرض!

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف، مشهد مؤثر مثير. لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا – وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة – وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد. وهو وحده يكفي. لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات.. وهو أسلوب عميق الوقع، بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس.

ولا بد من لفتة هنا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن: إن (هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا) التي يَعُدها الإسلام – في موضعها ذاك – دار حرب، يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها، هي "مكة" وطن المهاجرين، الذين يُدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها. ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحادة للخروج منه!

إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام؛ حين لم تَقم فيها شريعة الله ومنهجه؛ وحين فُتن فيها المؤمنون عن دينهم، وعُذبوا في عقيدتهم.. بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم (دار حرب).. دار حرب، هم لا يدافعون عنها، وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها لإنقاذ إخوانهم المسلمين منها..

إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته.. ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة الله فيه.. وأرضه التي يدفع عنها هي (دار الإسلام) التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجا للحياة.. وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي، تنضح به الجاهليات، ولا يعرفه الإسلام.

ثم لمسة نفسية أخرى، لاستنهاض الهمم، واستجاشة العزائم، وإنارة الطريق، وتحديد القيم والغايات والأهداف التي يعمل لها كل فريق:

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا).. وينقسم الناس إلى فريقين اثنين؛

تحت رايتين متميزتين: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.. ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ**﴾..

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله؛ لتحقيق منهجه، وإقرار شريعته، وإقامة العدل بين الناس باسم الله. لا تحت أي عنوان آخر. اعترافا بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم.. والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، لتحقيق مناهج شتى غير منهج الله، وإقرار شرائع شتى غير شريعة الله، وإقامة قيم شتى غير التي أذن بها الله، ونصب موازين شتى غير ميزان الله!

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته. ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم، وشتى مناهجهم، وشتى شرائعهم، وشتى طرائقهم، وشتى قيمهم، وشتى موازينهم.. فكلهم أولياء الشيطان.

ويأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان: ﴿**فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾..

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ. وليست لقومهم، ولا لجنسهم، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء.. إنما هي لله وحده، ولمنهجه وشريعته. وأنهم يواجهون قوما أهل باطل؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق. لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية على شريعة منهج الله؛ ولتغليب شرائع البشر الجاهلية على الله؛ ولتغليب ظلم البشر على عدل الله؛ الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس..

كذلك يخوضون المعركة، وهم يوقنون أن الله وليهم فيها. وأنهم يواجهون قوما، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف.. إن كيد الشيطان كان ضعيفا..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين، وتتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها.

وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة - فهو واثق من النتيجة - أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر؛ فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل الله في حياة الجماعة المسلمة الأولى؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة.. ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب، في أقصر فترة عرفت في التاريخ؛ فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة، على المعسكرات المعادية..

و قد جرت سنة الله أن الحق يعلو والباطل يسفل، وأن الذي يبقى هو الأصلح والأمثل فالذين يقاتلون في سبيل الله يطلبون ما تقتضيه سنة العمران، والذين يقاتلون في سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق، وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم، وسنن العمران تأبى ذلك فلا يكون لذلك قوة ولا بقاء، إلا لنومة أهل الحق عن حقهم، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم تغلب الحق على الباطل ورده خاسئا محسورا.

إلى أن الذين يقاتلون في تأييد الحق تتوجه هممهم إلى إتمام الاستعداد ويكونون أجدر بالثبات والصبر، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العدد والعُدد.

وهذا في الحروب الدينية التي قد تركها المسلمون منذ أزمان طويلة، ولو وجدت في الأرض حكومة إسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد العُدّة للحرب لاتخذها أهل المدنية قدوة لهم وإماما في أعمالهم.[1]

ما حرّرَ الأوطانَ — دينيةَ تروي
إلا نهضةٌ — القلوبَ رشادَا
أحيوا الجهادَ.. — هجَرَتْ شريعةَ ربِّها
فلا حياةَ لأمةٍ — آمادَا
وابنوا — بمُدَى الخيانةِ

(1) في ظلال القرآن – تفسير الشعراوي – تفسير المراغي

الصفوف.. فلا مُزِّقَتْ آحادا
بقاء لأمةٍ خُذِلَ فاحمِلْ سلاحَك واسحَقِ
اليَراعُ فلا كلامَ الإلحادا
ولا صدى

س ّجُ آلمعارك في اللقاء عبيرُ ا:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:٩٥-٩٦]

(**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**) أي: لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلا بها وحرصا عليها، وبأنفسهم إيثارا للراحة والنعيم على التعب وركوب الأخطار؛ مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم في الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيل والمئونة، ويبذلون أنفسهم بتعريضها للقتل في سبيل الحق ومنع تعدى حزب الطاغوت، لأن المجاهدين هم الذين يحمون الأمة والبلاد، والقاعدين لا يأخذون حذرهم ولا يعدُّون عُدَّتَهم للدفاع ويكونون عرضة لتعدى غيرهم عليهم، ولكن النكوص عن الجهاد لا يكون مذمة وبخلا إلا مع القدرة، أما مع العجز والضرر كالعمى والزمانة[٢] والمرض فلا تبعة فيه حينئذ.

وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمَن كان من أولي الضرر راضيًا بقعوده لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع، ولا يُحَدِّث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

---

[٢] الزمانة: مرض يدوم، والزمِن: المريض مرضًا طويلا، والجمع: زَمنى.

ومن كان عازمًا على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع؛ يتمنى ذلك ويُحَدِّث به نفسه، فإنه بمنزلة مَن خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم بين ما أجمله أولا من التفاضل الذي بين الفريقين وعدم تساويهما فقال:

(فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً) أي: إن الله تعالى رفع المجاهدين على القاعدين درجة لا يُقدَّر قدرها ولا يُدرك كنهها، وهى ما خوَّلهم الله عاجلا في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في الصحيحين: "**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**".

(وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى) أي: ووعد الله كلا ممن جاهد وقعد عن الجهاد عجزا منه مع تمنى القدرة عليه المثوبة الحسنى وهى الجنة، فكل منهما كامل الإيمان مخلص لله في العمل.

(وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) أي: وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولى الضرر أجرا عظيما.

ثم بين هذا الأجر العظيم فقال:

(دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً) هذه الدرجات هي ما ادخره الله لعباده من المنازل الرفيعة التي يقصر الحصر عن عدها، كما قال تعالى: **﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾** [الإسراء:٢١] ودرجات الآخرة مبنية على درجات الدنيا من قوة الإيمان بالله، وإيثار رضاه على الراحة والنعيم، وترجيح المصلحة العامة على الشهوات الخاصة.

والمغفرة المقرونة بهذه الدرجات هي المغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التي لا تكفِّرها سائر الحسنات التي يأتي بها القاعدون.

والرحمة هي ما يخصهم به الرحمن زيادة على ذلك من فضله وإحسانه، وقد صح من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال: **"إنَّ بالمدينةِ أقوامًا ما سِرتُم مَسيرًا ولا قطعتُم واديًا إلا كانوا معكم". قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: "وهُمْ بالمدينةِ حَبَسَهُمُ العُذرُ".**

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها؛ فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد وغيره، ثم صرَّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات..

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم؛ أحسن لفظا وأوقع في النفس. وكذلك إذا فضَّل تعالى شيئا على شيء، وكل منهما له فضل احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين؛ لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: (**وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**).

(**وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً**) أي: وكان شأن الله وصفته الغفران لمن يستحق المغفرة، والرحمة لمن يؤتيه ذلك تفضلا منه وإحسانا.

فيا عباد الله..

مَن أتى بالجهاد فقد فاز بدرجة عظيمة عند الله تعالى، فليحترز صاحبها من أي هفوة؛ لئلا يختل منصبه العظيم في الدين بسبب هذه الهفوة.

هذا التمجيد للمجاهدين.. والتفضيل على القاعدين.. والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم، ومن مغفرة الله ورحمته للذنوب والتقصير.. هذا كله يشي بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة وتعالجها. وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكا لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية؛ فهي دائما في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس، مع خلوص النفس لله، وفي سبيل الله.

وظهور هذه الخصائص البشرية؛ من الضعف والحرص والشح والتقصير؛ لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة، ولا إلى نفض اليد منها وازدرائها؛ طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها.. ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير؛ والهتاف لها بالانبطاح في السفح، باعتبار أن هذا كله جزء من (واقعها)! بل لا بد لها من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة؛ بكل ألوان الهتاف والحداء، كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم.

والحقيقة الثانية: هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام. لما يعلمه الله سبحانه من طبيعة الطريق، وطبيعة البشر، وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.

إن (الجهاد) ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة. إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة! وليست المسألة - كما توهم بعض المخلصين - أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات؛ فاندس في تصورات أهله - اقتباسا مما حولهم - أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن!

هذه المقررات تشهد –على الأقل– بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة؛ ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله؛ في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله ﷺ وفي مثل هذا الأسلوب.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله ﷺ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة: **"مَن مات ولم يغزُ ولم يُحدِّث به نفسَه مات على شُعبةٍ من نفاقٍ".**[مسلم]

وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به الرءوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين!

إن الله سبحانه يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه؛ لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم. ليس بالأمس فقط. ولكن اليوم وغدا. وفي كل أرض، وفي كل جيل!

وإن الله سبحانه يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفا. ولا يمكن أن يدع الخير ينمو – مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! – فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر. ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل. ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!

هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية.. هذه فطرة! وليست حالة طارئة.. ومن ثم لا بد من الجهاد.. لابد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير. ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح. ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعُدد بالحق المتوشح بالعُدة.. وإلا كان الأمر انتحارا. أو كان هزلاً لا يليق بالمؤمنين!

ولا بد من بذل الأموال والأنفس. كما طلب الله من المؤمنين. وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. فإما أن يُقدِّر لهم الغلب؛ أو يُقدِّر لهم الاستشهاد؛ فذلك شأنه سبحانه، وذلك قدره المصحوب بحكمته.. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم.. والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل.. والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون..

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة، وفي منهجها الواقعي، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية، التي لا علاقة لها بتغير الظروف.

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين تحت أي ظرف من الظروف. ومن هذه النقط: الجهاد.. الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث.. الجهاد في سبيل الله وحده. وتحت رايته وحدها.. وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يُقتَلون فيه "شهداء" ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم.. [تفسير المراغي – تيسير الكريم الرحمن – الظلال]

روى الترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فقال: "**.. ألا أخبرُك برأسِ الأمرِ وعمودِه وذروةِ سَنامِه؟**"، **قلت: بلى يا رسول الله! قال: "رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُه الصلاةُ، وذروةُ سَنامِه الجهادُ"**.

[وإنما كان الإسلام رأس الأمر، لأنه لا يصح شيء من عمل المسلم ولا يُقبل إلا مع وجوده، وإذا فُقِد الرأس كانت الأعمال كالجسد بلا رأس، فهي كالموات، ولهذا تجعل يوم القيامة هباءً منثورا.

وإنما كانت الصلاة عمود الدين، تشبيها لها بعمود الخيمة، لأن أول ما يُحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة، وكذلك أول ما يُقام من الخيمة عمودها. وإنما شبه الجهاد بذروة سنام البعير، لأن ذروة السنام – وهي أعلاه – لا يعادلها ولا يساويها شيء من أجزاء البعير، وكذلك الجهاد، لا يعادله ولا يساويه شيء من أعمال الإسلام. لقوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ما يعدل الجهاد في سبيل الله: "لا أجده".

ويحتمل أن الرسول ﷺ شبه الإسلام بالبعير، لأن البعير يحمل الإنسان ويوصله إلى المكان الذي يريده، وكذلك الإسلام يوصل المسلم في سفره الدنيوي إلى موطنه الأول وهو الجنة. شبه الرسول ﷺ النطق بالإسلام برأس البعير، لأن كلَّ أحدٍ يمكنه الوصول إلى هذا الإسلام، بأن ينطق بالشهادتين، كما يمكنه الوصول إلى رأس البعير باللمس أو الرؤية.

وشبه الجهاد بذورة سنام البعير، لأن ذروة سنام البعير لا ينالها إلا أطول الناس جسدا أو مالا، كذلك الجهاد لا يناله إلا أفضل المؤمنين سابقة ومالا.

ويحتمل أن النبي ﷺ شبه الجهاد بذروة السنام، لأن من وصل ذروة السنام فقد تمكن من جميع أجزاء البعير، وتحكم فيها. وكذلك مَن رزقه الله الجهاد، فقد أناله الله جميع ما في الإسلام من أجزاء الفضل.

إن للمجاهد أجرا في نومه، وأجرا في سفره، وأجرا في نفقته، وأجرا في نَصَبه، وأجرا في تعبه، وأجرا في عطشه وجوعه، وأجرا في كل حركاته.] [مشارع الأشواق]

رَهَجُ المعارِكِ في اللقاءِ عبيرُنا ... يا مَن لدنيا أخلدوا إخلادَا
قلبي تولَّع بالجِنانِ، وقد سَمت ... روحي فِداً للدينِ واستشهادَا
نادى الجهادُ، فلا السلاحُ يُخيفني ... وعقيدتي لا تقبلُ استعبادَا
نادى الجهادُ، فلا الحياةُ تشدُّني ... والحُورُ تملأُ خافقي إنشادَا
نادى الجهادُ، فيا لَثاراتِ الحِمَى ... والنصرُ في راياتِها يتهادَى(1)

۞ ۞ ۞

(1) من قصيدة "حي على الجهاد" للمبدع/ صالح بن علي العمري

تاب ِ أتآاب ٱجح:

عن عُبَادَة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"جاهدُوا في سبيلِ اللهِ فإنَّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ تبارك وتعالى بابٌ مِن أبوابِ الجنةِ يُنَجِّي اللهُ تبارك وتعالى بهِ مِنَ الهمِّ والغَمِّ"**. [رواه أحمد، والطبراني، والحاكم، وقال الألباني: صحيح لغيره]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **"أول ثلاثة يدخلون الجنة الفقراء المهاجرون الذين تُتَّقى بهم المكاره، إذا أُمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تُقضَ له حتى يموت وهي في صدره، وإن الله عز وجل ليدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقتلوا وأوذوا وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة؛ فيدخلونها بغير حساب. وتأتي الملائكة فيسجدون، فيقولون: ربنا! نحن نسبح بحمدك الليل والنهار، ونقدس لك، مَن هؤلاء الذين آثرتَهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي. فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار"**. [صححه الألباني في صحيح الترغيب]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: **ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: "لا تستطيعونه". قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: "لا تستطيعونه". وقال في الثالثة: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى"**. [رواه مسلم]

[هؤلاء الصحابة لا يستطيعون أن يعملوا عملاً يعدل الجهاد، مع أنهم أولو الهمم العلية، والنفوس الأبية، والشهامة الدينية، وأجورهم مضاعفة لصحبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم سباقون إلى كل كمال، وحائزون من رتب الجهاد كل مقامٍ عال.

فإذا كانوا كذلك ولا يجدون عملاً يعدل الجهاد، فكيف تقر أعين أمثالنا من غير اجتهاد؟ وكيف تسكن نفوسنا إلى الأعمال اليسيرة بالهمم الدنية الحقيرة؟ مع ما يشوبها من الرياء وعدم الإخلاص، ومن الدسائس التي لا يكاد يرجى معها خلاص؟

وخرج ابن عساكر عن أبي الغادية المزني قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يخطب على المنبر، ويقول: يا أهل المدينة! ألا تأخذون بحظكم ونصيبكم من الجهاد في سبيل الله؟ ألا ترون إلى إخوانكم من أهل الشام، وإخوانكم من أهل مصر، وإخوانكم من أهل العراق؟ ووالله لَيوم يعمله أحدكم وهو يجاهد فِي سبيل الله، خير من ألف يومٍ يعمله في بيته صائما لا يفطر، وقائما لا يفتر.] [مشارع الأشواق]

وقال تعالى: ﴿**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة:٤١]

(**انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا**): الخفاف واحدها خفيف، والثقال واحدها ثقيل، وهما يكونان في الأجسام وصفاتها من: صحة ومرض، ونحافة وسمن، ونشاط وكسل، وشباب وكبر، ويكونان في الأسباب والأحوال: كالقلة والكثرة في المال، ووجود الراحلة وعدم وجودها، ووجود الشواغل أو انتفائها.

أي: انفروا على كل حال من يسر أو عسر، وصحة أو مرض، وغنى أو فقر، وقلة العيال أو كثرتهم، أو غير ذلك مما ينتظم في مساعدة الأسباب أو عدم مساعدتها بعد الإمكان والقدرة في الجملة.

وقال بعضهم: الثقيل الذي له ضيعة وأرض يكره أنْ يدعها، والخفيف هو الذي لا ضيعة له. وقال آخرون: الخفيف: الشجاع، والثقيل: الجبان. وقال الإمام القرطبي في تفسيره: الصحيح في معنى الآية: أن الله أمر الناس جميعا أن ينفروا للجهاد، سواء خفت عليهم الحركة أو ثقلت.

فإذا أعلن النفير العام وجب الامتثال إلا حال العجز التام، وهو ما بينه الله تعالى في قوله: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** [التوبة:٩١]

ويؤيد هذا التعميم في عموم الأحوال قول أبى أيوب الأنصاري وقد شهد المشاهد كلها إلا غزاة واحدة: قال الله: (انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا) فلا أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا.. ورُوي عن أبى راشد الحرّانى قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحِمص – وقد فضل عنها من عظمه – يريد الغزو، فقلت: قد أعذر الله إليك! فقال: أبت علينا سورة البَعوث[1] (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

وقد فهم سلفنا الصالح القرآن على هدي النبي ﷺ وعمله ففتحوا البلاد وسادوا العباد، لكن بعد أن انحرفوا عن هديه وتدبر معانيه واكتفوا بتلاوته والتغني بألفاظه ذلوا وضعفوا واستكانوا، وسادهم الشعوب الأخرى، وتقوض ملكهم من أطرافه، وأصبحوا من المستضعفين، وصاروا عبيدا لأعدائهم..!

(**وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي: وجاهدوا أعداءكم الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت ويفسدون في الأرض، وابذلوا أموالكم وأنفسكم في إقامة ميزان العدل وإعلاء كلمة الحق.

فمن استطاع منكم الجهاد بماله ونفسه وجب عليه ذلك، ومن قدر على أحدهما وجب عليه ما كان في مقدرته.

---

(1) وسميت سورة التوبة سورة "البعوث"– بفتح الباء وكسرها– لأن موضوعها هو الجهاد وإرسال السرايا والبعوث. وفي روايات: "البحوث " بالحاء، أي أنها تبحث وتنقب عن المنافقين، وتفضحهم وتكشفهم.

وقد كان المسلمون في الصدر الأول ينفقون على أنفسهم من أموالهم ويبذلونها لغيرهم إن استطاعوا، كما فعل عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة في هذه الغزوة، وكما فعل غيره من ذوى اليسار من الصحابة رضي الله عنهم.

ولما أصبح في بيت المال فضلة من المال بكثرة الغنائم صار الملوك والسلاطين يجهزون الجيوش من بيت المال، وكذلك تفعل الآن الدول المتمدينة، فتخصص جزءا من المال كل عام للنفقات الحربية من برية وبحرية، ويزداد هذا المال إذا دعت الحاجة إلى زيادته، بل قد يجعلون أموال الدولة كلها ومرافقها وقفا على المصالح الحربية، وقد كان المسلمون أحق منهم بذلك وأجدر.

(**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ**) أي: ذلكم الذي أُمرتم به من النفر والجهاد الذي هو الوسيلة في حفظ كيان الأمم وعلو كلمتها؛ خير لكم في دينكم ودنياكم؛ أما في الدين فلا سعادة إلا لمن ينصر الحق ويقيم العدل باتباع هدي الدين والعمل بالشرع الحكيم. وأما في الدنيا فإنه لا عز للأمم ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية التي هي وسيلة لدفاع العدو وكبح جماحه.

(**إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) أي: إن كنتم تعلمون ذلك علما يبعث على العمل، فانفروا وجاهدوا، وقد علم فضل ذلك المؤمنون الصادقون فامتثلوا أمره واهتدوا بهديه. [تفسير المراغي – مشارع الأشواق]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أفضل الجهاد عند الله يوم القيامة الذين يلتقون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك يتلبطون(١) في الغُرف من الجنة، يضحك إليهم ربك، وإذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم**". [رواه الطبراني بإسناد حسن، وقال الألباني: حسن صحيح]

(١) يتقلبون ويضطجعون

وقد [أدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير. فنفروا والعوائق في طريقهم، والأعذار حاضرة؛ لو أرادوا التمسك بالأعذار. ففتح الله عليهم القلوب والأرضين، وأعز بهم كلمة الله، وأعزهم بكلمة الله، وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتوح.

قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة فأتى على هذه الآية: (**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا**)، فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا، جهزوني يا بَنِيَّ. فقال بنوه: يرحمك الله! قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها.

وروى ابن جرير بإسناده عن حيان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حِمص، فرأيتُ شيخا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلتُ إليه فقلت: يا عم! لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي! استنفرنا الله خفافا وثقالا، ألا إن مَن أحبه ابتلاه. ثم يعيده فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل.

وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن عجزت عن الجهاد كثَّرتُ السواد، وحفظت المتاع.

وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض، يُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة.][1]

۞ ۞ ۞

الاستعدا دٌذشب أفٌٍشب:

[1] في ظلال القرآن

قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]

(**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**): الشهر الحرام يُقابَل بذلك الشهر الحرام، وهتك حرمته بهتك حرمته، فلا تبالوا بالقتال فيه إذا اضطررتم للدفاع عن دينكم وإعلاء كلمته.

فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يُحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام. وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان؛ كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام في الزمان. تصان فيها الدماء والحرمات والأموال، ولا يُمَس فيها حي بسوء. فمَن أَبَى أن يستظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها؛ فجزاؤه أن يُحرم هو منها. والذي ينتهك الحرمات لا تُصان حرماته، فالحرمات قصاص.. ومع هذا فإن إباحة الرد والقصاص للمسلمين تُوضع في حدود لا يعتدونها. فما تُباح هذه المقدسات إلا للضرورة وبقدرها:

(**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**): بلا تجاوز ولا مغالاة؛ فإن الاعتداء المحظور ما كان ابتداء، أما ما كان على سبيل القصاص فهو اعتداء مأذون فيه.

وبهذه الآية استدل الشافعي على وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل به، فيُذبح إذا ذبح، ويُخنق إذا خنق، ويُغرَّق إذا أغرق.. وهكذا.

وفي الآية أيضا إيماء إلى أن قتال الأعداء كقتال المجرمين بلا هوادة ولا تقصير، فمن يُقاتِل بالقذائف النارية أو بالمدافع أو بالغازات السامة يُقاتَل بمثلها حتى يمتنع عن الظلم والعدوان، والفتنة والاضطهاد، ويوجد الأمان والاطمئنان بين الناس.

(وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) أي: واحذروا أن تعتدوا بما لم يرخص لكم فيه، فالمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم. واعلموا أن الله مع المتقين بالمعونة والتأييد، والنصر والتمكين، والغلبة لهم على أعدائهم تأييدا لدينه وإعلاء لكلمته. فيذكرهم بأن الله مع المتقين؛ بعد أمرهم بالتقوى؛ وفي هذا الضمان كل الضمان..

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال. ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعُدة القتال، ومركب القتال، وزاد القتال.. لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند.

إنما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال. يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها!

ولكن كثيرا من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد، والذود عن منهج الله وراية العقيدة، لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم، ولا ما يتجهزون به من عُدة الحرب ومركب الحرب. وكانوا يجيئون إلى النبي ﷺ يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد، الذي لا يُبلغ على الأقدام. فإذا لم يجد ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون، كما حكى عنهم القرآن الكريم.

من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الإنفاق في سبيل الله. الإنفاق لتجهيز الغزاة. وصاحبت الدعوة إلى الجهاد دعوة إلى الإنفاق في معظم المواضع..

وهنا يُعد عدم الإنفاق تهلكة ينهى عنها المسلمون:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) أي وابذلوا المال في وسائل الدفاع عن بيضة الدين، فاشتروا السلاح والكُراع[1] وعُدَد الحرب التي لعدوكم مثلها؛ إن لم تزيدوا عليه؛ حتى لا يكون له الغلب عليكم، وإلى هذا أشار بقوله:

[1] الكُراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي: إنكم إن لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال وإعداد للعدَّة فقد أهلكتم أنفسكم.

والخلاصة: إن المشركين كانوا بالمرصاد للمؤمنين، وهم من الكثرة بحيث يُخشى شرُّهم، فلو انصرف المؤمنون عن الاستعداد للجهاد إلى تثمير الأموال لأوقعوا بهم، فيكونون حينئذ قد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة.

وقوله الحق: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ يكشف لنا بعضا من روائع الأداء البياني في القرآن؛ ففي الجملة الواحدة تعطيك الشيء ومقابل الشيء، وهذا أمر لا نجده في أساليب البشر؛ فالحق في هذه الآية يقول لنا: ﴿وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أنفقوا في الجهاد، كما يقول بعدها: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ لماذا؟ لأن الإنفاق هو إخراج المال إلى الغير الذي يؤدي لك مهمة تفيد في الإعداد لسبيل الله، كصناعة الأسلحة أو الإمدادات التموينية، أو تجهيز مبانٍ وحصون، هذه أوجه إنفاق المال.

والحق يقول: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. وكلمة (ألقى) تفيد أن هناك شيئا عاليا وشيئا أسفل منه، فكأن الله يقول: لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، وهل سيلقي الواحد منا نفسه إلى التهلكة، أو يلقي نفسه في التهلكة بين عدوه؟!

إن اليد المغلولة عن الإنفاق في سبيل الله هي التي تُلقي بصاحبها إلى التهلكة؛ لأنه إن امتنع عن ذلك اجترأ العدو عليه، وما دام العدو قد اجترأ على المؤمنين فسوف يفتنهم في دينهم، وإذا فتنهم في دينهم فقد هلكوا.

إذن فالاستعداد للحرب أنفى للحرب، وعندما يراك العدو قويا يهابك ويتراجع عن قتالك.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وأحسنوا كل أعمالكم وجوِّدوها ولا تهملوا إتقان شيء منها، ويدخل ذلك التطوع بالإنفاق في سبيل الله لنشر دعوة الدين.

ومرتبة الإحسان هي عليا المراتب في الإسلام. وهي كما قال رسول الله ﷺ: **"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"**.. وهذا هو التعقيب الذي ينهي آيات القتال والإنفاق، فيكل النفس في أمر الجهاد إلى الإحسان؛ أعلى مراتب الإيمان..

وقتال النبي ﷺ وأصحابه في الصدر الأول كان دفاعًا عن الحق وأهله وحماية دعوة الدين، فكانوا يبدأون أولا بالدعوة بالحجة والبرهان، فإذا منعوا بالقوة وهُدد الداعي أو قُتل قاتلوا حماية للدعاة ونشرا للدعوة، لا للإكراه على الدخول في الدين، إذ ذاك منهي عنه بنحو قوله تعالى: **﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** [يونس:٩٩].

فإذا لم يوجد مَن يصد الدعوة أو يهدد الدعاة ويعتدي على المؤمنين، فلا يفرض علينا الجهاد لسفك الدماء وإزهاق الأرواح، ولا للطمع في الغنائم والأنفال.

وجملة القول: إن القتال شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها، فعلى من يدَّعى من الملوك والأمراء أنه يحارب للدين أن يحيي الدعوة الإسلامية ويعد لها عُدَّتَها من العلم والحجة بحسب حال العصر وعلومه، ويقرن ذلك بالاستعداد التام لحمايتها من العدوان.

ولم يشهد التاريخ أمة قوية رحيمة بالضعفاء في فتوحها كالأمة العربية، كما اعترف بذلك المنصفون من الإفرنج، فقد قال جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي: ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب!

وما يتجنَّى به أعداء الإسلام من دعواهم أن الإسلام قام بالسيف، فقول يكذبه التاريخ ولا يؤيده من ينظر إلى الأمور بعين الإنصاف ويدع الهوى وراءه ظهريا.(١)

عن أبي عمران رضي الله عنه قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر رضي الله عنه، وعلى

(١) تفسير المراغي – في ظلال القرآن – تفسير الشعراوي

الجماعة فضالة بن عبيد رضي الله عنه، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله! يُلقي بيده إلى التهلكة! فقام أبو أيوب فقال: أيها الناس! إنكم لتأولون هذا التأويل؟ وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار.. لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله تعالى قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها.. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ما يرد علينا ما قلناه: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾. **وكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو. فما زال أبو أيوب شاخصا في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم.**

لنا في ضواحي الصربِ حصنٌ ومسجدٌ ... وفي ساحةِ الأسبانِ غرسٌ ومِنبرُ
وفي الهندِ آثارٌ، وفي الروسِ إخوةٌ ... وتجري لنا في باحةِ الصينِ أنهُرُ
لنا ما زَوى الداجي لتحيا خلافةٌ ... تصومُ لربِّ العالمين وتُفطِرُ

أفـضً ٱصذلا خ َظفغطاط فـي سبيل الله:

قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٦١]

أي: مثل الذين ينفقون المال يبتغون به رضا الله وحسن مثوبته؛ كمن يزرع حبة في أرض مُغلة؛ فتنبت سبع سنابل؛ أي: تخرج ساقا تتشعب منه سبع شعب؛ في كل سنبلة منها مائة حبة، كما يُرى في كثير من الحَب كالذرة.(١)

(١) وقد عني بتطبيق هذا المثل عمليا بعض أعضاء الجمعية الزراعية بمصر في مزارع القمح التي لها في التفتيش النموذجي وفي غيره، فهدهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبلة واحدة بل أكثر، وقد وصلت أحيانا إلى أربعين، وأحيانا إلى ست وخمسين، وأحيانا إلى

قال الواحدي في أسباب النزول: إنّ هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنهما؛ ذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك حث الناس على الإنفاق في سبيل الله. وكان الجيش يومئذ بحاجة إلى الجهاز؛ وهو جيش العُسْرة. فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، وقال عثمان بن عفان: عليَّ جهاز من لا جهاز له. فجَهز الجيش بألف بعير بأقْتَابِها وأحْلاسِها.[1] وقيل: جاء بألف دينار ذهبا فصبها في حِجر رسول الله ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ أن المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى؛ لأنها تترتب على أحوال المتصدِّق وأحوال المتصدَّق عليه وأوقات ذلك وأماكنه. وللإخلاص وقصد الامتثال، ومحبة الخير للناس، والإيثار على النفس، وغير ذلك مما يَحفُّ بالصدقة والإنفاق، تأثير في تضعيف الأجر، والله واسع عليم.

والإنفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة المسلمة، وهو يكلفها النهوض بأمانة الدعوة إليه، وحماية المؤمنين به، ودفع الشر والفساد والطغيان، وتجريده من القوة التي يسطو بها على المؤمنين، ويفسد بها في الأرض، ويصد بها عن سبيل الله، ويحرم البشرية ذلك الخير العظيم الذي يحمله إليها نظام الإسلام، والذي يعد حرمانها منه جريمة فوق كل جريمة، واعتداء أشد من الاعتداء على الأرواح والأموال.

وخلاصة ذلك: إن المنفق في إرضاء ربه وإعلاء دينه كمثل أبرك بذر زُرِع في أخصب أرض، فنما نموًّا حسنا فجاءت غلته سبعمائة ضعف. [التحرير والتنوير – تفسير المراغي]

سبعين، كما دلتهم أيضا على أن السنبلة الواحدة تغل أحيانا ستين حبة أو أكثر، وقد عثر في عام (١٩٤٢ م) أحد مفتشي الجمعية على سنبلة أنبتت سبعا ومائة حبة، وعرض نتيجة بحثه على الإخصائيين من رجال الجمعية وغيرهم في حفل جامع، ورأوا تلك السنبلة وعدوها عدًّا، فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدَّ ورأى، وشكروه على جهوده الموفقة. والزمان كفيل بتأييد قضايا الكتاب الكريم مهما طال عليها الأمد، وكلما تقدم العلم ظهر صدق ما أخبر به.

[1] أقتابها: جمع (قَتَب)، وهو رَحْل صغير على قدر سَنام البعير / أحلاسها: جمع (حِلْس)، وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة.

و[الإنفاق في سبيل الله من أعلى الطاعات، وأعظم القربات، وأجل الصدقات، ينفق المجاهد على نفسه وعلى دابته، وعلى غيره من المجاهدين، ويجعل نفقته ثمنا لسلاح أو مركوب، أو يجعلها مصروفا لعيال المجاهدين مدة غيبتهم في الغزو.

ولا يجتهد الشيطان في منع شيء من الإنفاق كاجتهاده في منع النفقة في سبيل الله، وذلك لما يعلم ما فيها من عظيم الأجر، وجزيل الثواب، ونيل الدرجات العلا في إخراجها، والوزر العظيم في البخل بها.

ويساعد الشيطان على ذلك شح النفس، وعدم الاعتياد، وجهل ما في الإنفاق من الفضل الذي لا يُحصى. ولا سيما في زماننا هذا، الذي اندرست فيه معالم الجهـــاد، وعفت رسومه، وعدم وجوده في بلادنا، وندر الجهاد على الوجه المَرْضي في غير بلادنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فلا سبيل إلى إخراج شيء من النفقة في سبيل الله، إلا بتأييد من الله القوي العزيز، على الشيطان اللعين، الذي يعد الفقر، ويأمر بالفحشاء. والله يقول: **﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾** [سبأ:٣٩]

وقد يقوى المجاهد على الشيطان في خروجه إلى الجهاد في سبيل الله، ولكنه لا يقوى عليه في الإنفاق في سبيل الله! إن الشيطان يوسوس للمجاهد الخارج للجهاد، كي لا ينفق في سبيل الله، يقول له: إنك إذا رجعت من جهادك لا تجد مالاً، وقد تصاب بجراحٍ أو أمراض؛ فترجع فقيرا ليس معك شيء، ولا مال معك فاترك مالك إلى أن ترجع، واجتهد على توفير النفقة..! وإنما يستجيب لهذه الوسوسة المجاهد الذي في نفسه حب الرجوع إلى الدنيا، وكراهة القتل في سبيل الله..! ولو كان يصمم العزم على طلب الشهادة بصدق، لما فكر في رجوعه، ولا في أحواله بعد رجوعه!

ولهذا كان السلف يكسرون جفون سيوفهم ويلقونها عند لقاء العدو، لغلبة ظنهم

أنهم لا يرجعون، ولما استولى على قلوبهم من حب الشهادة، والشوق إلى لقاء الله، ورجاء الفوز العظيم بالقتل في سبيل الله!

وقد حُكي عن بعض السلف أنه خرج للجهاد، حتى إذا تراءى الجمعان، وصف الفريقان، جاء إليه الشيطان، فذكره زوجته وحسنها وجمالها، وحببها إلى قلبه، وكره إليه فراقها، وذكَّره سعة عيشه، وكثرة ماله.. فكاد يجبن عن اللقاء ويهم بالفرار من الميدان.. فأتاه التأييد من الله القوي المتين.. فقال لنفسه: يا نفس! إن فررتُ من الميدان فزوجتي طالق، وعبيدي وإمائي أحرار، وجميع ما أملكه صدقة للفقراء والمساكين.. أيطيب لك يا نفس عيش بعد الفقر وفراق الزوجة؟ قالت نفسه: لا أحب الرجوع! قال لها: إذن تقدمي للجهاد!!

وقد يوسوس الشيطان للمجاهد، فيقول له: إنك ستقتل، وسيكون ولدك فقيرا من بعدك، وسيكون عيالك محتاجين، فاترك لهم مالك، ولا تنفقه، ويكفي بفقدهم لك مصيبة..! وإنما يقبل هذه الوسوسة مَن لم يكن عنده ثقة بالله، وعنده شك في الإيمان بكفالة الله رزق العباد وتدبير مصالحهم.

ويجب أن يعتقد المؤمن المجاهد أنه واسطة بين الله وبين أهله وعياله في وصول الرزق إليهم على يده، فهو لا يملك لهم ولا لنفسه مثقال ذرة، فلماذا يهتم بأرزاقهم في حياته وبعد مماته؟

من وثق بوعد الله، وتحقق بالتوكل عليه، وأيقن أن الله سيخلف له فيما ينفقه لله، فلا يضره إنفاق جميع ماله في سبيل الله. كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حيث أنفق كل ماله لله. وما أعظمها فعلة عند الله! وما أجزل أجرها وثوابها! ولكنه لا يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم.

أما مَن كان ضعيف التوكل، واهي اليقين، فلا ينفق كل ماله في سبيل الله وليترك بعض ماله لعياله. وهذا ما دلَّ عليه رسول الله ﷺ بعض أصحابه: روى البخاري ومسلم في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه أنه لما تاب الله عليه قال: يا رسول الله! إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله.. فقال رسول الله ﷺ: **"أمسِك عليك بعض مالك، فهو خير لك"**. وروى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: **"إنك إن تذَر ورثَتك أغنياء، خير مِن أن تذرهم عالة يتكففون الناس"**.

وليس معنى هذا أنَّ النبي ﷺ استشعر من كعب بن مالك أو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ضعف التوكل واليقين، فنهاهما عن التصدق بكلِّ المال؛ لأنه لا يجوز أن نتوهم في الصحابة مثل هذا!!

وإنما أمرهما الرسول ﷺ بذلك ليتأسى ويقتدي بهما ضعفاء التوكُّل مِن بعدهم، خشية أن يقتدوا بالأقوياء من الصحابة، فيقعوا في الندم بعد الإنفاق فتنقص أجورهم.. إن أصحاب رسول الله ﷺ كالنجوم، بأيهم اقتدى المسلمون اهتدوا.. فمَن كان عنده ضعف في اليقين والتوكل؛ فلينفق بعض ماله، وليترك البعض اقتداءً بكعب بن مالك وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.. ومَن كان عنده قوة في اليقين والتوكل فلينفق كيف يشاء، ولو أنفق كلَّ ماله فهو مأجور، اقتداءً بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أما ترك الإنفاق في سبيل الله مع القدرة عليه، فهذا إلقاءٌ باليد إلى التهلكة، ولا يجوز أن يفعله المسلم، ولا رخصة فيه.

وفي صحيح البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهني عن رسول الله ﷺ أنه قال: **"من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا"**.

وينبغي لمن تجهز للغزو، فعاقه عنه مرض أو غيره، أن يدفع ما تجهز به إلى غيره مِن الخارجين ليغزو به، لقوله ﷺ: **"من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا"**.

وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن فتى من "أسلم" قال: يا رسول الله! إني أريد الغزو، وليس معي ما أتجهز. قال ﷺ: **"ائت فلانا؛ فإنه قد كان تجهز فمرض". فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول: أعطني الذي تجهزتَ به. قال: يا فلانة! أعطيه الذي تجهزتُ به، ولا تحبسي عنه شيئا، فوالله لا تحبسي منه شيئا فيُبارَك لك فيه"**.

وروى أحمد وابن أبي شيبة والحاكم، عن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **"من أعان مجاهدا في سبيل الله أو غازيا في عسرته أو مكاتبا في رقبته أظله الله يوم لا ظل إلا ظله"**. [ضعفه الألباني]

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لأن أُجهز سوطا في سبيل الله أحب إليَّ من حجة بعد حجة الإسلام.

وروى الترمذي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"أفضلُ الصدقات ظلُّ فسطاطٍ في سبيل الله، ومنحةُ خادمٍ في سبيل الله، أو طَروقُة فحلٍ في سبيل الله"**. [حسنه الألباني]

ومعنى الحديث: الترغيب في إعانة المجاهد؛ إما بخيمة يستظل بها، أو بخادم يساعده، أو بناقة صالحة للركوب يزيد عمرها عن ثلاث سنوات. فإن هذا هو أفضل الصدقات عند الله.] [مشارع الأشواق (بتصرف)]

ويقابل هذا الترغيب تحذير شديد في قول رسول الله ﷺ: **"من لم يغزُ أو يجهزْ غازيًا أو يَخلُفْ غازيًا في أهلِه بخيرٍ؛ أصابه الله تعالى بقارعةٍ قبل يومِ القيامةِ"**. [رواه أبو داود وابن ماجه عن القاسم عن أبي أمامة، وحسنه الألباني]

۞ ۞ ۞

ذ شن ٱجاد غة غثح رٌي:

قال تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** [التوبة:٢٤]

أي: قل لهم وإن كنتم تفضّلون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله الذي وُعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي أمر الله: أي عقوبته التي تحل بكم عاجلا أو آجلا.

وخص الجهاد بالذكر من عموم ما يحبه الله منهم؛ تنويها بشأنه، ولأن ما فيه من الخطر على النفوس ومن إنفاق الأموال ومفارقة الإلف، جَعله أقوى مظنة للتقاعس عنه، لا سيما والسورة نزلت عقب غزوة تبوك التي تخلف عنها كثير من المنافقين وبعضُ المسلمين.

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها في أربعة:

(١) مخالطة الأقارب وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم ذكر الباقي بلفظ العشيرة. (٢) الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة. (٣) الرغبة في تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة. (٤) الرغبة في الأوطان والدور التي بنيت للسكنى.

وخلاصة ذلك: إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيله، فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة.

والتربص: الانتظار، وهذا أمر تهديد لأن المراد انتظار الشر. وهو المراد بقوله: (حتى يأتي الله بأمره) أي: الأمر الذي يظهر به سوء عاقبة إيثاركم محبة الأقارب والأموال والمساكن على محبة الله ورسوله والجهاد. والأمر: اسم مبهم بمعنى الشيء والشأن، والمقصود من هذا الإبهام التهويل لتذهب نفوس المهدَّدين كل مذهب محتمل، فأمر الله: يحتمل أن يكون العذاب أو القتل أو نحوهما.

ولا يخفى ما في ذلك من الوعيد والتهديد، ومن الإيماء إلى أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم نبذ الثانية وإلقاؤها وراءه ظهريا.

(**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**) أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئا من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك، أنه إذا عُرِض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.[1]

ومن آثر حب الدنيا ومتاعها الزائل وأهمل محاب الله ومراضيه؛ فقد أذل نفسه وأهانها من حيث أراد أن يعزها ويكرمها!

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**". [رواه أبو داود، وقال الألباني في صحيح الترغيب: صحيح لغيره]

[1] تفسير المراغي – التحرير والتنوير – تيسير الكريم الرحمن

قال الشوكاني: وسبب هذا الذل والله أعلم أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين؛ عاملهم الله بنقيضه وهو إنزال الذلة بهم؛ فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان.

[قال أبو عبيد الهروي: التبايع بالعينة: أن يبيع رجل لآخر سلعةً بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها منه بثمن أقل، فهذا منهي عنه. [٢]

وسميت "عينة" بسبب حصول النقد لصاحب العينة، وهو الفرق بين السعرين، وذلك أن العين هي المال الحاضر، فالمشتري إنما يشتريها ليبيعها بمال حاضرٍ يحصل عليه.

ومعنى الحديث: إذا ترك الناس الجهاد، وأقبلوا على الزرع ونحوه، تسلَّطَ عليهم العدو، لعدم تأهبهم له، وعدم استعدادِهم لمواجهته، ولرضاهم بما هم فيه من الأسباب الدنيوية، ولذلك يوقع اللهُ بهم الذِلَ والهوانَ عقوبةَ لهم، ولا يتخلَصون منه حتى يرجعوا إلى أداء ما أوجبه اللهُ عليهم، من جهاد الكفار، وإقامة الدين، ونصرة الإسلام وأهله.

ودلَّ قوله ﷺ: "حتى ترجعوا إلى دينكم" على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا، خروج عن الدين ومفارقة له، وكفى به ذنبا وإثمَاَ مبيناً!

وإذا ترك الناس الجهاد فإن الله يضربهم بالفقر أيضا، عقاباً لهم. وقد لا يكون الفقر فقرا في المال، ولكنه فقر في النفس، يتمثل في الحرص والشح، فمن كان هكذا فهو فقير، وإن كان كثير المال.

---

(٢) العينة بالكسر السلف، وفسرها الفقهاء بأن يبيع الرجل متاعه إلى أجل، ثم يشتريه في المجلس بثمن حالٍّ ليسلم به من الربا. وذلك حرام إذا اشترط المشتري على البائع أن يشتريها منه بثمن معلوم، فإن لم يكن بينهما شرط فأجازها الشافعي لوقوع العقد سالما من المفسدات، ومنعها بعض المتقدمين، وكان يقول: هي أخت للربا. [المصباح المنير في غريب الشرح الكبير] وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة، لأن العين هو المال الحاضر من النقد، والمشتري إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة تصل إليه معجلة [النهاية في غريب الأثر] كأن يشتري سيارة بالتقسيط، ثم يبيعها لنفس البائع بثمن نقدى، مثلا يشترى السيارة بمائة ألف جنيه بالتقسيط، ثم يبيعها لنفس البائع بثمانين ألف جنيه نقدا؛ فيكون قد اشترى النقود بمائة ألف جنيه، وأخذ ثمانين ألف جنيه، وهذا هو الربا لأنه لم يشتر سلعة. [فتاوى أون لاين: أ/ محمد حسين عيسى]

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"ليس الغنى عن كثرة العرَض، ولكن الغِنى غِنى النفس.."**

إن الغنى هو غنى القلب، والفقر هو فقر القلب. والذي نشاهده من الناس: أنهم لما أعرضوا عن الجهاد، وأقبلوا على الاكتساب من مختلف الجهات، المباحة والمحرمة، سلط الله عليهم فقر قلب، وشدة حرص، وغلبة شح، فمنعوا كثيرًا من الحقوق الواجبة، وتناولوا كثيرًا من الأمور المحرمة، كالمكوس والضرائب وغيرها. وصار متاع الدنيا القليل عندهم كثيرا جليلاً.

لقد أذلَهم الحرص والطمع، وقل أن تجد منهم أحدا إلا وقد استولت عليه الذلة، فهو ذليلٌ للشخص الذي يرى أن رزقه يأتيه من جهته، استعبده الطمع للمال، والخوف من فواته.

إن المجاهد الذي يرتزق بسيفه عن طريق الغنائم لا يشعر بالفقر ولا بالذل، لأن رزقه مأخوذ بالسيف، ليس لأحد غير الله له فيه منة. والغنيمة حلال محض صاف لا شبهة فيه، فهي سبب في تنوير القلب، وطرد ظلمات الشح والبخل والحرص عنه.

وإن المجاهد الذي يأتيه رزقه من الغنيمة غني النفس وإن كان فقير اليد، وشعاره العزة والعظمة، وإن كان دثاره الظاهر الذل والمسكنة، فهو ينطبق عليه كلام الله عن المؤمنين:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة:٥٤]

أما من اكتسب رزقه من الشُّبَه، وأذلَّه الطمع للناس، فهو وإن كان عزيزا في الظاهر، فإن قلبه بأنواع الذل عامر، وهو وإن كان في الظاهر غنياً بما جمع، فهو في الباطن فقير بالحرص والطمع. وتأبى المكاسب الدنية إلا أن تورث أصحابها هذه الأخلاق الردية. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهذا المعنى أكَده علي بن أبي طالب حيث قال: الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، ومن ترك الجهاد في سبيل الله ألبسه الله الذلة، وشمله البلاء، ودُيِّث بالصَّغار[1]، وسيم الخسف، ومنع النصف!] [مشارع الأشواق]

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"غَزَا نبيٌّ من الأنبياءِ فقالَ لقومِهِ: لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امرأةٍ وهو يريدُ أنْ يَبنِيَ بها ولَمَّا يَبْنِ بها، ولا أحَدٌ بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفَها، ولا أحَدٌ اشترى غنمًا أو خَلِفَاتٍ وهو ينتظرُ ولادَها.. فغزا فدنا مِن القريةِ صلاةَ العصرِ أو قريبًا مِن ذلك فقالَ للشمسِ: إنكِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ.. اللهمَّ احبسْها علينا، فحُبِسَتْ حتى فتحَ اللهُ عليهِ.."**

[قوله: (غزا نبي من الأنبياء) أي أراد أن يغزو، وهذا النبي هو يوشع بن نون.

وقوله: (بُضع امرأة): البُضع يُطلق على الفرج والتزويج والجماع، والمعاني الثلاثة لائقة هنا، ويُطلق أيضا على المهر وعلى الطلاق، وقال الجوهري: قال ابن السكيت: البُضع النكاح، يقال: ملك فلان بضع فلانة.

وقوله: (ولما يَبنِ بها) أي: و لم يدخل عليها. وفي التقييد بعدم الدخول ما يُفهم أن الأمر بعد الدخول بخلاف ذلك؛ فلا يخفى فرق بين الأمرين، وإن كان بعد الدخول ربما استمر تعلق القلب، لكن ليس هو كما قبل الدخول غالبا.

قوله: (أو خَلِفات) جمع (خَلِفة) وهي الحامل من النوق، وقد يُطلق على غير النوق.

قوله: (وهو ينتظر وِلادها) بكسر الواو، وهو مصدر (ولد ولادا وولادة).

قوله: (فغزا) أي: بمن تبعه ممن لم يتصف بتلك الصفة.

قوله: (فدنا من القرية) هي "أريحا".

قوله: (فقال للشمس إنك مأمورة) بيَّن الحاكم في روايته عن كعب سبب ذلك؛ فإنه قال: "إنه وصل إلى القرية وقت عصر يوم الجمعة، فكادت الشمس أن تغرب ويدخل

[1] دُيِّث بالصَّغار: ذُلِّل بالذل والهوان.

الليل"؛ وبهذا يتبين معنى قوله: (وأنا مأمور). والفرق بين المأمورين أن أمر الجمادات أمر تسخير وأمر العقلاء أمر تكليف، وخطابه للشمس يحتمل أن يكون على حقيقته وأن الله تعالى خلق فيها تمييزا وإدراكا، ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل استحضاره في النفس لما تقرر أنه لا يمكن تحولها عن عادتها إلا بخرق العادة، ومِن ثَم قال: (اللهم احبسها). ويؤيد الاحتمال الثاني أن في رواية سعيد بن المسيب: "فقال: اللهم إنها مأمورة وإني مأمور فاحبسها عليّ حتى تقضي بيني وبينهم، فحبسها الله عليه".

قوله: (اللهم احبسها علينا) قال عياض: اختُلف في حبس الشمس هنا، فقيل: رُدت على أدراجها، وقيل: وقفت، وقيل: بُطئت حركتها، وكل ذلك محتمل، والثالث أرجح عند ابن بطال وغيره.] [فتح الباري (باختصار)]

يقول د. عبد الله عزام: وهذا دليل على أنه يجب التفرغ للجهاد، لأن النفس المرتبطة بالدنيا لا تبذل كل طاقتها، ولا تعطي كل إنتاجها.

۞ ۞ ۞

آية صدق الإيمانتزي إفظ والمال في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ. إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٣٨-٤٠]

ومناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان في حكم القتال مع اليهود وبيان حقيقة أحوالهم من خروجهم من هداية الدين في العقائد والأعمال والفضائل التي تهذب

النفوس وتزكيها، والكلام هنا في غزوة تبوك، والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها.

وتبوك موضع في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، وكان السبب في هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة؛ من أن الروم جمعت جموعا معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب حتى وصلت طلائعهم إلى البلقاء بإمرة قائد عظيم منهم يدعى قباذ، وعدد جنده أربعون ألفا، فندب النبي ﷺ الناس للخروج لقتالهم وأعلمهم الجهة التي يغزونها.

وكان عثمان رضي الله عنه قد جهز عيرا إلى الشام للتجارة، فقال: يا رسول الله! هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية (من الفضة). فقال النبي ﷺ: **"لا يضر عثمان ما عمل بعدها"**. ثم خرج لمقابلتهم، ولما لم يجد من يقاتله عاد ولم يهاجم شيئا من بلاد الشام، وكان ذلك في رجب سنة تسع.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ): الخطاب للمؤمنين في جملتهم تربية لهم بما لعله وقع من منافقيهم وضعفائهم.. أي: يا أيها الذين آمنوا ما الذي عرض لكم مما يخل بالإيمان أو بكماله من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طُلب منكم، وإخلادكم إلى الراحة واللذة، حين قال لكم الرسول: انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق الذي هو سبيل سعادتكم؟

فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال في سبيل الله كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

وكان من أسباب تثاقلهم أمور: (ا) إن الزمن كان وقت حر شديد. (ب) إنهم كانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوتي الطائف وحنين. (ح) إنهم كانوا في عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة الطعام. (د) إن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه، وآن وقت تلطف الحر، لأن رجبا وافق أكتوبر في تلك السنة.

روى ابن جرير عن مجاهد قال: أُمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين وبعد الطائف، أُمروا بالنفير في الصيف حين اخترفت النخل (اجتنى ثمرها) وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج.. فقالوا: منا الثقيل، وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله.

وكان من دأب النبي ﷺ إذا خرج إلى غزوة أن يورِّي بغيرها لما تقتضيه المصلحة من الكتمان إلا في هذه الغزوة، فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبُعد الشقة وقلة الزاد والظهر.

وكانت حكمة الله في إخراجهم – وهو يعلم أنهم لا يلقون فيها قتالا – تمحيص المؤمنين وخزي المنافقين وفضيحتهم فيما كانوا يُسرُّون من الكفر وتربص الدوائر بالمؤمنين.

﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية؟ ومن يفعل ذلك فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: فما هذا الذي تتمتعون به في الدنيا مشوبا بالمنغصات والآلام إذا قيس بما في الآخرة من النعيم المقيم، والرضوان من المولى إلا شيء قليل لا يرضى عاقل أن يتقبله بدلا منه.

روى أحمد ومسلم والترمذي عن المسور أن النبي ﷺ قال: **"ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بماذا يرجع"**. أي إن نعيم الدنيا في قلته وقلة زمنه إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله.

(**إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ**) أي: إن لم تخرجوا إلى ما دعاكم الرسول ﷺ للخروج إليه؛ يعذبكم عذابا أليما في الدنيا يهلككم به كقحط وغلبة عدو، ويستبدل بكم قوما غيركم يطيعونه ويطيعون رسله، لأنه قد وعد بنصره، وإظهار دينه على الدين كله (وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ).

وقد جرت سنته بأن الأمم التي لا تدافع عن نفسها ولا تحمى ذمارها، لا بقاء لها، وتكون طعاما للآكلين، وغذاء شهيا للمستعمرين.

(**وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً**) أي: ولا تضروا الله شيئا من الضرر في تثاقلكم عن طاعته ونصرة دينه، فهو الغني عنكم في كل أمر، وهو القاهر فوق عباده، وكل من في السماوات والأرض مسخر بأمره، ولكن قد جعل للبشر شيئا من الاختيار ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم.

(**وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) أي: والله قادر على كل شيء، فهو يقدر على إهلاككم والإتيان بغيركم؛ إن أصررتم على عصيان رسوله وتثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه؛ ممن يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولا يخشون في الحق لومة اللائمين كما قال: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ**﴾ [محمد:٣٨].

ثم رغبهم ثانية في الجهاد فأبان لهم أنه تعالى المتوكل بنصره على أعداء دينه؛ أعانوه أو لم يعينوه، وهو قد فعل ذلك به وهو في قلة من العدد والعدو في كثرة، فكيف وهو من العدد في كثرة والعدو في قلة فقال:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا) أي: إن لم تنصروا الرسول الذي استنصركم في سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله وأعداء رسوله؛ فسينصره الله بقدرته وتأييده، كما نصره حين أجمع المشركون على الفتك به واضطروه إلى الخروج والهجرة حال كونه أحد اثنين وثانيهما أبو بكر في غار جبل ثور حين كان يقول لصاحبه إذ رأى منه أمارة الحزن: لا تخف ولا تحزن؛ إن الله معنا بنصره ومعونته وحفظه وتأييده، فلن يعلم بنا المشركون ولن يصلوا إلينا.

وخلاصة ذلك: إلا تنصروه بالنّفر لما استنفركم له، فإن الله قد ضمن له النصر؛ فهو ينصره كما نصره في الوقت الذي اضطره المشركون إلى الهجرة، حين كان ثاني اثنين في الغار وكان صاحبه قد ساوره الحزن فقال له: لا تحزن إن الله معنا، ونحن لا نكلَّف أكثر مما فعلنا من الاستخفاء.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها) أي: فأنزل الله طمأنينته التي يسكن عندها القلب على رسوله، وقوّاه بجنود من عنده؛ وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأُحد، وقيل: بل هم ملائكة أيده بهم في حال الهجرة يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار ويصرفونها عنهما، فقد خرج والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظروه.

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا) أي: وجعل كلمة الشرك والكفر هي السفلى، وكلمة الله وهي دينه المبني على أساس توحيده تعالى والمشتمل على الأحكام والآداب الفاضلة، والخالي من شوائب الشرك وخرافات الوثنية؛ هي العليا بظهور نور الإسلام وإزالة سيادة المشركين في تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

(**وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**) أي: والله غالب على أمره، حكيم إذ يضع الأشياء في مواضعها وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته، وأذل من ناوأه من المشركين. [تفسير المراغي]

ومن روائع الحكايات في هذا المقام حكاية المرأة التي قدمت زوجها وأبناءها شهداء في سبيل الله، وأنفقت مالها في سبيل الله، بل قصت شعرها وتصدقت به في سبيل الله..

وقد أورد قصتها مفصلة أحمد ابن الجوزي الدمشقي، في كتابه "سوق العروس وأنس النفوس" نقلاً عن الذي قصها، وهو أبو قدامة الشامي.

وخلاصة القصة أن أبا قدامة الشامي رجلٌ حبَّب الله له الجهاد في سبيل الله، وقد خاض معارك عديدة في غزو الروم. وجلس يوما في مسجد رسول الله ﷺ، يحدث عن بعض غزواته، فطلب منه الجالسون أن يحدثهم عن أعجب قصصه في الجهاد.

فأخبرهم أنه توجه يوما لحرب الروم، فمر بمدينة الرقة على نهر الفرات، ليشتري منها جملاً يجاهد عليه. وبينما كان في الرقّة أتته امرأة، وأخبرته أنها تريد أن تتصدق للجهاد بشعرها، وأنها قصت شعرها، وعفرته بالتراب، وطلبت منه أن يأخذ ذلك الشعر ليكون عِقالاً وخطاما لخيل المجاهدين. وأخبرته أنَّ زوجها خرج للجهاد يوما، فلقي الله شهيدا، وأن أولادها خرجوا للجهاد، فلقوا الله شهداء، ولم يبق من أولادها إلا فتى عمره خمسة عشر عاما، ورغم صغر سنه إلا أنه كان صواما قواما، حافظا للقرآن، فارسًا مجيدا للقتال، وكان من أجمل وأحسن الفتيان.. وأخبرته أنَّ هذا الفتى خارج بعيدا عن المدينة، وإن جاءها فسوف ترسلُه للجهاد معه، وتقدمه هدية لله، وترجو الله له الشهادة.

انتظر أبو قدامة مجيء الفتى فلم يأت، فسار بأصحابه المجاهدين من الرقة، متوجهين لقتال الروم، وساروا أياما.. وبينما كانوا سائرين لحقهم ذلك الفتى الفارس على فرسه، وكلَّم أبا قدامة، وعرفه على نفسه، أنه ابن تلك المرأة، وأن والده وإخوانه لقوا الله

شهداء، وهو يريد أنْ ينالَ الشهادة مثلهم. وحاول أبو قدامة أن يرده لصغر سنه، وخشي عليه، ولكن الفتى أصر على مصاحبتهم للجهاد، وأخبره أنه عارف بالفروسية والرمي، حافظ للقرآن، عالم بسنة رسول الله ﷺ، وأنه يريد أن يكونَ الشهيد ابن الشهيد!

وأخبر الفتى أبا قدامة أن أمه و دعته، وأنها طلبت منه أن يحرص على الشهادة، وأن لا يفر من الكفار ولا يوليهم الأدبار، وأن يهب نفسه لله، ويطلب مجاورة أبيه وإخوانه وأخواله الشهداء..

تأثر أبو قدامة بما سمع واصطحب معه الفتى الفارس. ولما اقتربوا من معسكر الروم حان وقت غروب الشمس، وكان المجاهدون صائمين، فتطوع الفتى الفارس بطبخ طعام إفطارهم. ونام الفتى نومة، ونظر إليه أبو قدامة، فإذا هو يضحك أثناء نومه، فدعا أصحابه إلى أن ينظروا له وهو يضحك، متعجبا من ذلك.

فلما استيقظ الفتى الفارس سأله أبو قدامة وأصحابه عن سبب ضحكه أثناء نومه، فأخبرهم أنه رأى نفسه في روضة خضراء، وفي وسطها قصر من ذهب وفضه، وعليه ستور مرخاة، وفي القصر جوارٍ وجوههن كالأقمار، ولما رأينه نزلن إليه ليرحبن به، فمدَّ يده لإحداهن، فقالت له: لا تتعجل.. أنت زوج المَرضِية، وهي في القصر!

فصعد إلى القصر فرأى جارية كأنها الشمس، وحسنها يبهر الأبصار، فرحبت به، وأخبرته أنه لها وأنها له، ولما مدَّ يده إليها قالت له: لا تتعجل، والميعاد بيني وبينك غدا عند صلاة الظهر، فأبشِر .. فاستبشر الفتى الفارس وضحك فرحا في نومه.

وفي الصباح وصلوا معسكر الروم، ونشبت المعركة عنيفة، وطالت المعركة وقتل أناس من الفريقين، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.. وراح أبو قدامة يبحث عن الفتى الفارس؛ فإذا به صريعا جريحا، والدماءُ تترف من جسمه، وقد علاه الغبار.

ولما أقبل عليه أخبره أن رؤياه قد صدقت، وأنَّ الحورية التي رآها في المنام واقفة على رأسه، تنتظر خروج روحه!

وطالب الفتى أبا قدامة أنْ يأخذ ملابسه المضمخة بدمائه لأمه، لتعلم أنه لم يضيع وصيتها.. ثم نطق بالشهادتين، وأسلم روحه، ولقي الله شهيدا.. فكفنوه في ثيابه، ودفنوه في مكانه.

وعاد أبو قدامة إلى الرقة، ومرَّ من أمام بيت المرأة، أم الشهيد، فشاهد أخته الفتاة الصغيرة تقف على باب البيت تسأل القادمين عن أخبارِ أخيها المجاهد.. فاستأذن أن يكلم أمها.

خرجت أمها، ولما رأته قالت: أجئتَ معزيا أم مبشرا يا أبا قدامة؟ قال لها: ما الفرق بين البشارة والتعزية؟ قالت: إنْ رجع ولدي سالما معكم فقد جئتَ معزيا، وإن قتل ولدي شهيدا في سبيل الله فقد جئتَ مبشرا..! قال لها: أبشري.. لقد قبل الله هديتك، ولقي ابنك الله شهيدا. ففرحت، وقالت: الحمد لله الذي جعله ذخيرة لي يوم القيامة.[1]

۞ ۞ ۞

وجاهدوا في الله حق جهاده:

قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]

والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك.

والجهاد كما قال الراغب: هو استفراغ الوسع في مجاهدة العدو، وهو ثلاثة أضرب:

---

(١) مشارع الأشواق (بتصرف)

(ا) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار. (ب) مجاهدة الشيطان. (ج) مجاهدة النفس والهوى. والمراد بالجهاد هنا ما يشمل الأنواع الثلاثة، كما يؤيده ما رُوي عن الحسن أنه قرأ الآية، وقال: إن الرجل ليجاهد في الله تعالى وما ضرب بسيف.

فاستفرغوا وسعكم في إحياء دين الله وإقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن، وردوا أنفسكم عن الميل والهوى.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته، فأي رتبة أعلى من هذا، وأي سعادة فوق هذا، ويحتمل في (اجتباكم) خصكم بالهداية والمعونة والتيسير.. فقد اختاركم -يا معشر المسلمين- من بين الناس، واختار لكم الدين ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو بإسقاط بعضه.

فما جعل عليكم في الدين الذي تعبدكم به ضيقا لا مخرج لكم منه، بل وسَّع عليكم وجعل لكم من كل ذنب مخلصا، كما فتح لكم باب التوبة، وشرع لكم الكفارات في حقوقه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]

قد انتدبكم الله لهذه الأمانة الضخمة، واختاركم لها من بين عباده.. وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء![1]

---

(1) مفاتيح الغيب – تيسير الكريم الرحمن – تفسير المراغي – الظلال

قال ابن القيم: ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا؛ فهم الأعلون في الدنيا والآخرة؛ كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها؛ فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجَنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده؛ ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا، وأعظمهم عند الله قدرا. ا.هـ

خرج ابن أبي شيبة عن خالد بن الوليد رضي الله عنه، قال: ما ليلةٌ يُهدَى إليَّ فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام، أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد، في سرية، أُصبِّح فيها العدو؛ فعليكم بالجهاد.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : مَن حرَّض أخاه على الجهاد كان له مثل أجره.

قال الإمام حسن البنا: أستطيع أن أتصور المجاهد شخصًا قد أعدَّ عُدته وأخذ أهبته وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه، وجوانب قلبه؛ فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبدًا، إن دُعِيَ أجاب، وإن نُودِيَ لبى، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه وجدُّه ولعبه لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التي وقف عليها حياته وإرادته يُجاهد في سبيلها، تقرأ في قسمات وجهه، وترى في بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك على ما يضطرم في قلبه من جوى لاصق وألم دفين، وما تفيض به نفسه من عزيمة صادقة، وهمة عالية وغاية بعيدة..

ذلك شأن المجاهدين من الأفراد والأمم، فأنت ترى ذلك واضحًا جليًا في الأمة التي أعدت نفسها للجهاد؛ تلحظه في مجالسها وأنديتها، وتراه في أسواقها وشوارعها، وتستشعره في مدارسها وبيوتها، وتستجليه في شبابها وشيبها ونسائها ورجالها، حتى ليخيل إليك أنَّ كل مكان ميدان، وكل حركة جهاد.

أستطيع أن أتصور هذا لأن الجهاد ثمرة الإدراك يولد الشعور، وينفي الغفلة، والشعور يبعث على الاهتمام واليقظة، والاهتمام يؤدي إلى الجهاد والعمل، ولكل ذلك آثاره ومظاهره.

أما المجاهد الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضي وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا ماجنًا، فهيهات أن يكون من الفائزين أو يُكتب في عداد المجاهدين.

والأمة التي ترى كل حظها من الجهاد كلمات تُقال أو مقالات تُكتب، ثُمَّ إذا فتشت قلوب القوم وجدتها هواء، وإذا خبرت اهتمامهم بالأمر رأيته هباءً، وانغمسوا في غفلة لاهية ونومة عابثة؛ فمحالُّهم وأنديتهم ومجامعهم وبيوتهم لا ترى فيها إلا لهوًا ومجونًا وعبثًا، ودعابةً ولعبًا وتسليةً، وقتلاً للوقت في غير فـــائدة..!

كل هَمِّ أحدهم متعة فانية أو لذة زائلة أو ساعة مرحة أو نكتة مستملحة فهذه الأمة؛ الهزل أقرب منها إلى الجد، بل لا حظَّ لها في الجد أبدًا.

فأين نحن الآن من ميدان الجهاد؟ إن أردتَ أن تعرف؛ فارقب الشواطئ والمصايف والمرابع والمخارف والقهاوي، والبارات والمراقص، والصالات والمجامع والمنتديات..

يا قومنا اسلكوا سبيلاً غير هذه، أو فدعوا علَم الجهاد: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ**﴾ [المائدة:٥٤] **ا.هـــ**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشِعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: **"لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما، ألا تحبون أن يغفر الله**

لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة". [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني]

[وفُواق الناقة هو ما بين الحلبتين من الوقت، لأن الناقة تُحلَب، ثم تُترَك سويعةً يرضعها الفصيل لتدر، ثم تُحلب.

وهذا من باب المبالغة في التحريض على القتال والترغيب فيه. وهذا الحديث صريح في أن الجهاد والغزو أفضل من العزلة للعبادة.

فيا ليت شعري! من يقوم مقام هذا الصحابي في عزلتِه وعبادته وطيب مطعمه، ومع هذا فقد قال النبي ﷺ : "لا تفعل.." وأرشده إلى الجهاد.

فكيف لواحد منا أن يترك الجهاد، مع أعمال يعملها لا يوثق بها مع قلتها؟ وخطايا لا ينجو منها لكثرتها؟ وجوارح لا تزال مطلقة فيما مُنعت منه، ومآكل حكم حلِّها عند رازقها، وخواطر علم أصلها عند خالقها، ونيات لا يتحقق إخلاصها، وتبعات لا يرجى بغير العناية خلاصها.] [مشارع الأشواق]

يا ويحَ الدينِ مَن باتَ يَحسَبُه ... شهرًا يُصامُ وأوقاتٍ يُصلِّيها
إنما الدينُ إيمانٌ وتضحيةٌ ... وعِزةٌ تنشرُ الدنيا وتَطويها

۞ ۞ ۞

ٱ ّجاٱذ في ضمان الله:

المجاهد في ضمان الله وكفالته وعونه وهدايته من حين خروجه حتى عودته أو استشهاده، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:٦٩]

(وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا) أي: والذين قاتلوا المفترين على الله الكذب، المكذبين لما جاءهم به رسوله، مبتغين بقتالهم علوَّ كلمتنا، ونصرة ديننا، لتزيدهم هداية إلى سبل الخير، وتوفيقا لسلوكها.

قال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وأعظمه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

ثم ذكر أن الله يعينهم بالنصرة والتوفيق: (**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**) أي: وإن الله ذا الرحمة لمع مَن أحسن مِن خلقه، فجاهد أهل الشرك مصدقا رسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة على من جاهد من أعدائه، وبالمغفرة والثواب في العقبى. [تفسير المراغي]

قال سفيان بن عيينة: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور، فإنّ الله يقول: (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يُخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته؛ بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة".**

قال الإمام النووي في شرح الحديث: معنى "تكفَّل الله": أوجب الله لهذا المجاهد الجنة بفضله وكرمه.

وقد يتوهم متوهم من قوله صلى الله عليه وسلم: "مِن أجرٍ أو غنيمة" أنَّ الأجر لا يجتمع مع الغنيمة، وأنه إذا أخذ الغنيمة فقد حُرم الأجر.

وليس الأمر كذلك، بل المعنى أن الله يرده بأجرٍ كامل إن لم يحصل على غنيمة، أو يرده بأجرِ مع غنيمة، ويجمع له بين الأمرين. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثٍ آخر أن الأجر يجتمع مع الغنيمة.

ومما يدل على أن الله ضمن للمجاهد الخير في حياته وبعد مماته، قصة الزبير بن العوام رضي الله عنه، وقد أوردها البخاري في صحيحه تحت عنوان: "باب بركة الغازي في ماله حيا وميتا": روى البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقمت إلى جنبه. فقال: يابُني! لا يُقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأُقتل اليوم مظلوما، وإنَّ مِن أكبر هَمي دَيْني. أفترى ديننا يُبقي من مالِنا شيئا؟ وقال: يا بُني! بِع مالَنا، واقضِ دَيني، فإن فضل من مالِنا شيء بعد قضاء الدين، فَثُلُثُه لولدكِ.. فجعل يوصيني بدينه، ويقول: يا بُني! إن عجزتَ عن شيء منه فاستعن عليه مولاي..! فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت له: يا أبتِ! مَن مولاك؟ قال: الله..! فوالله ما وقعتُ في كُربة من دَينه إلا قلتُ: يا مولى الزبير! اقضِ عنه دينه. فيقضيه الله!

فُقتِلَ الزبير، ولم يدعْ دينارا ولا درهما، إلا أرضين منهما الغابة، وأحد عشر دارا بالمدينة، ودارين بالبصرة، ودارا بالكوفة، ودارا بمصر. وإنما كان دَينه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه، فيقول له الزبير: لا.. ولكنه سلَف، فإني أخشى عليه الضياع.

وما وليَ إمارة قط، ولا جباية خَراج ولا شيئا، إلا أنْ يكون في غزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان.

قال عبد الله بن الزبير: فحسبتُ ما عليه من الدَّين فوجدتُه ألفي ألف ومائتي ألف! فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن أخي! كم على أخي الزبير من الدين؟ فكتمه عبد الله، وقال: مائةُ ألف. فقال حكيم: والله ما أرى أموالك تسع لهذه! قال عبد الله: أفرأيتك إذا كان الدين ألفي ألف ومائتي ألف؟! قال حكيم: ما أراكم تطيقون هذا.. فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف؛ فباعها عبد الله بألفِ ألفٍ وستمائة ألف. ثم قام فقال: مَن كان له على الزبير حق فليوافنا بالغابة.. ولما فرغ ابن الزبير من قضاء دَين أبيه، قال له إخوته: اقسم بيننا ميراثنا!

قال: لا والله؛ لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا مَن كان له على الزبير دَين فليأتِنا فلنقضه. فجعل كل سنة ينادي بالموسم.. فلما مضى أربع سنين قسم بينهم. وكان للزبير أربع نسوة، ورفع الثلث وصية، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف.. فجميع مال الزبير خمسون ألف ألف ومائتا ألف!!

ومن مظاهر حفظ الله عز وجل للمجاهدين ما ذكره د. عبد الله عزام أن المجاهد الأفغاني "قلب الدين حكمتيار" كان مختفيا في "بكتيا"، والشرطة على طول الطريق معهم صورته يبحثون عنه في السيارات، وقد مر على سبع عشرة نقطة ولم يصلوا إليه، وصورته معهم..!!

فيا عبد الله..

خذوا السبيلَ إلى العُلا بجهادِكم ... وأمامَ سيلِ الهولِ لا تتفرقوا
لا تجزعوا واقْفُوا طريقَ شهيدِكم ... وكما بأفقِ الجُودِ حلَّقَ حلِّقوا
لتقومَ دعوتُكم بغيثِ عطائكم ... ويسيرَ تحتَ لوائها مَن يصدقُ
وإذا خبا في الأفقِ نَجمُ هدايةٍ ... ومضى لمصرعِه جوادٌ أسبقُ
فثِقوا بأنَّ الله ناصرُكم وأنَّ ... النورَ رغمَ أنوفِهم متألِّقُ (١)

(١) من قصيدة "يا فوز روحك يا حبيب" للشاعر/ يوسف محيي الدين أبو هلالة

أخلاق المجاهدين في الحرب

قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]

ـَج يكفل سعادة البشرية:

إن غاية الجهاد في سبيل الله أن يرفرف لواء القانون الإلهي العادل على العالمين وتعلو كلمته في الدنيا، بحيث يتبع المجاهد في سبيل الله ذلك القانون العدل بنفسه، وكذلك يحمل غيره من أفراد البشر على اتباعه وامتثال أوامره.

وقد وعد الله الذين يقيمون الدين ويُعلون كلمته في أرضه ولا يعتون عن أمره؛ شأن المفسدين المتكبرين، وعدهم الدار الآخرة وسعادتها الأبدية، كما قال عز من قائل: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [القصص:٨٣]

لما ذكر تعالى، قارون وما أوتيه من الدنيا، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ) التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، (نَجْعَلُهَا) دارا وقرارا (لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرْضِ وَلا فَسَادًا) أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق (وَلا فَسَادًا) وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

قال الزمخشري: لم يُعلّق الموعد بترك العلوّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال: **﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** [هود:١١٣]، فعلق الوعيد

بالركون. وعن علي رضي الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه؛ فيدخل تحتها. وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأماني ها هنا. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قُبض.

وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مر علي بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كسرا لهم، فسلم عليهم، فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: (**تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا**)، ثم نزل وأكل معهم. ثم قال: قد أجبتُكم فأجيبوني. فحملهم إلى مترله فأطعمهم وكساهم وصرفهم.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: (وَالْعَاقِبَةُ) أي حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة؛ فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعُلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد؛ ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب. [1]

تلكم هي السجايا التي تخلق بها المسلمون في أول نزول الآيات؛ فذاع عبيرها وملأ أرجاء الدنيا؛ في وقت انتشر فيه الظلم والقهر والبطش بضعاف الناس؛ فحق لأصحاب هذه الأخلاق أن يسودوا الدنيا ويملكوا زمام القلوب طالما تخلقوا بها..

هذه هي الحقيقة المشرقة التي لا يكابر فيها أحد؛ فإنه لما استخلف أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الإسلامية؛ مملكتي الروم والفرس اللتين بلغ من عتوهما وتماديهما في الغي والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق.

[1] تيسير الكريم الرحمن – محاسن التأويل – الجامع لأحكام القرآن

وبلغت هذه الحملات التي بدأها الصديق رضي الله عنه غايتها في عصر الفاروق الذي يرجع إليه الفضل العظيم في توطيد دعائم المملكة الإسلامية الأولى، حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعا.

هذا وقد ظن الجمهور من سكان مصر والشام وبلاد الروم والفرس في أول الأمر أن هذه الحملات المتتابعة من العرب وهذه الفتوحات العظيمة التي زادت العرب مجدا؛ إن هي إلا من قبيل خطة الاستعباد والاستعمار، قد اختارها العرب وجعلوها شعارهم وديدنهم؛ شأن الأمم الجائرة التي سبقتهم في غابر الأزمان، فقد خيل إليه بادئ ذي بدء أن مثل العرب في هذه الفتوحات والغزوات كمثل الأمم من قبلهم، خرجت من أرضها تستعبد الشعوب المستضعفة وتسوقهم بعصا القهر والعنف، وتتصرف في رقابهم وأموالهم تصرف راعي الإبل في ماشيته، ومن ثم ترى أنهم انضووا في أول الأمر تحت لواء ملوك الروم والفرس، وتجندوا في جيوشهم، وبرزوا للقاء المسلمين وقتالهم.

ولكنهم لما تبين لهم أمر المسلمين وما خرجوا من ديارهم لأجله، ولما ظهر لهم أن هؤلاء العرب لا يقولون بالقومية الجائرة، وأنهم ما تدنست أذيالهم بأرجاس الأغراض القومية..

وأنهم ما نزحوا من بلادهم إلا لإقامة نظام للحكم مؤسس على قواعد العدل والنصفة، وأنهم ما استلُّوا السيوف من أغمادها إلا للقضاء على الطبقات الغاشمة الجائرة التي استأثرت بموارد الثراء والرخاء من دونهم، وسامتهم أنواع الخسف والعذاب المهيمن تحت حماية النظم الكسروية والقيصرية، وتبوأت مناصب الألوهية عتوا واستكبارا في الأرض

لما تبين لهم كل ذلك وشاهدوا حال الغزاة الفاتحين بأعينهم، وتجلت لهم أخلاقهم الزكية الطاهرة، مالوا بطبعهم إلى الحزب الإسلامي وبدأوا يتسللون من جيوش الروم والفرس، وإن اضطروا بعد ذلك إلى القتال في صفوفهم أو ألجأتهم الأحوال إلى ذلك.

ومن ههنا تعرف السبب الذي ساعد المسلمين على الانتصارات الباهرة والفتوح العظيمة التي أحرزوها في أول عهدهم بالحروب والغزوات، ومن أجل ذلك ترى أنه لما رأى سكان هذه البلاد المملكة الإسلامية تسير وفق مبادئها على قوانين العدل والنصفة، وشاهدوا نظام الإسلام الاجتماعي يعمل عمله على مرأى ومسمع منهم، وعاينوا ما أجدى به ذلك النظام على بلادهم من الرفاهية والطمأنينة، جعلوا يلبون دعوته ويدخلون زرافات ووحدانا في نظام ذلك الحزب العالمي، وينضوون تحت لوائه، إلى أن حملوا بأنفسهم تلك الراية، راية الإصلاح الشامل، وتقدموا إلى مختلف أقطار العالم النائية، يدعون أهلها إلى الدخول في كنف ذلك النظام الكافل لسعادة البشر والتمتع بخيراته وثمراته. [الجهاد في سبيل الله للمودودي]

ومما حفظه لنا التاريخ؛ ذلكم الموقف العظيم الذي يشهد بإنسانية الفاتحين المسلمين؛ فإنه لما فتح السلطان العثماني "مراد الثاني" مدينة "سلانيك" عام ١٤٣١م وهزم البندقيين شر هزيمة ودخل المدينة منتصرا.. أعلم الحاجب السلطان أن وفدا من مدينة "يانيا" قد حضر، وهم يرجون المثول بين يدي السلطان لأمر هام! تعجب السلطان من هذا الخبر، إذ لم تكن له أي علاقة بهذه المدينة التي كانت آنذاك تحت حكم إيطاليا.

كانت مدينة "يانيا" تحت حكم عائلة "توكو" الإيطالية، وعندما مات "كارلو توكو الأول" عام ١٤٣٠م، وُلِّي الحكم بعده ابن أخيه "كارلو توكو الثاني"، ولكن أبناء "توكو الأول" غير الشرعيين ثاروا وطالبوا بالحكم، فبدأ عهد من الاضطراب والفوضى والقتال عانى منه الشعب الأمرين، وعندما سمعوا بأن السلطان "مراد الثاني" بالقرب منهم في مدينة "سلانيك"؛ قرروا إرسال وفد عنهم.

أمر السلطان مراد رئيس حجابه بالسماح للوفد بالدخول عليه، ثم قال لرئيس الوفد بواسطة الترجمان: أهلا بكم.. ماذا أتى بكم إلى هنا؟ وماذا تبغون؟

قال رئيس الوفد: أيها السلطان العظيم! جئنا نلتمس منكم العون؛ فلا تخيب رجاءنا.

قال السلطان: وكيف أستطيع معاونتكم؟!

فأجابه: يا مولاي! إن أمراءنا يظلموننا، ويستخدموننا كالعبيد، ويغتصبون أموالنا ثم يسوقوننا للحرب!

قال السلطان: وماذا أستطيع أن أفعل لكم؟! إن هذه مشكلة بينكم وبين أمرائكم..

فرد عليه: نحن أيها السلطان لسنا بمسلمين، بل نحن نصارى، ولكننا سمعنا كثيرا عن عدالة المسلمين، وأنهم لا يظلمون الرعية، ولا يُكرِهون أحدا على اعتناق دينهم، وإن لكل ذي حق حقه لديهم.. لقد سمعنا هذا من السياح، ومن التجار الذين زاروا مملكتكم، لذا فإننا نرجو أن تشملنا برعايتكم وبعطفكم، وأن تحكموا بلدنا لتخلصونا من حكامنا الظالمين!! ثم قدموا له مفتاح المدينة الذهبي..

واستجاب السلطان لرجاء أهل مدينة "يانيا"، وأرسل أحد قواده على رأس جيش إلى هذه المدينة، وتم فتحها فعلا في السنة نفسها، أي في سنة ١٤٣١م. [1]

وأخلاق المجاهد المسلم منشؤها عقيدته التي يطوي عليها فؤاده، فهي ثابتة لا تتقلَّب سواء كان في الميدان أوخارجه؛ فهذا لثدْ معبرأىدويتي "عادل ٱلادبُ" رجل من رجالات هذه الأمة من مواليد الكويت، تربى وعاش على روح المغامرة وحب التحدي؛ كان ممن يُشار إليه بالبنان في الكويت؛ فهو من أشهر العدائين، وقد أحرز للكويت بطولات في هذا المجال.. ونفسه تواقة للعزة والكرامة، وقد وجد ضالته في الجهاد في سبيل الله؛ فعقد العزم على السفر إلى بلاد الأفغان بعد الغزو الروسي لنصرة المسلمين هناك، ونيل شرف الجهاد والاستشهاد.. وفعلا وصل هنالك، وكان مميزا بين إخوانه المجاهدين حتى أصبح قائدا من قادة المجاهدين، مكث فترة طويلة في أفغانستان، وكانت له صولات وجولات..

[1] روائع من التاريخ العثماني لأورخان محمد علي – نقلا عن موقع التاريخ

وعندما روعت الأمة أحداث البوسنة والهرسك ذهب إلى مكة ليعتمر، وبينما هو في غفوة بعد أداء العمرة؛ رأى أطفال البوسنة ورجالهم ينادونه باسمه فبدأ يفكر جديا بالسفر؛ فأعد العدة وانطلق في عام ١٩٩٣م، وشارك إخوانه بعض العمليات، ثم رجع إلى الكويت لينقل الصورة ويجمع التبرعات، وذات يوم قال له أحد الكويتيين: أتعرف فلان؟ قال: نعم أعرف اسمه -وكان من كبار تجار الكويت- فقال له: إذا وصلت إليه فسيكفيك عن طلب التبرعات! وبالفعل وصل إليه، وقال: ممكن أتكلم معك لحظة؟ فقال التاجر: هيا بسرعة! فأخبره عن أحوال المسلمين هناك وما شاهده من أهوال.. فكانت المفاجأة برد التاجر عليه أن بصق بوجهه بكل احتقار، وقال: لست متفرغا لك ولبوسنوييك!! فرد عليه أبو معاذ بلطف وقال: هذه البصقة التي في وجهي لي أنا! ولكن.. ماذا ستعطي إخواننا هناك؟ فأثرت هذه الكلمة في نفس التاجر وطلب منه السماح، وأعطاه ما يريد. [من قصص الشهداء العرب (بتصرف)]

فكيف ساسَ رُعاةُ الإبلِ مملكةً ... ما ساسَها قيصرٌ مِن قبلُ أو شاهُ
وكيفَ كان لهم عِلمٌ وفلسفةٌ ... وكيف كانت لهم سُفنٌ وأمواهُ
سَنُّوا المساواةَ لا عُربٌ ولا عجمٌ ... ما لامرئ شرفٌ إلا بتقواهُ
وقررتْ مبدأ الشورى حكومتُهم ... فليس للفردِ فيها ما تمنَّاهُ
ورحَّبَ الناسُ بالإسلامِ حينَ رَأوْا ... أنَّ السلامَ وأنَّ العدلَ مَغزاهُ (١)

۞ ۞ ۞

(١) من رائعة محمود غنيم: وقفة على طلل

ولا تعتدوا:

قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة:١٩٠]

تبدأ الآية بأمر المسلمين بقتال هؤلاء الذين قاتلوهم وما يزالون يقاتلوهم، وبقتال من يقاتلهم في أي وقت وفي أي مكان، ولكن دون اعتداء..

والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطرا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة، كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين.. كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام، ووضع بها حدا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء.. تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام، وتأباها تقوى الإسلام.

ومن الاعتداء التمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين. ومن الاعتداء، مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز.

وهذه طائفة من أحاديث الرسول ﷺ ووصايا أصحابه؛ تكشف عن طبيعة الآداب التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وُجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان. [أخرجه مالك والشيخان وأبو داود والترمذي]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه**". [أخرجه الشيخان]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعث فقال: إن وجدتم فلانا وفلانا (رجلين من قريش) فأحرقوهما بالنار. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أردنا الخروج: **"كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا، وإن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموهما فاقتلوهما"**. [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أعفُّ الناسِ قِتلةً أهلُ الإيمانِ"**. [أخرجه أبو داود، وضعفه الألباني]

وعن عبد الله بن يزيد الأنصاري رضي الله عنه قال: **نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النُّهْبى والمُثلة"**. [أخرجه البخاري]

قال ابن بطال: الانتهاب الذى أجمع العلماء على تحريمه هو ما كانت العرب عليه من الغارات وانطلاق الأيدى على أموال الناس بالباطل، فهذه النهبة لا ينتهبها مؤمن، كما لا يسرق ولا يزنى مؤمن، يعنى مستكمل الإيمان، على هذا وقعت البيعة فى حديث عبادة رضي الله عنه فى قوله: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ننتهب. يعنى: ألا نغير على المسلمين فى أموالهم.

والمثلة هي التنكيل والتشويه، كأن تُقطع أطراف الجسد، أو تُفقأ العين، أو تجدع الأنف أو الأذن..

وعن ابن يعلى قال غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأتى بأربعة أعلاج من العدو، فأمر بهم فقُتلوا صبرا بالنَّبل. فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال: **سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن قتل الصبر**[1]. **فوالذي نفسي بيده، لو كانت دجاجة ما صَبَرْتُهَا. فبلغ ذلك عبد الرحمن، فأعتق أربع رقاب**. [أخرجه أبو داود]

[1] الصبر: أن يمسك بحي ثم يُرمى بشيء حتى يموت. وأصل الصبر الحبس.

وعن الحارث بن مسلم بن الحارث عن أبيه رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية؛ فلما بلغنا المغار استحثثت فرسي فسبقت أصحابي؛ فتلقاني أهل الحي بالرنين. فقلت لهم: **قولوا: لا إله إلا الله تُحَرَزُوا. فقالوها. فلامني أصحابي، وقالوا: حرمتنا الغنيمة! فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه بالذي صنعت. فدعاني فحسَّن لي ما صنعت. ثم قال لي: "إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر".** [أخرجه أبو داود]

وعن بريدة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى، وبمن معه من المسلمين خيرا. ثم قال له: **"اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا".** [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي]

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام، وهذه هي آدابه فيها، وهذه هي أهدافه منها.. وهي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لا يُنصرون بعددهم؛ فعددهم قليل. ولا يُنصرون بعدتهم وعتادهم؛ فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم. إنما هم ينصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون الله لهم. فإذا هم تخلوا عن توجيه الله لهم وتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه.

ومن ثَم كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل.. ولما فار الغضب برسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بحرق

رجلين من قريش؛ عاد فنهى عن حرقهما، لأنه لا يحرق بالنار إلا الله.

وهذه وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأسامة بن زيد وجيشه الذي أنفذه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا، ولا تعزقوا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.."**

وكان الخلفاء يأمرون أمراء الجيوش بما كان يأمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يبدأوا أمة بقتال حتى يعرضوا عليهم الإسلام، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوهما فالقتال. وكانوا يوصونهم بما أوصى به أبو بكر رضي الله عنه أسامة حين سيره بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم الإفساد في الأرض، وعدم التعدي على النساء والصبيان والشيوخ والرهبان..

فلا يُقتل زَمِن ولا أعمى ولا راهب. فالزمن والأعمى ليسا من أهل القتال، فأشبها المرأة، والراهب جاء في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: "وستمرون على أقوام في الصوامع، قد حبسوا أنفسهم فيها، فدعوهم حتى يميتهم الله على ضلالهم". ولأنهم لا يقاتلون تدينا، فأشبهوا مَن لا يقدر على القتال.

ومن قاتَل من هؤلاء: النساء أو المشايخ أو الرهبان في المعركة قُتل، لا نعلم فيه خلافا، وبهذا قال الأوزاعي والثوري والليث والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة مقتولة يوم الخندق، فقال: **"مَن قتل هذه؟" قال رجل: أنا يا رسول الله! قال: "ولم؟" قال: نازعتني قائم سيفي. قال: فسكت.** ولأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على امرأة مقتولة، فقال: **"ما بالُها قُتلت وهي لا تقاتل؟"**

وهذا يدل على أنه إنما نهى عن قتل المرأة إذا لم تقاتل، ولأن هؤلاء إنما لم يُقتلوا لأنهم في العادة لا يقاتلون.

وقد امتثل قادة الفتح الإسلامي وجنودهم لتلكم الوصايا النبوية، وتخلقوا بتلكم الأخلاق الزاكية؛ فأسروا أهل البلاد التي فتحوها بحسن خلقهم وإنسانيتهم منقطعة النظير..

فها هم المصريون وهم يشهدون المعارك الخاطفة التي يقودها بطل الإسلام وداهية الأرض وقتذاك عمرو بن العاص؛ يعلمون أن صاحبها وجنوده يحملون في قلوبهم دعوة دينية جديدة؛ فتوقعوا أن تكون أول أعماله -إذا تم له النصر العسكري- أن يشن عليهم حملة دينية يبسط بها عقيدته في جميع مدائن الوادي وقراه.. وقد تعود المصريون قبل الفتح الإسلامي اضطهاد الحكام الديني وألفوه، وكان بطريرك الكرازة المرقسية نفسه مشردا في تلك الأيام، ومطاردا من بني دينه الأجانب لاختلاف مذهبي فرعي! فكانوا يقدِّرون أن يكون الاختلاف الكلي بين دين الحاكمين الجدد ودين البلاد المفتوحة أفدح وأسوأ عاقبة من ذلك الاختلاف المذهبي الجزئي.. ولو أن عمرًا ترك الأمور على حالها، وبقي البطريرك في الدولة الجديدة بمثل الحال التي كان عليها في زمن دولة الروم؛ لما كان في الدنيا أي مانع يمنع من ذلك، أو قوة تحول بين القائمين الجدد وبسط نظام دولتهم في كل الأمور.. وكان العرب أحرارا في ألا يعترفوا لأيٍّ كان بأي سلطان مادي أو روحي أو قضائي!

لكن الأيام ما لبثت أن تكشفت عن رفق عجيب، وتسامح كريم؛ في إزالة كل ما كان يشكوه البطريرك من اضطهاد الحكام السابقين، وأبيح له أن يتولى من طائفته كل ما له صلة بالعقيدة والدين، وحتى الفصل في الأحوال الشخصية ترك له ولأتباعه من الأساقفة والقسس؛ عملا بالهداية القرآنية:

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]

وطرق مسامع المصريين أن الخليفة إذا ودّع القائد من قواده عندما يعقد له اللواء على جيش من هذه الجيوش التي لا تُغلب؛ يوصيه بالرفق بالشيوخ والأطفال والنساء والعجزة، وبالقسس والرهبان إذا لم يشتركوا في الحرب، ولم يكيدوا للمسلمين وجيوشهم، ولم يحرضوا عليهم أو يتدخلوا فيما لا يعنيهم.

وكان المصريون قبل أن يعرفوا دين الفاتحين يحسبونهم أعداء لأنبياء الله، أو على الأقل قليلي التقدير لهم والحرمة لدعوتهم. فلما اتصلوا بهم ووقفوا على الخطوط الأساسية في عقيدتهم وشريعتهم؛ وجدوهم أكثر تنزيها لأنبياء التوراة مما ورد عليهم في التوراة، ويبطنون المحبة والحرمة والإيمان والتعظيم للمسيح عليه السلام وأمه الطاهرة البتول. ولا يكتفي هؤلاء الفاتحون بإجلال أنبياء التوراة وحواريي المسيح عليه السلام، بل يتلون فوق ذلك في كتابهم السماوي قول الله عز وجل: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢]

فكانت هذه الحقائق الماثلة أمام أنظار المصريين تستل من قلوبهم السخائم[1]؛ فتمتلئ تلك القلوب محبة واحتراما لهذه الأمة الفاتحة المفطورة على الرفق والاعتدال، والشهامة والإنصاف، وإيثار الخير، والتقلب مع الحق حيثما اتجه..

إن هذا الموقف الأدبي لعمرو بن العاص وصحبه؛ عقب انتصارهم الحربي العجيب؛ يُعد الحادث الأول من نوعه في التاريخ! ومصر على الخصوص لا تعرف له نظيرا في كل ما تقدم لها من احتكاك واصطدام واتصال بالملل الأخرى؛ فقد جربت الروم

[1] السَّخيمة والسُّخْمَة: الحقد في القلب، والجمع: سخائم، ورجل مُسَخَّم إذا كان في قلبه سخيمة.

والوثنيين فلقيت منهم الأمرين؛ وهي تؤرخ بأيام الشؤم التي لقيتها منـــهم! وجربـــت الفرس الذين يدينون بالمجوسية فلم تحمد هذه التجربة، وكان الـــروم المســـيحيون لا يتسامحون ولا بيسير الاختلاف مع الاتفاق في أصل العقيدة!

أما هؤلاء المنقضون على وادي النيل من جزيرة العرب كما تنقض الصواعق؛ فإنهم أرفق وأرحم، وأحجى وأنبل من الذين تقلبوا في أحضان الحضارة من روم وفرس؛ فلم ترقق الحضارة من أفئدتهم، بل تركتها كالحجارة أو أشد قسوة!!

هي الحنيفةُ عينُ اللهِ تكلؤها فكلما حاولوا تشويهَها شاهوا

وها هو النبي ﷺ الذي أرسله ربه رحمة للعالمين يمنع التفريق في السبي بين الوالـــدة وولدها، ويقول: **"من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة"**. [رواه الترمذي وحسنه الألباني] [1]

ومن المواقف الرائعة في هذا المقام ما رواه القاضي ابن شداد عن الســـلطان الـــرحيم صلاح الدين الأيوبي؛ وقد جاءه بعض الجند ومعه امرأة شديدة التخوف كـــثيرة البكـــاء متواترة الدق على صدرها.. قال الجندي: إن هذه خرجت من عند الإفـــرنج فســـألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها.. فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها، فقالت: اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار. فقيل لي: السلطان أرحم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه.. فأخرجوني إليـــك ومـــا أعرف ابنتي إلا منك. فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته، وأمر مَن ذهب إلى ســـوق العسكر يسأل عن الصغيرة مَن اشتراها، ويدفع له ثمنها ويحضرها. وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن

[1] في ظلال القرآن – تيسير الكريم الرحمن – المغني – إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء – مع الرعيل الأول.

وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب؛ والناس يبكون على ما نالها، وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول، فسلمت ابنتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم. [النوادر السلطانية]

أروني مدَى الأيام عهدًا مُعطَّرًا
بغيرِ شذا الإسلام يَهمي ويَعبَقُ

۞ ۞ ۞

إن الله لا يحب الخائنين:

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨]

أي: وإن توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكثا للعهد بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بأن تنبذ إليهم عهدهم وتنذرهم بأنك غير مقيّد به ولا مهتم بأمرهم، بطريق واضح لاخداع فيه ولا استخفاء. **والحكمة فى هذا أن الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقا.**

وخلاصة ذلك: لا تحاربهم قبل أن تُعلِمهم أنك قد فسخت العهد الذي بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء، فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم.

(**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ**) أي إن الخيانة مبغوضة بجميع ضروبها، ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة.

ودلت الآية على أنه إذا وُجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل عُلم عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضا أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، فلا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

وإنما رتَّب نبذ العهد على خوف الخيانة دون وقوعها؛ لأن شئون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولا يُنتَظر تحقُّق وقوع الأمر المظنون؛ لأنه إذا تريَّث وُلاة الأمور في ذلك يكونون قد عرضوا الأمة للخطر، أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة، ولا تُدار سياسة الأمة بما يُدار به القضاء في الحقوق؛ لأن الحقوق إذا فاتت كانت بليَّتها على واحد، وأمكن تدارك فائتها. ومصالح الأمة إذا فاتت تمكَّن منها عدوها، فلذلك علَّق نبذ العهد بتوقُّع خيانة المعاهدين من الأعداء، ومن أمثال العرب: خُذ اللص قبل أن يَأخُذَك، أي: وقد علمت أنه لص.

والإسلام يعاهد ليصون عهده؛ فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان..

وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة.. إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ؛ ولا يروِّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم..

فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة؛ لأن كل خصم قد أخذ حذره؛ فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة!

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلب؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومِن ثَم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة..

إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ؛ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة.. وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات.

إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بِركة من الوحل، فإن الشط الممرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية.. من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة: (**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ**)..

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق. لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان. قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت. ويجب أن نذكر كذلك أن قانون الغابة هو الذي ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي؛ حيث لم تكن أوربا تعرف شيئا عن المعاملات الدولية إلا ما تقتبسه في أثناء تعاملها مع العالم الإسلامي. ثم هي لم ترتفع قط –حتى اللحظة– إلى هذا الأفق في عالم الواقع؛ حتى بعد ما عرفت نظريا شيئا اسمه "القانون الدولي"!

وعلى الذين يبهرهم "التقدم الفني في صناعة القانون" أن يدركوا حقيقة "الواقع" بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعا! [(١)]

وقد حذر رسول الله ﷺ من الغدر: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم من أمير عامة"**. [رواه مسلم]

وإنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة؛ فإنهم إذا غدروا وعلم ذلك منهم ولم ينبذوا بالعهد لم يأمنهم العدو على عهد ولا صلح فتشتد شوكته ويعظم ضرره، ويكون ذلك منفرا عن الدخول في الدين، وموجبا لذم أئمة المسلمين، فأما إذا لم يكن للعدو عهد فينبغي أن يتحيل عليه بكل حيلة، وتدار عليه كل خديعة، وعليه يحمل قوله ﷺ: "الحرب خدعة".

وقد اختلف العلماء هل يجاهد مع الإمام الغادر؟ على قولين: فذهب أكثرهم أنه لا يقاتل معه بخلاف الخائن والفاسق. وذهب بعضهم إلى الجهاد معه.

وكان المسلمون الأوائل أحرص الناس على الوفاء وعدم الغدر؛ فهذا كتاب الفاروق لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما عندما نزل القادسية: [إني أُلقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم، فمتى لاعب أحد منكم أحدا من العجم بأمان أو بإشارة أو بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به كان عندهم أمانا فأجروا له ذلك مجرى الأمان والوفاء، فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم. واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيئا على المسلمين وسببا لتوهينهم.] [الكامل في التاريخ]

(١) تفسير المراغي – التحرير والتنوير – في ظلال القرآن

وقد كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر.. الله أكبر.. وفاء لاغدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة رضي الله عنه، فأرسل إليه معاوية، فسأله فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **"مَن كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يشد عقدةً ولا يحلُّها حتى ينقضي أمدُها أو ينبذ إليهم على سواء"**[1]. فرجع معاوية رضي الله عنه.

ينبذ إليهم على سواء، أي: قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك؛ فيكون ذلك خيانة وغدرا.]إتحاف العباد بفضائل الجهاد]

ومن روائع الراشد العمري؛ أنه لما استُخلِف رحمه الله وفد عليه قوم من أهل "سمرقند" فرفعوا إليه أن "قتيبة" دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر. فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروا. فإنْ قضى بإخراج المسلمين أُخرجوا. فنصب لهم "جميع بن حاضر الناجى"، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء. فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين، فأقاموا بين أظهرهم. [فتوح البلدان]

والحاصل أن جيش المسلمين بقيادة "سعيد بن عثمان" فتح مدينة "سمرقند"، وتصالح مع أهلها على مال يدفعونه. ولما مات "سعيد" تولى القيادة "قتيبة بن مسلم"..

فرأى نقض الصلح لقلة المال الذي يدفعه أهل "سمرقند"؛ فدخلها "قتيبة" بجيشه عنوة؛ مخالفًا بذلك تعاليم الإسلام التي لا تجيز نقض العهد، وتوجب ألا يحارب المسلمون أعداءهم إلا بعد أنْ يُعلموهم بذلك؛ إذ لا يصح قتال العدو وهو متوهم ببقاء العهد، بل يجب نبذ العهد أولاً، وإعلام العدو بأنه حرب عليه؛

---

[1] رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني

فالله لا يحب الخيانة ولو في حق الكافرين الأعداء.

شكا أهل "سمرقند" إلى الخليفة "عمر بن عبد العزيز" تصرف القائد المسلم، فكتب إلى واليه يأمره بعرض المسألة على القضاء، فعُرِضَت على القاضي "جميع بن حاضر الناجي"؛ الذي سمع الدعوى، وأجمع الشهود على أن "قتيبة" لم ينبذ عهد أهل "سمرقند"، بل فاجأهم بالقتال، وفتح بلادهم عنوة؛ فأصدر القاضي حكمه بإخراج الجيش الإسلامي من "سمرقند"، وإخراج المسلمين الذين دخلوها بعد الفتح. وأسرع الوالي بإخبار الخليفة بحكم القضاء؛ فأمر بإنفاذه فورًا، وصدرت الأوامر إلى الجيش والمسلمين المدنيين بمغادرة "سمرقند". وبينما الجميع يتأهبون لذلك إذا بوفد من أهالي "سمرقند" يطلب مقابلة الوالي. ولما قابلوه أبلغوه بتنازلهم عن الحكم الصادر لصالحهم؛ لأنهم لن يخشوا بعد ذلك غدرًا..

وبقي الجيش الإسلامي بسمرقند بناءً على طلب أهلها الذين سارع أكثرهم إلى اعتناق الإسلام.

ويتكرر ذلك المشهد النادر في مكان آخر من أرض الإسلام، يرويه العلامة أبو الحسن الندوي قائلا: وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين في قرية "كاندهلة" من مديرية "مظفر نكر" في الولايات المتحدة الهندية على أرض، فادعى الهنادك أنها معبد لهم، والمسلمون أنها لهم مسجد. وتحاكموا إلى حاكم البلد الإنجليزي، فسمع الحاكم القضية ودلائل الفريقين، ولم يطمئن إلى نتيجة، فسأل الهنادك: هل يوجد في القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه؟ قالوا: نعم.. فلان، وسموا شيخًا من علماء المسلمين وصالحيهم. فأرسل إليه الحاكم وطلبه إلى المحكمة، فلما جاءه الرسول قال: قد حلفتُ أن لا أرى وجه إفرنجي! فرجع الرسول يخبر الحاكم، فقال الحاكم: لا بأس! يحضر ويدلي برأيه في القضية. فحضر الشيخ، وولّى ظهره إلى الحاكم، وقال: الحق مع الهنادك في هذه القضية، والأرض أرضهم!

وبذلك قضى الحاكم، وخسر المسلمون القضية، ولكن كسبوا قلوب الهنادك، وأسلم منهم جماعة. [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين]

يقول فضيلة الشيخ/ علي الطنطاوي رحمه الله: حكم المسلمون أطراف البحر المتوسط من نصف الساحل الشرقي إلى نصف الساحل الغربي. وكان الساحل الجنوبي كله لهم، والشمالي تحت حمايتهم، وفي ظلال رايتهم، تربطهم عهود بإيطاليا وصقلية، فجاء زعيم صقلية لاجئا إلى أمير المغرب زيادة الله، وخبره أن حكومة صقلية نقضت العهد، وحبست أسرى المسلمين، وأساءت إلى الجالية الإسلامية.

وتردد الحاكم في قبول الخبر، وأحب أن يقف على حكم الشرع فيه؛ هل يكفي هذا الإخبار لاعتبار المعاهدة منتهية وإعلان الحرب؟

ودعا القاضيين: أسد بن الفرات وأبا محرز؛ يستفتيهما. أما أبو محرز فلم يـرَ ذلك كافيا، وأما أسد فقال: إن المعاهدة إنما أُبرمت على أيدي الرسل، وإخبار الرسل كافٍ لنقضها.. فلما أفتاه أسد شرع يجهز الأسطول. [رجال من التاريخ]

ِشادُ ٌّ ٌْعاها الحِسٌّ وأد عبيشَ ٱـ ّغـ ِهأ ٌ سِيـ خَ ٱخُضَ اِ ٌ

ٌّارا يثبت لكم العدو؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]

(**وَما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ**) أي ما كان من شأن أي نبي ولا من سيرته أن يغل، لأن الله عصم أنبياءه منه؛ فهو لا يليق بمقامهم ولا يقع منهم؛ لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءة وخسة.

والغُلول هو أنْ يأخذ المرء مِن المغنم شيئًا يستره عن أصحابه. يقال: غلَّ شيئًا من المغنم غُلُولا، وأغل إغلالا، إذا أخذه في خفية. وسُمي غلولاً؛ لأنّ الأيدي مغلولة عنه، ممنوعة من تناوله وأخذه.

والغلول قليله وكثيره لا يحل أخذه في الغزو قبل المقاسم، وهو كبيرة من الكبائر، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: "لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ بعيرٌ له رُغاءٌ، يقولُ: يا رسولَ اللهِ أغِثْني. فأقولُ: لا أملكُ لك شيئًا قد أبلغتُكَ.. لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ فَرَسٌ له حَمْحَمَةٌ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني. فأقول: لا أملكُ لك شيئًا قد أبلغتُكَ.. لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ شاةٌ لها ثُغاءٌ، يقول: يا رسولَ اللهِ أغثني. فأقول: لا أملكُ لكَ شيئًا قد أبلغتُكَ.. لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ نَفْسٌ لها صياحٌ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني. فأقولُ: لا أملكُ لكَ شيئًا قد أبلغتُكَ. لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ رِقاعٌ تخفقُ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني. فأقول: لا أملكُ لك شيئًا قد أبلغتُكَ. لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ صامتٌ، فيقولُ: يا رسولَ اللهِ أغثني. فأقولُ: لا أملكُ لك شيئًا قد أبلغتُكَ".**[1]

قال المهلب: هذا الحديث وعيد لمن أنفذه الله عليه من أهل المعاصي، ويحتمل أنْ يكون الحِمْل المذكور لا بد منه عقوبة له بذلك؛ ليفتضح على رءوس الأشهاد، وأما بعد ذلك فإلى الله الأمر في تعذيبه أو العفو عنه.

وفي صحيحي البخاري ومسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى "خيبر" فلم نغنم ذهبًا ولا فضة،إنما غنمنا المتاع والأموال ثم انصرفنا نحو "وادي القِرى"، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد وهبه إياه رفاعة بن زيد من بني خبيب؛**

---

(1) ألفين: أجدن / الرُغاء: صوت البعير / حمحمة الفرس: صوته دون الصهيل / الثُغاء: صياح الغنم / رقاع تخفق: أي تتقعقع وتضطرب إذا حركتها الرياح، وقيل: معناه تلمع، والمراد بها الثياب. (قاله ابن الجوزي) / صامت: الذهب والفضة، وقيل: ما لا روح فيه من أصناف المال. / وكأنه أراد بـ"النفس" ما يَغُلُّه من الرقيق من امرأة أو صبي. [فتح الباري ملخصًا]

فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم عاثر فأصابه فمات فقال له الناس: هنيئًا له الجنة. فقال رسول الله ﷺ: "كلا، والذي نفسي بيده! إنَّ الشَّـمْلَةَ الـتي أخذها يومَ خيبرَ مِنَ المغانمِ لم تُصبْها المقاسمُ لتشتعلُ عليهِ نارًا". فلما سمع ذلك النـاس جاء رجل بشِراكٍ[2] أو شِراكين إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: "شِراكٌ أو شِراكان مِن نارٍ".

وروى أبو داود والنسائي وأحمد ومالك وابن ماجه عن زيد بن خالـد رضي الله عنه أنّ رَجُلاً من أصحاب النبي ﷺ تُوُفي يوم خيبر. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ؛ فقـال: **"صَلُّوا على صاحِبكم"!** فتغيرت وجوهٌ لذلك؛ فقال: **"إنَّ صاحبَكم غَلَّ في سبيلِ اللهِ"!!** ففتشنا متاعه؛ فوجدنا خرزًا من خرز يهود، لا يساوي درهمين!!

وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: **كان على ثَقَل[1] النبي ﷺ رَجُلٌ يقالُ له: "كركرة" فمات، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "هو في النارِ" فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءةً قد غَلَّها.**

قال ابن حجر: قوله: (هو في النار) أي يُعَذَّب على معصيته، أو المراد: هو في النار إنْ لم يعفُ الله عنه.

[وقد عملت هذه الآية القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة عملها في تربية الجماعة المسلمة؛ حتى أتت بالعجب العجاب؛ وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع والتحرج من الغلول في أية صورة من صوره، كما لم تتمثل قط في مجموعة بشرية..

---

(2) الشملة: كساء يشتمل به الإنسان. والشراك: ما يُربَط به الحذاء أو النعل.

(1) ثَقَل: المتاع المحمول على الدابة.

وقد كان الرجل من أفناء الناس من المسلمين يقع في يده الثمين من الغنيمة، لا يـــراه أحد، فيأتي به إلى أميره، لا تُحَدِّثه نفسه بشيء منه، خشية أنْ ينطبق عليه النص القـــرآني المرهوب، وخشية أنْ يلقى نبيه على الصورة المفزعة المخجلة التي حذره أنْ يلقاه عليها يوم القيامة..! فقد كان المسلم يعيش هذه الحقيقة فعلاً. وكانت الآخرة في حسه واقعًا، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه؛ فيتوقاها ويفزع أنْ يكون فيها.. وكان هذا هو سر تقواه وخشيته وتحرجه؛ فالآخرة كانت حقيقة يعيشها، لا وعدًا بعيدًا..! وكان على يقين لا يخالجه الشك من أنَّ كل نفس ستوفى ما كسبت، وهم لا يظلمون..

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال: لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقبـــاض، أقبل رجل بِحُقٍّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض. فقال والذين معه: ما رأينا مثل هـــذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا: هل أخذتَ منه شيئًا؟ فقال: أما واللهِ لـــولا اللهُ ما آتيتُكم به. فعرفوا أنَّ للرجل شأنًا.. فقالوا: مَـــن أنت؟ فقـــال: لا والله لا أخـــبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليُقَرِّظوني..! ولكني أحمـــد الله وأرضى بثوابه.. فأتبعوه رَجُلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فســـأل عنه فإذا "عامر بن عبد قيس" [1]

وقد حُملت الغنائم إلى عمر رضي الله عنه بعد القادسية، وفيها تاج كسرى وإيوانه لا يُقَوَّمان بثمن.. فنظر رضي الله عنه إلى ما أداه الجند في غِبطة وقال:

إنَّ قومًا أدوا هذا لأميرهم لأمناء..

---

[1] "عامر بن عبد قيس" ذكره "ابن الجوزي" في الطبقة الأولى من تابعي أهل البصرة، وقال: أدرك "عامر" الصدر الأول، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكنه اشتغل بالعبادة عن الرواية. [صفة الصفوة] وقال عنه كعب الأحبار: هذا راهب هذه الأمة. وروى ابن المبـــارك في "الزهد" أنه كان يشترط على رفقته في الغزو أن يخدمهم، وأن يؤذن، وأن ينفق عليهم طاقته. [سير أعلام النبلاء]

وهكذا ربى الإسلام المسلمين تلك التربية العجيبة التي تكـاد أخبارهـا تحسـب في الأساطير..!] [في ظلال القرآن]

وإنَّ للغلول تأثيرًا خطيرًا على الجيش؛ لأنه ما ظهر الغلول في قـوم إلا ألقـى الله في قلوبهم الرعب، وأخَّر عنهم النصر!!

روى الطبراني في الأوسط عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إنْ لم تَغُلّ أُمَّتي لم يَقُمْ لهم عدوٌّ أبدًا"**.

ولذلك قال أبو ذر الغفاري لحبيب بن مسلمة الفهري: هل يثبت لكم العدو؟ قـال حبيب: نعم. قال أبو ذر: غللتم ورب الكعبة!

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لمن ورد عليه: هل ثبت لكم العـدو؟ فـإنْ قالوا: نعم؛ قال: قد غللتم!!

وخَرَّج ابن عساكر أن رجلاً خرج للجهاد فماتت دابته في الطريق، فأتى "مالك بـن عبد الله الخثعمي"؛ وبين يديه بِرذَوْن من المغنم، فقال: احملني أيها الأمير على هذا الفرس..

فقال الأمير: أنا لا أستطيع حمله!!

فقال الرجل: أنا لم أطلب منك أنْ تحمله، وإنما سألتُك أنْ تحملني عليه..

فقال الأمير: هذا الفرس من الغنائم، وإنْ أعطيتُكَ إياه أكون قد غللتُ، والله يقـول: **﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** وأنا لا أطيق حمله يوم القيامة!! [مشارع الأشواق (بتصرف)]

فيا عباد الله..

إن الخُلُق في منابع الإسلام الأولى –من كتاب وسنة– هو الدين كله، وهو الدنيا كلها!

فإن نقصت أمةٌ حظًّا من رفعة في صلتها بالله، أو في مكانتها بين الناس؛

فبقدر نقصان فضائلها وانهزام خلقها..

ولقد حدد رسول الله ﷺ الغاية الأولى من بعثته، والمنهاج المبين في دعوته بقوله:

"إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق" [السلسلة الصحيحة]

فكأن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهدا كبيرا في مد شعاعها وجمع الناس حولها؛ لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى وهم في ساحات النزال..

ِآص ش خِذّب التاريخ في أص ْص ف ذب رً

سَلِ المعالي عنا إننا عَرَبٌ
شعارُنا المجدُ يهوانا ونهواهُ
مُلْكٌ كمُلْكِ بني التاميزِ ما غربَت
شمسٌ عليهِ، ولا بَرقٌ تخطَّاهُ
ماضٍ نعيشُ على أنقاضِهِ أُمَماً

معاركفاصِح غيرت وجه التاريخ

لقد شهد تاريخ الإسلام سلسلة متطاولة من المعارك الفاصلة، منذ وقعة بدر التي فرق الله بها بين الحق والباطل، ومكَّن لدعوته الناشئة في الأرض، وإلى أن يشاء الله..

واليـــوم وقوى الضلال الصهيونية والاستعمارية الجديدة تتجمع مرة أخرى في محاولة شرسة للإطباق على الإسلام؛ عقيدة وشريعة وأمة وحضارة ودولاً.. يجب أن تكون لنا مطالعات جادة في سيرتنا الأولى؛ فإنه قد آن الأوان لكي نتعلم من التاريخ..

الفتح الأعظم

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل ذي عقل، وكان وفاؤهم لقريش أمرا مقررا فيما أحبوا وفيما كرهوا. ورأى الناس من ذلك الآيات البينات!!

لكن قريشا ظلَّت على جمودها القديم في إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيَّرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية، وتوشك أن تغيره في العالم كله.

وقد جرها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغوا، وذلك أنها مع حلفائها من بني بكر؛ هاجموا "خُزاعة"؛ وهي مع المسلمين في حلف واحد، وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالا، وانحازت "خُزاعة" إلى الحرم إذ لم تكن متأهبة لحرب، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم، وقريش تمدُّهم بالسلاح وتعينهم على البغي!

وأحس نفر من بني بكر أنهم دخلوا الحرم حيث لا يجوز قتال؛ فقالوا لرئيسهم نوفل ابن معاوية: إنا قد دخلنا الحرم! إلهك.. إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم يا بني بكر؛ أصيبوا ثأركم..!!

وفزعت "خُزاعة" لما حلَّ بها، فبعثت إلى رسول الله ﷺ "عمرو بن سالم" يقص

عليه نبأها. فلما قدم المدينة وقف على النبي ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس يقول:

يا ربِّ إني ناشدٌ محمدًا حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدَا

إنَّ قريشًا أخلفوكَ الموعدَا ونقضوا ميثاقَكَ المؤكَّدَا

هُم بيَّتونا بالوتير هُجَّدا وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّدَا

فقال رسول الله ﷺ: **"نُصِرتَ يا عمروَ بنَ سالم"**..

وأحست قريش -بعد فوات الأوان- خطأها؛ فخرج أبو سفيان إلى المدينة يُصلح ما أفسده قومه، ويحاول أن يعيد للعقد المهدَر حرمته!

وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة رضي الله عنها، وأراد أن يجلس على الفراش؛ فطوته دونه. فقال: يا بنية ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟

فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس![1] قال: والله لقد أصابك بعدي شر! ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئا.

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليُحدِّث النبي ﷺ في هذا الشأن فرفض، فتركه إلى عمر؛ فقال عمر: أنا أشفع لكم عند رسول الله؟! والله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتُكم به. فتركهما إلى عليٍّ؛ فردَّ عليه: والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما

[1] وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صِلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ست عشرة سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدَّر ويُحترَم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة، وهذا ما كان يتصف به الصحابة رضوان الله عليهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين. وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب -مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب- دليلٌ على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنوياته إلى النماء والحيوية.

نستطيع أن نكلمه فيه، ثم نصحه أن يعود من حيث جاء.. فقفل أبو سفيان إلى قومه يخبرهم بما لقي من صدود.

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين؛ فقد عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وتأديب كفارها. وبعد أن أخذ ﷺ بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع قائلا: **"اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة"**.

وهذا شأن النبي ﷺ في أموره؛ يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضـــرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

خرج رسول الله ﷺ قاصدًا مكة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وكان عدد الجيش عشرة آلاف فيهم المهاجرون والأنصار الذين لم يتخلف منهم أحد، فسار هو ومن معه إلى مكة يصوم ويصومون، فلما وصل الجيش الكديد (الماء الذي بين قديد وعسفان) أفطر رسول الله ﷺ وأفطر الناس معه، وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب عمه وقد خرج مهاجرًا بعياله، فسرَّ ﷺ. وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة –وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك– إشارة إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول ﷺ.

وسار الجيش يطوي الوهاد والنجاد مسرعا إلى مكة حتى بلغ "مرَّ الظهران" قريبا منها في العشاء، فنزل الجيش، ونُصبت الخيام، وأوقدت النيران في معسكر يضم عشرة آلاف حتى أضاء منها الوادي، وأهل مكة في عماية من أمرهم لا يدرون عن القضاء النازل بهم شيئا.. وعزَّ على العباس أن تُجتاح مكة في أعقاب قتال تتفانى فيه ولا يغنيها فتيلاً. فخرج

يبحث عن وسيلة تقنع قريشا بمسالمة النبي ﷺ وتُدخلها في أمانه.

وصادف ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة خرجوا يتعرفون الأخبار، ويتسمعون ما يقال، فلما اقتربوا من الوادي راعهم ما به. قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا..! فقال بديل بن ورقاء: هذه -والله- خزاعة حمشتها الحرب. فرد أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: مالك، فداك أبي وأمي؟! قال العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس؛ واصباح قريش والله! قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ؛ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله؟! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله! هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه.. قال: قلت: يا رسول الله؛ إني قد أجرته. فقال ﷺ: **"اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به"**.

فلما أصبح غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: **"ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟"**.. قال: بأبي أنت وأمي؛ ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد. قال: **"ويحك يا أبا سفيان،**

ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟".. قال: بأبي أنت وأمي؛ ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا..! فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن يُضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا. قال: "**نعم.. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**".

وإنما أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لعاطفة الفخر في نفسه، وقد أرضاه بما لا يضرُّ أحدًا ولا يكلف جهدًا، ولا عليه أن يتحبب إلى نفس بمثل هذا الثمن الميسور. وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه، وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملا على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئا في الإسلام؛ إن هو أخلص له وبذل في سبيله. كما أراد النبي ﷺ من ذلك يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء.

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: "**يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها**". قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، ومرت القبائل على راياها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس؛ من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس؛ من هؤلاء؟ فأقول: مُزينة، فيقول: ما لي ولمزينة.. حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد.. قال: سبحان الله يا عباس؛ من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء

قِبَل ولا طاقة! ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيمًا!! قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة.. قال: فنعم إذن. قال: قلت: النجاء إلى قومك.

"إنها النبوة"؛ تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الرد الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية، وهي كلمة جاءت عنوانًا لحياة رسول الله ﷺ من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقا على أنه بُعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض.

وقد تعمد النبي ﷺ شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة، حيث أمر رسول الله ﷺ بإيقاد النيران؛ فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق، فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب القرشيين من شدة هوله، وقد قصد النبي ﷺ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم حتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء، وبتطبيق هذا الأسلوب تم له ﷺ ما أراد، ولقد كان اهتمام النبي ﷺ بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقًا عسكريًّا؛ بدليل أن المدارس العسكرية التي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية.

لقد أُعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول؛ لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"..

ودخل أبو سفيان إلى مكة مسرعًا ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد

جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس -تشبهه بوعاء السمن لسمنه- قُبِّح من طليعة قوم. قال: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وأصبحت "أم القرى" وقد قيَّد الرعب حركاتها، واسترخت تجاه القدر المنساق إليها، فاختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة، أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون مصيرهم وهم واجمون..

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم، ورسول الله ﷺ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ حتى كاد عثنونه[1] يمس واسطة الرحل. إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن.. إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطاردا..؟ وكيف يعود اليوم منصورا مؤيدا..! وأي كرامة عظمى حفَّه الله بها في هذا الصباح الميمون..! وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعا وانحناء.

هذا وقد حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح؛ ولذلك عندما بلغته مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم نستحل الكعبة، قال ﷺ: **"هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة"**؛ وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلمها لابنه قيس بن سعد؛ وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنى عنها، وفي نفس الوقت لم يثره، ولا أثار الأنصاري؛ فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري

[1] عثنونه: طرف لحيته.

وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه.

ولما نزل رسول الله ﷺ بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: **﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾** [الإسراء:٨١]، **﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾** [سبأ:٤٩]، والأصنام تتساقط على وجوهها؛ وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذًا، ورأى في الكعبة الصور والتماثيل فأمر بالصور وبالتماثيل فكسرت، وأبى أن يدخل جوف الكعبة حتى أخرجت الصور، وكان فيها صورة يزعمون أنها صورة إبراهيم وإسماعيل وفي يديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ: **"قاتلهم الله؛ لقد علموا ما استقسما بها قط"**.

ثم دخل البيت وكبَّر في نواحيه ثم صلى، فقد روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقها عليه ثم مكث فيها، قال ابن عمر: فسألت بلالا حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره وعمودًا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه –وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة– ثم صلى.

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة قبل أن يسلم، فأراد علي رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السقاية، لكن النبي ﷺ دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ورده إليه قائلا: **"اليوم يوم بر ووفاء"**.

وكان ﷺ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: **"يا عثمان، لعلك ترى هذا المفتاح يومًا بيدي، أضعه حيث شئت"**. فقال: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت! فقال: **"بل عمرت وعزت يومئذ"**. ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعًا، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال. ولقد أعطى له رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة قائلا له: **"هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم**

يوم بر ووفاء، خذوها خالدة تالدة لا يترعها منكم إلا ظالم".

وهكذا لم يشأ النبي ﷺ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم؛ وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق..

هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ: البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا.

وقد أمر النبي ﷺ بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة فيؤذن للصلاة، فصعد بلال وأذن للصلاة، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين؛ فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين.

الله أكبر، الله أكبر.. ذلك الصوت الذي كان يهمس يومًا ما تحت أسواط العذاب: أحَد.. أحَد.. ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، والكل خاشع منصت خاضع.

وقد نال أهل مكة عفوًا عامًّا رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم، فقال: **"ما تظنون أني فاعل بكم؟"** فقالوا: خيرًا.. أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ. فقال: **﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾** [يوسف:٩٢].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة؛ لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النُّسُك، ومتعبد الخلق، وحرَم الرب تعالى.

وقد كان من أثر عفو النبي ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم، أن دخل أهل مكة -رجالاً ونساء وأحرارًا وموالي- في دين الله طواعية واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجا، وتمت النعمة، ووجب الشكر، وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعا: الرجال والنساء، والكبار والصغار، وبدء بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء من غير مصافحة، على ألا يشركن بالله شيئا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف.

وبٌ ٌفـزخ خٍزبئج كثيرة منها:

- ❖ دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف، ومن ثم إلى العالم أجمع.
- ❖ أصبح المسلمون قوى عظمى في جزيرة العرب. وبعد فتح مكة، تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها، وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه.
- ❖ كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر في هذا الفتح المبارك، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت في رفقه ﷺ بالناس وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يعلمهم، ويفقههم في دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكة بعد انصرافه عنها ليصلي بالناس، ويفقههم في دينهم، وأما الآثار السياسية فقد عين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة، يحكم في الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم

من الظالم، وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة وخضوعها لسلطان الإسلام، قد أقنع العرب جميعًا بأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجا.

- ❖ تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين بعد ما ضحوا بالغالي والنفيس، وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله وتعاملوا مع سننه كسنة الابتلاء، والتدافع، والتدرج، وتغير النفوس، والأخذ بالأسباب.

فلا نصر بدون إسلام صحيح، ولا إسلام بدون عبودية لله، ولا عبودية بدون بذل وتضحية وضراعة على بابه وجهاد في سبيله.

وفي يوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين، ولم يسمعوا صوت بلال يرنّ فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد، ولم يرَوا الأصنام مكبوبة على وجوهها مسوَّاة بالرغام، ولم يروا عبّادها الأقدمين وقد ألقوا السلم واتجهوا إلى الإسلام..

إنهم قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة التي نشبت بين الإيمان والكفر. ولكن النصر الذي يجني الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير، وجزاؤهم عليه مكفول عند من لا يظلم مثقال ذرة.

إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل، فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى منه، وقد يصرع في هزيمة عارضة كما وقع لسيد الشهداء "حمزة" ومن معه.

والقرآن الكريم ينبه أصحاب الحق إلى أن المعول في الحساب الكامل على الدار الآخرة، لا على الدار الدنيا، فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعا.. ﴿**فاصبرْ إنَّ وعْدَ الله حقٌ فإما نرينَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهمْ أوْ نتوَفينَّكَ فإلينا يرجعونَ**﴾ [غافر:٧٧] [1]

معركة راد أصاس

[1] السيرة النبوية للصلابي – فقه السيرة للغزالي.

كان للدولة البيزنطية في العصور الوسطى السيطرة والسيادة على البحر الأبيض المتوسط بلا منافس، وكان لبيزنطة أسطول دائم ومهيب، وعدة قواعد بحرية، ودور لصناعة السفن في القسطنطينية وعكا والإسكندرية وقرطاجة، وسرقوسة بصقلية ورافنا بإيطاليا وغيرها، فقد بلغت عنايتها بالسلاح البحري أقصاها منذ عهد "جُستنيان" في منتصف القرن السادس الميلادي، وعهد هرقل قبل منتصف القرن السابع ومن جاء بعده من الأباطرة.

وإلى جانب الأسطول البحري، كان لبيزنطة عدد من السفن التجارية تستخدم في عمليات نقل الجند والإمدادات، وكان تتحكم في منافذ البحر الأبيض: القسطنطينية ومصر وسبتة، مما استحال معه دخول أية تجارة خارجية إلى هذا البحر دون موافقتها، وشملت تجارقما العالم كله آنذاك.

ولم يكن للمسلمين عهد بركوب البحر أو الحرب في أساطيله، لكنهم وجدوا خلال فتوح الشام؛ أن الأسطول البيزنطي مصدر تهديد خطير ومباشر لأمنهم وأمن المناطق المفتوحة واستقرار الإسلام فيها..

فأدركوا أن بناء أسطول إسلامي ضرورة استراتيجية حيوية، فكان نواة هذا الأسطول من السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر، ثم انطلقوا إلى صناعة السفن في دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحري في الاستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين، وبدأ هذا السلاح الناشئ بسرعة مذهلة في ممارسة العمليات البحرية.

وكان من الطبيعي ألا تقف بيزنطة مكتوفة الأيدي أمام تلك القوة البحرية التي قامت في البحر الأبيض المتوسط، وأصبح تحت يدها أغلى ما كانت تملك من دور للصناعة وقواعد بحرية في عكا والإسكندرية، مما يشكل تهديدا خطيرا لسيادتها التي امتدت زمنا بلا منافس.

واتخذت العمليات البحرية للأسطول الإسلامي شكلين: الأول: عمليات تستهدف غزو جزر البحر الأبيض ذات الأهمية الاستراتيجية في تأمين الشام ومصر. والثاني: عمليات القتال البحري ضد أسطول بيزنطة مثل معركة ذات الصواري.

أما أسباب المعركة فيلخصها الدكتور عبد المنعم ماجد: "ويظهر أن النشاط المتزايد من قِبَل العرب أخاف بيزنطة بحيث إن الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤٢-٦٦٨م) جمع عددا من المراكب لم يجمعها من قبل تزيد على ألف مركب، وسار بها بقصد ملاقاة أسطول العرب، أو بقصد احتلال الإسكندرية العظمى كبرى موانئ البحر الأبيض، فخرجت إليه أساطيل العرب في أعداد كبيرة بقيادة عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وقال عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور: وفي سنة (٣٤هـ-٦٥٤م) خرج الإمبراطور قنسطانز الثاني على رأس حملة بحرية كبرى في محاولة للاستيلاء على الإسكندرية واسترداد مصر من العرب.

ويرى المؤرخ البيزنطي تيوفانس أن من أسباب المعركة إجهاض تدابير المسلمين لغزو القسطنطينية عاصمة بيزنطة: "في هذه السنة جهز معاوية الجيش وزوده بأسطول ضخم قاصدا محاصرة القسطنطينية".

حرمان المسلمين من الحصول على الأخشاب اللازمة لصناعة السفن. هذا السبب ذكره أرشيبالد لويس كسبب محتمل لمعركة ذات الصواري، حيث قال: "ومما يلفت النظر أن المكان الذي دارت فيه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدحم بغابات السرو الكثيفة، وهو الشجر المستخدم في صواري السفن، ولعل البيزنطيين قرروا القيام بتلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن هناك، وبين وقوعه في قبضة العرب، وإذا صح هذا الزعم فإنه يقوم دليلاً على أهمية الخشب في الصراع البحري بين العرب وبيزنطة".

والواقع أن هذه الأسباب مقبولة؛ لأنها جميعا تعبر عن الدوافع المنطقية التي لا بد وأن تنشأ في عقول البيزنطيين الذين رأوا أغلى ممتلكاتهم تسقط في أيدي المسلمين في الشام ومصر وإفريقية، وأدركوا خطر الأسطول الإسلامي الناشئ الذي يهدد سيادتهم البحرية في البحر المتوسط الذي أطلق على بحر الروم دليلاً على تلك السيادة.

أدذاس المعركة:

وأيا كانت الأسباب؛ فقد التقى الأسطول الإسلامي بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر، وكان يتألف من مائتي سفينة، بالأسطول البيزنطي بقيادة الإمبراطور قسطنطين الثاني خارج ساحل ليكيا في آسيا الصغرى، ويمكن وصف أحداث المعركة باختصار على النحو التالي:

- ❖ نزلت نصف قوة المسلمين إلى البر بقيادة بُسر بن أبي أرطأة للقيام بواجبات الاستطلاع وقتال البيزنطيين المرابطين على البر، وذلك تطبيقا لواجبات أمير البحر عندما تكون المعركة البحرية قرب البر والسواحل والجزائر، فعليه ألاَّ يهجم على المراسي لئلا تكون مراكب العدو بها كامنة، ولا يتقدم إلى البر إلا بعد المعرفة والاحتراز من الأحجار والأعشاب التي تنكسر عليها المراكب، وإن كان القتال قرب البر والسواحل والجزائر فيجعل عيونه وطلائعه على الجبال فيتأهب لذلك..
- ❖ بدأ القتال بين الأسطولين – عندما أصبحت المسافة بينهما في مرمى السهام – بالتراشق بالسهام. وبعد أن نفدت السهام جرى التراشق بالحجارة، ومن أجل ذلك كانوا يجعلون في أعلى الصواري صناديق مفتوحة من أعلاها يسمونها التوابيت يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها للكشف ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق يرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق.

❖ وبعد أن نفدت الحجارة ربط المسلمون سفنهم بسفن البيزنطيين وبدأ القتال المتلاحم بالسيوف والخناجر فوق سفن الطرفين. وانتهت المعركة بعد قتال شديد بانتصار المسلمين.

فالبيزنطيون اختاروا الميدان الذي يجيدون القتال فيه وهو البحر، والذي يعلمون تماما أنه هو الميدان الذي سوف ينتصرون فيه على المسلمين لضعف خبرتهم فيه. لكن المسلمين رغم ذلك؛ كانوا يعلمون أن كفاءتهم في القتال على البر تفوق البيزنطيين، فأداروا المعركة البحرية على النحو الذي حولها إلى معركة برية؛ وذلك بربط سفنهم إلى سفن البيزنطيين ومباشرة القتال المتلاحم بالأسلحة البيضاء، واستغلوا مهارتهم في هذا الفن إلى الحدّ الذي جعل الإمبراطور وهو يتابع المعركة يوقن بانتصار المسلمين حين علم بذلك.

وفي رواية المؤرخ البيزنطي تيوفانس تتضح هزيمة البيزنطيين وفداحة خسائرهم، وكيف فرّ الإمبراطور ناجيا بنفسه: "ضم صفوف الروم إلى المعركة، وأخذ يتحرّش بالعدو، فنشبت المعركة بين الطرفين، وهُزم الروم واصطبغ البحر بدمائهم، فغيّر الإمبراطور ملابسه مع أحد جنوده، وقفز أحد الجنود على مركبه واختطفه وذهب به هنا وهناك ونجا بمعجزة."

ويقول أرشيبالد لويس: "ويبدو أن انتصارهم –أي المسلمين– جاء نتيجة لخطط غير عادية، إذ ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم، واستخدموا في تلك المعركة خطاطيف طويلة يصيبون بها صواري وشُرُع سفن الأعداء؛ الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للبيزنطيين."

الآثار الاستراتيجية لمعركة ذات الصواري:

أولاً: تأكيد النظرية الإسلامية في النصر على العدو المتفوق:

لقد كانت المقارنة المجردة بين قوة الأسطول الإسلامي وقوة الأسطول البيزنطي تكشف التفوّق الساحق للبيزنطيين، وتدفع أي خبير في فن الحرب إلى أن يتوقع أن ينهزم

المسلمون في تلك المعركة غير المتكافئة بالنظر إلى العوامل الآتية:

١- الأسطول الإسلامي أسطول ناشئ لا يزيد عمره على بضعة سنوات، ورجاله حديثو عهد بركوب البحر فضلاً عن القتال فيه، ولا يتعدى عدد سفنه المائتين إلا قليلاً.

٢- والأسطول البيزنطي أسطول عريق مهيب له السيادة على البحر، وله تاريخ طويل في العمليات البحرية، ورجاله على أعلى درجة من الكفاءة فيها، وعدد سفنه يزيد على ثلاثة أضعاف عدد سفن المسلمين.

لكن المسلمين حين قبلوا التحدي، وقاتلوا أسطول بيزنطة المتفوق، وانتصروا عليه، يقدمون للمسلمين في كل عصر التأكيد على أن النظرية الإسلامية في مواجهة العدو المتفوق وقهره – التي وضع عناصرها وطبقها الرسول القائد ﷺ في معاركه مع أعدائه المتفوقين – كفيلة بترجيح كفتهم على أعدائهم المتفوقين في موازين القوى.

ثانيا: انتهاء عصر السيادة البيزنطية في البحر المتوسط:

إذا كانت موقعة أكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد جعلت من البحر الأبيض بحيرة رومانية وأصبحت من المعارك الفاصلة في التاريخ؛ فإن معركة ذات الصواري البحرية قد دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، حين سجلت انتصار الأسطول الإسلامي الناشئ على أسطول بيزنطة ذي التاريخ البحري الطويل.

وليس هذا فحسب، بل كان من أهم نتائجها الاستراتيجية انتهاء عصر السيادة البيزنطية في البحر الأبيض المتوسط، وبروز المسلمين قوة مؤثرة ذات ثقل عسكري وسياسي واقتصادي في عالم هذا البحر. (١)

(١) أمجاد الأسطول الإسلامي في معركة ذات الصواري: بحث للواء الركن محمد جمال الدين محفوظ – مجلة الأمة العدد (٧١) بتصرف

معركة القادسية

نزل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه القادسية، وأقام بها شهرا لم يأته من الفرس أحد. وبث سعد رضي الله عنه الغارات والنهب بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما استكفوا به زمانا، وكان مقام سعد بالقادسية شهرين وشيئا حتى ظفر.

وكانت وقعة القادسية وقعة عظيمة لم يكن بالعراق أعجب منها؛ وذلك أنه لما تواجه الصفان كان سعد رضي الله عنه قد أصابه عرق النسا ودمامل في جسده؛ فلا يستطيع الركوب، وإنما هو في قصر متكئ على صدره فوق وسادة وهو ينظر إلى الجيش، ويدبر أمره..

وكان المسلمون ما بين السبعة آلاف إلى الثمانية آلاف، وكان رستم في ستين ألفا.. فصلى سعد بالناس الظهر، ثم خطب الناس فوعظهم وحثهم، وتلا قوله تعالى: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**)، وقرأ القُرَّاء آيات الجهاد، ثم كبَّر سعد أربعا، ثم حملوا بعد الرابعة فاقتتلوا حتى كان الليل فتحاجزوا..

وقد قتل من الفرقين بشر كثير، ثم أصبحوا إلى مواقفهم فاقتتلوا يومهم ذلك وعامة ليلتهم، ثم أصبحوا كما أمسوا على مواقفهم فاقتتلوا حتى أمسوا، ثم اقتتلوا في اليوم الثالث كذلك، وأمست هذه الليلة تسمى ليلة الهرير.. فلما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالا شديدا وقد قاسوا من الفيلة بالنسبة إلى الخيول العربية بسبب نفرتها منها أمرا بليغا، وقد أباد الصحابة الفيلة ومَن عليها، وقلعوا عيونها، وأبلى جماعة من الشجعان في هذه الأيام مثل طليحة الأسدي وعمرو بن معديكرب والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله البجلي وضرار بن الخطاب وخالد بن عرفطة وأضرابهم، فلما كان وقت الزوال من هذا اليوم، ويسمى يوم القادسية، وكان يوم الاثنين من المحرم سنة ١٤هـ كما قاله سيف بن عمر التميمي؛ هبت ريح شديدة فرفعت خيام الفرس عن أماكنها، وألقت سرير رستم الذي

هو منصوب له؛ فبادر فركب بغلته وهرب؛ فأدركه المسلمون فقتلوه، وقتلوا جالينوس مقدمة الطلائع القادسية، وانهزمت الفرس ولله الحمد والمنة عن بكرة أبيهم، ثم ساروا خلفهم فكلما تواجه الفريقان نصر الله حزب الرحمن وخذل حزب الشيطان وعبدة النيران، واحتاز المسلمون من الأموال ما يعجز عن حصره ميزان..

وساق المسلمون خلفهم المنهزمين حتى دخلوا وراءهم مدينة المُلك وهى المدائن التي فيها إيوان كسرى.. وقد غنم المسلمون من وقعة القادسية هذه من الأموال والسلاح ما لا يُحد ولا يوصف كثرة، وبُعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكان عمر يستخبر عن أمر القادسية كل من لقيه من الركبان، ويخرج من المدينة إلى ناحية العراق يستنشق الخبر؛ فبينما هو ذات يوم من الأيام إذا هو براكب يلوح من بعد فاستقبله عمر فاستخبره؛ فقال له: فتح الله على المسلمين بالقادسية، وغنموا غنائم كثيرة وجعل يحدثه وهو لا يعرف عمر؛ وعمر ماشٍ تحت راحلته، فلما اقتربا من المدينة جعل الناس يحيون عمر بالإمارة، فعرف الرجل عمر، فقال: يرحمك الله يا أمير المؤمنين! هلا أعلمتني أنك الخليفة! فقال: لا حرج عليك يا أخي..

مطبد ِ المعروخ:

❖ لما جاءت أخبار الفرس إلى سعد رضي الله عنه، كتب إلى عمر رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: "لا يكربنك ما يأتيك عنهم، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعلٌ دعاءهم توهينا لهم".

فأرسل سعد نفرا، منهم: النعمان بن مقرن، وبسر بن أبي رهم، وحملة بن حوية، وحنظلة بن الربيع، وفرات بن حيان، وعدي بن سهيل، وعطارد بن حاجب، والمغيرة بن زرارة بن النباش الأسدي، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معديكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعنى بن حارثة إلى "يزدجرد"

دعاة، فخرجوا من العسكر فقدموا على "يزدجرد"، واستأذنوا فحُبسوا، وأحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقول لهم.

واجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلها صهال[1]، وعليهم البرود وبأيديهم السياط، فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له: سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فقال النعمان بن مقرن لأصحابه: إن شئتم تكلمت عنكم، ومن شاء آثرته. فقالوا: بل تكلم. فقال: "إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فِرقة وتباعد عنه بها فرقة، ثم أُمر أن ينبذ إلى مَن خالفه من العرب، فبدأ بهم، فدخلوا معه على وجهين: مكره عليه فاغتبط، وطائع فازداد، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمرٌ من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم".

فتكلم يزدجرد فقال: "إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بينٍ منكم، قد كنا نُوكِل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم لا تغزوكم فارس، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس، فإن كان غرر لحقكم فلا يغرنكم منا، وإن كان لجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم".

[1] صهيل وصُهال: صوت الفرس، وصهَل الفرس يصهِل صهيلا، فهو فرس صهَّال.

فأُسكت القوم، فقام المغيرة بن زرارة فقال: "أيها الملك إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف، وليس كل ما أرسلوا به قالوه، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، فجاوبني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون على ذلك لي؛ فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد، ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال الله النبي ﷺ إليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية، ثم قال له: اختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك".. فقال: "لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم! لا شيء لكم عندي".. ثم استدعى بوقر من تراب فقال: احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور..!!

فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب وقال: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء، فحمله على عنقه وخرج إلى راحلته فركبها وأخذ التراب، وقال لسعد رضي الله عنه: أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد مُلكهم[1].

واشتد ذلك على جلساء الملك. وقال الملك لرستم، وقد حضر عنده من ساباط: ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء، ما أنتم بأحسن جوابا منهم، ولقد صدقني القوم، لقد وعدوا أمرًا ليُدركُنَّه أو ليموتُنَّ عليه، على أني وجدتُ أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه!! فقال رستم: أيها الملك إنه أعقلهم! وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا، وبعث في أثر الوفد وقال لثقته: "إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا، وإن أعجزه سلبكم الله أرضكم"! فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم، فقال:

[1] الإقليد: المفتاح، لغة يمانية، وقيل: مُعَرَّب وأصله بالرومية إقْلِيدِس، والجمع: أَقَاليد، والمَقاليد الخزائن.

ذهب القوم بأرضكم من غير شك..! وكان منجما كاهنا.

❖ أرسل سعدٌ رضي الله عنه عمرو بن معديكرب وطليحة الأسدي طليعة، فسارا في عشرة، فلم يسيروا إلا فرسخا حتى رأوا مسالح الفرس وسرحهم، فرجع عمرو ومن معه، وأبى طليحة إلا التقدم، فرجعوا إلى سعد فأخبروه بقرب القوم. ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه، فهتك أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه، ثم هتك على آخر بيته وحل فرسه، ثم فعل بآخر كذلك، ثم خرج يعدو به فرسه، ونذر به الناس فركبوا في طلبه، فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحة ثم آخر فقتله ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبيه، وهما ابنا عمه، فازداد حنقا، فلحق طليحة فكر عليه طليحة وأسره ولحقه الناس، فرأوا فارسي الجند قد قتلا وأسر الثالث وقد شارف طليحة عسكره، فأحجموا عنه، ودخل طليحة على سعد ومعه الفارسي وأخبره الخبر، فسأل الترجمان الفارسي، فطلب الأمان، فآمنه سعد، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قِبَلي، باشرت الحروب منذ أنا غلام إلى الآن، وسمعت بالأبطال و لم أسمع بمثل هذا! إن رجلاً قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت، فلما أدركناه قتل الأول وهو يُعد بألف فارس، ثم الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركته أنا ولا أظن أنني خلفت من بعدي من يعدلني؛ وأنا الثائر بالقتيلين فرأيت الموت واستؤسرت. ثم أخبره عن الفرس وأسلم ولزم طليحة، وكان من أهل البلاء بالقادسية، وسماه سعد مسلما.

وقد كان من الحيل الرائعة التي قام بها سعد بن أبي وقاص إرساله المجموعات الاستكشافية من جنوده، وبعثه السرايا لتأتيه بالأخبار، وتزوده بالطعام، حتى عُرفت أيام قبل القادسية بأسماء ما كان فيها من طعام، كيوم "الأباقر" ويوم "الحيتان"،

وكان في هذا استتراف للقوات الفارسية.

❖ كان "رستم" هو قائد الفرس في هذه المعركة بأمر من ملكهم "يزدجرد"، وقد حاول "رستم" التنصل من هذه المهمة، غير أنه اضطر للقيام بها تحت إلحاح ملكهم "يزدجرد"، وكانت معنويات الفرس منحطة تماماً، نظرًا للانتصارات الباهرة التي سجلها المسلمون في معاركهم السابقة، ولما اقترب الجيشان بدأت المراسلة ، فطلب رستم من سعد رضي الله عنه أن يبعث إليه رجلاً من رجاله، فاختار له سعد أسدًا من أسوده، وهو ربعي بن عامر رضي الله عنه ، وقبل قدوم "ربعي" لجأ رستم إلى طريقة الإغراء، فزين له مجالسه بالنمارق، وأظهر اللآلئ والياقوت والأحجار الكريمة، بيد أنهم فوجئوا برجل قصير القامة، عليه ثياب صفيقة، وأسلحة متواضعة، وفرس صغير، ولم يزل ربعي رضي الله عنه راكباً فرسه حتى داست على الديباج والحرير، ثم نزل عنها وربطها في قطع من الحرير مزقها! وأقبل على رستم، فقالوا له: ضع سلاحك.. فقال: إني لم آتيكم، وإنما دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.. فقال رستم: ائذنوا له.. فأقبل رضي الله عنه يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق أكثرها، فقال له رستم : ما الذي جاء بكم؟ فقال، -ويا نِعْمَ ما قال- : "إن الله ابتعثنا لنُخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومِن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومِن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمَن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله".. فقال رستم: وما موعود الله؟ قال: "الجنة لمن مات على قتال مَن أبى والظفر لمن بقي"، قال رستم: قد سمعت مقالتك، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: "نعم كم أَحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين"؟ قال: لا بل حتى

نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.. فقال: "ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل".. قال رستم: أسيدهم أنت؟ قال: "لا، ولكنَّ المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم".. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب! أما ترى من ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يَستخِفُّون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

هذا موقف "ربعي بن عامر" مع "رستم"، فهل رأيت قوة بيان، وسرعة بديهة، ووضوح حجة، ورباطة جأش، وثبات موقف كهذا؟ إنه حدد غاية المسلم، وهي "إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد".. ما أوسع هذه الكلمة وما أبلغها! يتكلم الأعرابي المسلم أمام رجل قد استعبد الناس، وأمام أمة قد استعبدت الأمم، وأمام طبقة أرستقراطية قد استعبدت الطبقات كلها؛ فلا أبلغ من قوله هذا..

وإن كل هذه الإغرءات من الحرير والذهب والنمارق والأرائك لم تهز شعرة منه، ولم تستطع أن تشغله عمَّا أعده الله له في موعوده، حيث له فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

❖ قد تقدم أن سعدا رضي الله عنه كان به قروح وعرق النسا؛ فمنعه من شهود القتال، لكنه جالس في رأس القصر ينظر في مصالح الجيش، وكان مع ذلك لا يغلق عليه باب القصر لشجاعته، ولو فر الناس لأخذته الفرس قبضا باليد لا يمتنع منهم! وعنده امرأته سلمى بنت حفص التي كانت قبله عند المثنى بن حارثة، فلما فر بعض الخيل يومئذ فزعت، وقالت: وامثنياه؛ ولا مثنى لي اليوم!

فغضب سعد من ذلك ولطم وجهها، فقالت: أغيرة وجبنا؟! يعنى أنها تعــيره بجلوسه في القصر يوم الحرب!

وأيم الله إن سعدًا رضي الله عنه لم يكن ليجبن أو ليتــرك المعركـــة؛ وهـــو أول رامٍ في الإسلام، وأول من أسال دمـــًا في الإسلام. ولكن ألا ترى إلى غيرة المرأة على دين الله، وكيف تستحث زوجها ليخوض غمار المعركة؛ وهي تعلم يقينا أنه معذور؟!

ولم تكن سلمى رضي الله عنها وحدها، بل كان نساء عصرها كلهنَّ كذلك. [1]

معركة الزلاقة

سقطت طليطلة التي كان يحكمها بنو ذي النون في يد "ألفونســـو" ملـــك قشـــتالة النصراني عام ٤٧٨هـــ بمعاونة المعتمد بن عباد صاحب إشـــبيلية، بعـــد أن حكمهـــــا المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاما!

وأحدث سقوطها دويا عنيفا، واشتدت وطأة النصارى على المســـلمين وتوحـــدت جهود ألفونسو السادس ملك قشتالة الذي كان يحكم جليقية وجزءا من البرتغـــال، مـــع سانشو الأول ملك أراجون ونافارا، والكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة وأورجـــل، وساروا بجيش مشترك وحاصروا مدنا وقلاعا، واحتلوا قرى وأحرقوا أراضـــي كـــثيرة، وانتبه ابن عباد لخطئه بمعاونة النصارى؛ فاجتمع مع أمراء الأندلس الآخرين في إشبيلية ثم في قرطبة، واتفقوا على أن يرسلوا سفيرا إلى "يوسف بن تاشفين" سلطان دولة المـــرابطين في المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا يلتمسون عونه وغوثه.

وجاءت وفود شعبية كثيرة لمدينة مراكش لنفس الغرض، فاستشار ابن تاشفين مجلسه الاستشاري فوافقوا شرط أن يعطيه الأندلسيون الجزيرة الخضراء يجعل فيها أثقاله وأجناده،

[1] البداية والنهاية – الكامل في التاريخ – أحداث خالدة في معركة القادسية: مقالة لأكرم كساب / موقع الشبكة الإسلامية

وتكون حصنا له، وليكون بها على اتصال بإفريقية.

ومع شدة ضغط ألفونسو على المسلمين في الأندلس دفع الأمراء الجزية له، أو سلموا حصوناً له، وسلم ابن عباد الجزيرة الخضراء للمرابطين، وقال لابنـــه: "أي بـــني؛ والله لا يُسمع عني أبدا أنني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم عليَّ اللعنـــة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري". وقال لبعض حاشيته لما خوفوه من ابن تاشفين: "تالله إنني لأوثر أن أرعى الجِمال لسلطان مراكش على أن أغدو تابعا لملك النصارى، وأن أؤدي له الجزية.. إن رعي الجمال خير من رعي الخنازير"..!

وقبل ابن تاشفين الدعوة، ولما أنهى استعداداته أمر بعبور الجمال، وفي ربيع الأول من عام ٤٧٩هـــ سار ابن تاشفين بجيشه من سبتة، وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى هاج البحر فصعد إلى مقدمة السفينة، ورفع يديه نحو السماء، ودعا الله مخلصا: "اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهِّل عليَّ جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه".. فهدأ البحر، وجازت السفن سراعا، ولما وصـــلت إلى شاطئ الأندلس سجد لله شكرا.

وتسلم ابن تاشفين الجزيرة الخضراء، وأمر بتحصينها أتم تحصين، ورتب بها حاميـــة مختارة لتسهر عليها، وشحنها بالأقوات والذخائر لتكون ملاذا أمينا يلتجئ إليه إذا هُزم.

ثم غادرها جيشه إلى إشبيلية، وتعهد كل أمير من أمراء الأندلس أن يجمع كل ما في وسعه من الجند والمؤن، وأن يسير إلى مكان محدد في وقت معين، ولبث ابن تاشـــفين في إشبيلية ثمانية أيام حتى يرتب القوات وتتكامل الأعداد، وكان صائم النهار قـــائم الليـــل، مكثرا من أعمال البر والصدقات، ثم غادر إشبيلية إلى بطليوس، في مقدمة الجيش الفرسان يقودهم أبو سليمان داود ابن عائشة، وعددهم عشرة آلاف، ثم قوات الأندلس علـــيهم المعتمد بن عباد، ثم سار بعدهم بيوم واحد جيش المرابطين، ولما وصلوا إلى بطليوس أقـــام هناك ثلاثة أيام.

ولما سمع ألفونسو بمقدم المرابطين وكان محاصرا سرقسطة تحالف مع ملك أراجـــون، والكونت ريموند؛ فانضما إليه، وانضم إليه كذلك فرسان من فرنسا، وجاءته الإمدادات من كل صوب من ملوك أوروبا، وعمل الباباوات دورا كبيرا في توجيه النصارى وحثهم على القتال.

وكان جيش المسلمين ثمانية وأربعين ألفا نصفهم من الأندلســيين ونصــفهم مــن المرابطين، أما جيش ألفونسو فقد كان مائة ألف من المشاة وثمانين ألفا من الفرسان، منهم أربعون ألفا من ذوي العدد الثقيلة، والباقون من ذوي العدد الخفيفة. وحــين نظــر إلى الجيش قال: **بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء!**

وعسكر الجيشان قرب بطليوس في سهل تتخلله الأحراش، سماه العرب الزلاقــة، وفرق بين الجيشين نهر صغير، وضرب ابن تاشفين معسكره وراء ربوة عالية، منفصلاً عن مكان الأندلسيين، وعسكر الأندلسيون أمام النصارى، ولبث الجيشان أمام بعضهما ثلاثة أيام راسل فيها ابن تاشفين النصارى يدعوهم للإسلام أو الجزية أو القتال فاختاروا الثالثة.

وتكاتب القائدان، ومما كتبه ألفونسو: "إن غدا يوم الجمعة وهــو يــوم المســلمين، ولست أراه يصلح للقتال، ويوم الأحد يوم النصارى، وعلى ذلك فإني أقترح اللقاء يــوم الاثنين، ففيه يستطيع كل منا أن يجاهد بكل قواه لإحراز النصر دون الإخــلال بيــوم".. فقبل ابن تاشفين الاقتراح، ومع هذا تحوط المسلمون وارتابوا من نيات ملــك قشــتالة، فبعث ابن عباد عيونه لترقب تحركات معسكر النصارى، فوجدوهم يتــأهبون للقتــال، فارتدوا مسرعين لابن عباد بالخبر، فأرسل الخبر إلى ابن تاشفين يعرفه غــدر ألفونســو؛ فاستعد، وأرسل كتيبة لتشاغل ألفونسو وجيشه.

وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات، خائفين من كيد العدو. وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي، وكان في محلة

ابن عباد، فرحا مسرورا، يقول: إنه رأى النبيَّ ﷺ، فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد، وتأهب ودعا، ودهن رأسه وتطيَّب.

خطط المرابطون تخطيطا جيدا؛ إذ اتخذوا الجزيرة الخضراء خطا للرجعة، وقد احتفظوا بقوة احتياطية تحتوي أشجع الجنود للانقضاض في الوقت المناسب على الأعداء، وقاتل جيشهم بنظام متماسك أربك النصارى؛ وهو نظام الصفوف المتراصة المتناسقة الثابتة؛ وكان النصارى معتادين على القتال الفردي.

تهيأ الطرفان للمعركة، وسير ألفونسو القسم الأول من جيشه بقيادة جارسيان وروردريك لينقض بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين الذي يقوده المعتمد، آملاً في بث الرعب في صفوف المسلمين، ولكنهم وجدوا أمامهم جيشا من المرابطين قوامه عشرة آلاف فارس بقيادة داود ابن عائشة أشجع قادة ابن تاشفين، و لم يستطع ابن عائشة الصمود لكثرة النصارى وعنف الهجوم، لكنه استطاع تحطيم عنف الهجمة، وخسر كثيرا من رجاله في صد هذا الهجوم.

ولما رأى الأندلسيون كثرة النصارى هرب بعض أمرائهم؛ بيد أن فرسان إشبيلية بقيادة أميرهم الشجاع المعتمد بن عباد استطاعوا الصمود وقاتلوا قتال الأسود الضواري، يؤازرهم ابن عائشة وفرسانه.

وأيقن ألفونسو بالنصر عندما رأى مقاومة المعتمد تضعف، وفي هذه اللحظة الحرجة وثب الجيش المرابطي المظفر إلى الميدان، وقد كان مختبئًا خلف ربوة عالية لا يُرى، وأرسل ابن تاشفين عدة فرق لغوث المعتمد، وبادر بالزحف في حرسه الضخم، واستطاع أن يباغت معسكر ألفونسو الذي كان يطارد ابن عباد حتى بعد قدوم النجدات التي أرسلها ابن تاشفين.

وفي تلك اللحظة يرى ألفونسو جموعا فارة من النصارى، وعلم أن ابن تاشفين قد احتوى المعسكر النصراني، وفتك بمعظم حرسه، وغنم كل ما فيه، وأحرق الخيام، فتعالت

النار في محالهم.. وما كاد ألفونسو يقف على هذا النبأ حتى ترك مطاردة الأندلسيين، وارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك، وليسترد معسكره، وقاتلوا الجيش المرابطي بجلد، وكان ابن تاشفين يحرض المؤمنين على الجهاد، وكان بنفسه يقاتل في مقدمة الصفوف يخوض المعركة في ذروة لظاها، وقد قتلت تحته أفراس ثلاث، وقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة ويتمنى الموت.

ودام القتال بضع ساعات، وسقطت ألوف مؤلفة وقد حصدتهم سيوف المرابطين، ولاحظ ابن عباد وابن عائشة عند ارتدادهما في اتجاه بطليوس أن ألفونسو قد كف عن المطاردة فجأة، وسرعان ما علما أن النصر قد مال إلى جانب ابن تاشفين، فجمعا قواتهما وهرولا إلى الميدان مرة أخرى، وأصبح ألفونسو وجيشه بين مطرقة ابن عباد وسندان ابن تاشفين.

وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف ابن تاشفين بحرسه وقوامه أربعة آلاف إلى قلب المعركة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ألفونسو وأن يطعنه بخنجر في فخذه طعنة نافذة، وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب، وأدرك ألفونسو وقادته أنهم يواجهون الموت، ولما جن الليل بادر ألفونسو في قلة من صحبه إلى التراجع والاعتصام بتل قريب، ولما حل الليل انحدر ومن معه تحت جنح الظلام إلى مدينة قورية.

وتُجمِع المصادر الإسبانية على أن الملك القشتالي ألفونسو السادس قد نجا بأعجوبة في حوالي خمسمائة فارس فحسب من مجموع جيوشه الجرارة التي كان سيهزم بها الجن والإنس والملائكة..!

سَرَتْ أنباء النصر المبين إلى جميع أنحاء الأندلس والمغرب، وسرى البشرُ بين الناس، وأصبح هذا اليوم مشهودا من أيام الإسلام، لا على أرض شبه الجزيرة فحسب، وإنما على امتداد الأرض الإسلامية كلها، ونجح ذلك اليوم في أن يمدّ في عمر الإسلام والمسلمين على الأرض الإسبانية

ما يقرب من أربعة قرون من الزمان.[1]

ذّخُمصش أىشِي

بلغ الصليبيون قمة قوتهم عندما كانت البرتغال وإسبانيا أقوى إمبراطورية في العالم، وفي سنة ٩٨١ هـ تولى ملك المغرب محمد المتوكل، وبقي على العرش حوالي السنتين، ثم انقلب عليه أبو مروان عبد المالك السعدي وأخوه أحمد (وهما من عائلة المتوكل) بمساعدة العثمانيين الذين كانوا على الحدود الشرقية للمغرب في الجزائر. فما كان من المتوكل إلا أن فرّ إلى البرتغال طالبا النجدة من الإمبراطور "دونْ سباستيان" على أن يسلمه كل شواطئ المغرب على المحيط الأطلسي دون استثناء!!

هكذا وجد "سباستيان" فرصته الذهبية للقضاء على الإسلام في جناحه الغربي، وتنصير المسلمين فيه تطبيقا لوصايا "إيزابيلا" الكاثوليكية. وبدأ الإمبراطور البرتغالي مشاوراته مع أباطرة أوروبا وملوكها، فاتصل أول الأمر بخاله "فيليب الثاني" عاهل إسبانيا، الذي سمح للمتطوعين من كل ممالكه بمرافقة "سباستيان" إلى المغرب للقتال في سبيل الصليب، وتحرك "سباستيان" بجيوش نظامية من ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والفاتيكان البابوية ومتطوعين من إنجلترا وفرنسا بالإضافة إلى جيوشه البرتغالية.

وعلم عبد المالك ملك المغرب بالمخطط الذي يحاك ضد بلاده، فبعث رسالة إلى إمبراطور إسبانيا يدعوه إلى حسن الجوار وإقامة علاقات صداقة، كما بعث لسباستيان يؤنّبه فيها على العمل الذي ينوي الإقدام عليه، ويهدده بسوء المصير، ويدعوه في الوقت نفسه إلى الدخول في السلم، والشروع في المفاوضات..

---

(١) معركة الزلاقة بحث للدكتور/ شوقي أبو خليل – الزَّلاَّقة معركة كسبها الإيمان وضيَّع ثمارها الخلاف: مقالة للدكتور/ محمد عبد الحميد عيسى – مجلة الأمة العدد (٢٣)

بدأت الحملة الصليبية في السابع من رمضان سنة ٩٨٦ هـ، وانطلقت المراكب من ميناء قادس متوجهة صوب المغرب، حاملة جيوشا صليبية هي أقوى جيوش العالم آنذاك عددا وعُدة.

وصلت الجيوش إلى مدينة "أصيلة" فاحتلتها ونواحيها، وكان ملك المغرب عبد المالك في مراكش آنذاك، فبعث إلى سباستيان برسالة قال فيها: إنني أعترف بشجاعتك وشهامتك يا سباستيان! ودليلنا على ذلك هو هجومك على بلادنا الآمنة، إنني أنحي عليك باللوم لأنك انتهزت فرصة غيابي وهجمت على المدن والقرى الوديعة تفتك بالمدنيين والفلاحين العزّل، وهذا لم أكن أعهده فيك، والآن ففي إمكانك أن تنتظرني أياما أقدم عليك!

وتأثر سباستيان بالرسالة بفعل الغرور، وكان هذا شيئا هاما ينم عن ذكاء عبد المالك، وذلك لكي لا تتوغل جيوش سباستيان في الأراضي المغربية، فيكسب سكانها الذين سيحاربون إلى جانبه بالإكراه.

وسافر عبد المالك إلى مدينة "القصر الكبير"، فكتب مرة أخرى إلى سباستيان: لقد قطعت أنا المراحل والمسافات الطويلة لمقابلتك، أفلا تتحرك أنت يا سباستيان لمقابلتي، لتبرهن على شجاعتك وشدة مراسك؟!

وكانت هذه أيضا خطة ناجحة لإبعاد الجيوش الأوروبية عن مراكز التموين على البحر.

وبالفعل تحركت الجيوش الأوروبية الصليبية مهاجمة المغاربة الذي استَدرجوا هذه الجيوش إلى سهل "القصر الكبير" في مكان استراتيجي بين وادي المخازن في الخلف، ونهر لوكوس على اليمين، ووادي وارور في الأمام.

ثم كان الشطر الثاني من خطة المسلمين للمعركة؛ إذ هدموا جسر وادي المخازن لقطع خط الرجعة على الفلول الصليبية، وأخيرا كان الملتقى بعد فجر يوم الاثنين الموافق

للثلاثين من جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ (٤ أغسطس ١٥٧٨م).

ويصف لنا المؤلف المغربي "الأفراني" المعركة في كتابه "نزهة الحادي في أخبار القرن الحادي" قائلا: [نزل العدو على وادي المخازن، وقطعه بجيوشه وعبر جسر الوادي، فأمر عبد المالك بالقنطرة أن تُهدم، ووجَّه لها كتيبة من الخيل فهدموها، ثم زحف بجيوش المسلمين وخيل الله المسوَّمة، فالتقت الفئتان، وحمي الوطيس، واسودَّ الجو بنقع الغبار ودخان مدافع البارود، إلى أن هبَّت على المسلمين ريح النصر، فولَّى المشركون الأدبار، وقُتِل الطاغية البرتغالي غريقا في الوادي، ولم ينجُ من الروم إلا عدد نذر وشرذمة قليلة.]

نتائج مشوخ أقصر الكبير:

لقد غيَّرت معركة القصر الكبير مجرى مهما في التاريخ؛ إذ فقدت البرتغال استقلالها، وفقدت ممتلكاتها الواسعة في العالم، وأُوقفت الهجمات الصليبية الشرسة الأوروبية عموما والبرتغالية خصوصا على الخليج العربي. أما المغرب فقد جنى غنائم طائلة، وكسب سمعة عالية، حتى بدأت دول أوروبا نفسها تخطب وده، وهذا ما أوجد في نفس الأوروبيين عقدة خاصة، ذهبوا معها إلى أن المعركة لم تكن صليبية، ومن بين هؤلاء المؤرخ الفرنسي "هنري تيراس" الذي يقول: إنها لم تكن من الصدمات الكبرى بين النصرانية والإسلام، بل كانت –حسب تواريخ البرتغال والمغاربة معا– حادثا عرَضيا بدون مقدمة ولا نتائج.

وهذا خطأ، وإلا كيف نفسر ما ترتب على المعركة من نتائج لا يجهلها هذا المؤرخ نفسه؟ وكيف نفسر الاستعدادات طويلة الأمد، ومشاركة جيوش كثيرة من أوروبا بلغ تعدادها خمسة وثلاثين ألف مقاتل صليبي عدا المتطوعين الذين يزيدون على عشرة آلاف، على متن ألفي مركب شراعي؛ في الوقت الذي كان فيه تعداد المسلمين سبعة وثلاثين ألف مقاتل؛ ضمنهم أربعة آلاف من الجيوش العثمانية التي تكوّن فرق المدفعية والبارود.

ولعل من المفيد هنا أن أورد ما قاله "كاستوني دوفوس" حول نظرة البرتغال إلى المعركة: [إن من المؤكد أن رجال البلاط في "لشبونة" كانوا ينظرون إلى تلك الحرب

وكأنها رحلة من رحلات السياحة، وليس أدل على ذلك من أنهم كانوا يهيئون الصلبان لتعليقها على مساجد فاس ومراكش. وقد أبدى كثير من نساء الطبقة النبيلة رغبتهن في مصاحبة الجيش البرتغالي وكأنهن سيحضرن إلى ملعب لسباق الخيل، وكان الشاعر الكبير "كاموانس" الذي اشتهر بكونه أنبغ الشعراء وأكثرهم قصائد في الحث على القضاء على المغاربة؛ على فراش الموت، وحيث لم يستطع ركوب البحر فإنه بعث مع الجنود أغنية مجَّد فيها المحاربين الذي باركهم البابا، وصلى من أجل انتصارهم.]

وأورد مؤرخون آخرون حالة الاستعداد التي كانت عليها أوروبا قبل المعركة، إذ ذهب الخبل ببعض المهندسين إلى درجة أنهم وضعوا تصميمات لتحويل قبة القرويين إلى مذبح كنائسي تعلَّق فيه صورة العذراء.

وهذا فقط يكفي للدلالة على أن معركة "القصر الكبير" كانت صداما حاسما بين الإسلام والنصرانية المزيفة، وبتعبير آخر: كانت معركة صليبية فاصلة في التاريخ. [1]

معركة حطين

تُوجت جهود صلاح الدين في سبيل بناء الجبهة الإسلامية المتحدة؛ فامتدت تحت زعامته من جبال طوروس شمالا حتى بلاد النوبة جنوبا.

وفي أثناء الفترة التي عمل فيها صلاح الدين على إحياء الدولة الإسلامية المتحدة؛ استعدادا لخطة الجهاد التي رسمها لطرد الصليبيين، ارتبط بعقد هدنة مع هؤلاء الصليبيين مدتها أربع سنوات؛ حتى يتفرغ تماما لتنظيم دولته وترتيب أوضاعها الداخلية.

غير أن "أرناط" حاكم الكرك شاء بحماقته ألا يترك الصليبيين ينعمون بتلك الهدنة؛ حيث أقدم على عمل طائش نقض الهدنة وأشعل الحرب، فاستولى على قافلة تجارية

[1] ملحمة القصر الكبير: مقالة لأنور عبد العزيز الحمدوني – مجلة الفسطاط.

متجهة من مصر إلى دمشق، وأسر حاميتها ورجالها، وألقى بهم أسرى في حصن الكرك!

حاول صلاح الدين أن يتذرع بالصبر فبعث إلى أرناط مقبحًا فعله، وهدده إذا لم يرد أموال القافلة ويطلق سراح الأسرى. وبدلا من أن يستجيب أرناط أساء الرد، واغتر بقوته، ورد على رسل صلاح الدين بقوله: "قولوا لمحمد يخلصكم"!

ولما حاول ملك بيت المقدس أن يتدارك الموقف أصرّ أرناط على رأيه، ورفض إعادة أموال القافلة وإطلاق الأسرى، فزاد الأمر تعقيدا، و لم يبق أمام صلاح الدين سوى الحرب والقصاص.

عبّأ صلاح الدين قواه واستعد لمنازلة الصليبيين وخوض معركة الجهاد الكبرى التي ظل يعد لها عشر سنوات منتظرا الفرصة المواتية لإقدامه على مثل هذا العمل، و لم تكن سياسة أرناط الرعناء سوى سبب ظاهري لإشعال حماس صلاح الدين، وإعلان الحرب على الصليبيين.

غادرت قوات صلاح الدين التي تجمعت من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر مدينة دمشق في المحرم ٥٨٣هـ - مارس ١١٨٧م، واتجهت إلى حصن الكرك فحاصرته ودمرت زروعه، ثم اتجهت إلى الشوبك، ففعلت به مثل ذلك، ثم قصدت بانياس بالقرب من طبرية لمراقبة الموقف.

وفي أثناء ذلك تجمعت القوات الصليبية تحت قيادة ملك بيت المقدس في مدينة صفورية، وانضمت إليها قوات ريموند الثالث أمير طرابلس، ناقضا الهدنة التي كانت تربطه بصلاح الدين، مفضلا مناصرة قومه، على الرغم من الخصومة المتأججة بينه وبين ملك بيت المقدس.

كان صلاح الدين يرغب في إجبار الصليبيين على المسير إليه، ليلقاهم وهم متعبون

في الوقت الذي يكون هو فيه مدخرًا قواه، وجهد رجاله، ولم يكن من وسيلة لتحقيق هذا سوى مهاجمة طبرية، حيث كانت تحتمي بقلعتها زوجة ريموند الثالث، فثارت ثائرة الصليبيين وعقدوا مجلسًا لبحث الأمر، وافترق الحاضرون إلى فريقين: أحدهما يرى ضرورة الزحف إلى طبرية لضرب صلاح الدين، على حين يرى الفريق الآخر خطورة هذا العمل لصعوبة الطريق وقلة الماء، وكان يتزعم هذا الرأي ريموند الثالث الذي كانت زوجته تحت الحصار، لكن أرناط اتهم ريموند بالجبن والخوف من لقاء المسلمين، وحمل الملك على الاقتناع بضرورة الزحف على طبرية.

بدأت القوات الصليبية الزحف في ظروف بالغة الصعوبة في (٢١ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ١ يوليو ١١٨٧م) تلفح وجوهها حرارة الشمس، وتعاني قلة الماء ووعورة الطريق الذي يبلغ طوله نحو سبعة وعشرين كيلو مترا، في الوقت الذي كان ينعم فيه صلاح الدين وجنوده بالماء الوفير والظل المديد، مدخرين قواهم لساعة الفصل، وعندما سمع صلاح الدين بشروع الصليبيين في الزحف، تقدم بجنده نحو تسعة كيلو مترات، ورابط غربي طبرية عند قرية حطين.

أدرك الصليبيون سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين في (٢٣ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ٣ يوليو ١١٨٧م) وهي منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثمائة متر، ولها قمتان تشبهان القرنين، وهو ما جعل العرب يطلقون عليها اسم "قرون حطين".

وقد حرص صلاح الدين على أن يحول بين الصليبيين والوصول إلى الماء في الوقت الذي اشتد فيه ظمؤهم، كما أشعل المسلمون النار في الأعشاب والأشواك التي تغطي الهضبة، وكانت الريح على الصليبيين فحملت حر النار والدخان إليهم، فقضى الصليبيون ليلة سيئة يعانون العطش والإنهاك، وهم يسمعون تكبيرات المسلمين وتهليلهم الذي يقطع سكون الليل، ويهز أرجاء المكان، ويثير الفزع في قلوبهم.

وعندما أشرقت شمس يوم السبت الموافق (٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ٤ يوليو ١١٨٧م) اكتشف الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستر الليل ليضرب نطاقا حولهم، وبدأ صلاح الدين هجومه الكاسح، وعملت سيوف جنوده في الصليبيين، فاختلت صفوفهم، وحاولت البقية الباقية أن تحتمي بجبل حطين، فأحاط بهم المسلمون، وكلما تراجعوا إلى قمة الجبل، شدد المسلمون عليهم، حتى بقي منهم ملك بيت المقدس ومعه مائة وخمسون من الفرسان، فسيق إلى خيمة صلاح الدين، ومعه أرناط صاحب حصن الكرك وغيره من أكابر الصليبيين.

لم تكن هزيمة الصليبين في حطين هزيمة عادية، وإنما كانت كارثة حلت بهم؛ حيث فقدوا زهرة فرسانهم، وقُتلت منهم أعداد هائلة، ووقع في الأسر مثلها، حتى قيل: إن من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل!

وغدت فلسطين عقب حطين في متناول قبضة صلاح الدين، فشرع يفتح البلاد والمدن والثغور الصليبية واحدة بعد الأخرى، حتى توج جهوده بتحرير بيت المقدس في (٢٧ رجب ٥٨٣هـ - ١٢ أكتوبر ١١٨٧م)

مطبد ِ المعروخ:

- ❖ بدأت المعركة في وسط نهار الجمعة، وكان صلاح الدين كثيرا ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر.
- ❖ قال ابن شداد: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصا واحدا معه نيف وثلاثون أسيرا قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان.
- ❖ ولما فتح الله تعالى عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد، وعرضت عليه الأسارى، وسار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله تعالى على يده للمسلمين، ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكرا لله تعالى على ما أنعم به عليه.

وحضر بين يدي السلطان صلاح الدين ملك بيت المقدس وأرناط، وأمر صلاح الدين بالماء المثلج فشرب ملك القدس؛ وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها أرناط؛ فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنتَ الذي سقيتَه، وإلا أنا فما سقيته. وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال مَن أسره أمِن، وقال صلاح الدين: "إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني"، ثم كلمه وأوقفه على جرائمه، ثم قام إليه فضرب عنقه، وقال: "كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والأخرى لما نهب القافلة واستولى عليها غدرًا". [1]

معركة عين جالوت

في منتصف عام (٧٥٨هـ-١٢٦٠م) بعث هولاكو من الشام برسله يحملون رسالته الشهيرة إلى سلطان مصر المملوكي: سيف الدين قطز..

كان هولاكو في قمة انتصاراته، وكان المغول قد اكتسحوا الممالك الإسلامية واحدة بعد الأخرى، وهدموا متاريسها وجدرانها، وسووا الطريق أمام جحافلهم المتقدمة غربا.. ما من قيادة إسلامية، من أواسط آسيا وحتى أطراف سيناء، إلا وأذعنت لهم طوعا أو كرها.. وكان السيف الوثني المغولي يعلو على السيوف، وكان الرأس الذي لا ينحني له يُطاح به في التو واللحظة.. وحتى أولئك الذين اختاروا السلامة ولووا رءوسهم عجزا عن المجابهة وهروبا من الموت؛ وقعوا في مصيدة الموت التي كان المغول يتفننون في نصبها، وفي تعذيب خصومهم وهم يتقلبون في شباكها.

في هذه الظروف، ومن خلال وهج السيوف التي تقطر دما وأصداء المعارك التي أثار نقعها سيل لا أول له ولا آخر من خيول الغزاة؛ بعث هولاكو برسالته تلك إلى سلطان

[1] حطين أحداث ونتائج: مقالة لأحمد تمام / موقع إسلام أون لاين – وفيات الأعيان

مصر المملوكي: سيف الدين قطز.. وكان الطاغية يعرف جيدا خلفية الرعب والانهزام التي رسمتها العقود الأخيرة على مدى خارطة عالم الإسلام وفي أعماق نفوس أبنائه، فعرف كيف ينتقي كلماتها..

قال: [مِن ملك الملوك شرقا وغربا، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلَّطنا على مَن حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتَبَر، وعن عزمنا مزدَجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ..

وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأي أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع..

فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر.. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرب الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ولا كافيا ولا حرزا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذَّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم.]

كان الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي صنعها كدح القرون الطوال.

كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام.. ولكن الإيمان له منطق آخر.. إنه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام فحسب، ولكنه يهب بصيرة نافذة تخترق حجب العمى والظلام لكي تطل على الأفق الذي يشع ضياء..

عقد السلطان قطز مجلس الشورى وعرض الأمر على القادة والأمراء والعلماء، واتفقوا جميعا على محاربة التتار، وكان ركن الدين بيبرس قد اقترح أن تُقتل الرسل، وأن يبادر الجيش بالهجوم.

أيد الأمراء كافة هذا الرأي، وكان على قطز أن يتخذ قراره، وقد اتخذه فعلاً.. قَتَل الرسل وعلَّق رءوسهم على باب زويلة أياما.. ورفع رأسه متحديا بمواجهة الطاغية، وأصدر أوامر بالتجهز للقتال؛ جهادا في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ..

وإذ رأى ترددا وجبنا ونكوصا من عدد من الأمراء ألقى كلمته المؤثرة:

يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين..

وما كان للأمراء جميعا إزاء قيادة مؤمنة كهذه، إلا أن يخلعوا رداء العجز والوهن ومحبة الدنيا.. ويقفوا متحدين بمواجهة الفتنة..

يوم الفصل:

انطلقت القوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز واجتازت سيناء باتجاه غزة سالكة الطريق المحاذي للبحر، وتولى الظاهر بيبرس قيادة المقدمة. ولم يكن في غزة سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة بايدر الذي أرسل إلى القائد المغولي كتبغا الذي أنابه هولاكو لإتمام الغزو غربا، يخطره بحركة الجيش الإسلامي، غير أن المسلمين اكتسحوا عساكره قبل أن تصل إليه النجدة.

كان كتبغا في بعلبك، فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن يتجاوز بحر الجليل، غير أنْ منعه اشتعال ثورة المسلمين في دمشق ضد السلطة المغولية وأنصارها من النصارى المحليين حيث حطمت دورهم وكنائسهم، واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لإعادة الأمن إلى نصابه. وفي تلك الأثناء كان قطز يواصل السير على الساحل الفلسطيني ثم انعطف إلى الداخل ومضى شمالا لتهديد مواصلات كتبغا إذا حدث وتقدم إلى فلسطين.

عبر كتبغا نهر الأردن وتوجه صوب الجليل الشرقي، فبادر قطز على الفور بالانعطاف بقواته باتجاه الجنوب الشرقي مجتازا الناصرة حيث وصل في الرابع عشر من رمضان (الموافق الثاني من سبتمبر عام ١٢٦٠م) إلى عين جالوت. وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي تعززه كتائب كرجية وأرمنية، دون أن يعلم أن جيش المماليك أضحى قريبا منه. وكان قطز يعرف جيدا تفوق جيشه في العدد على العدو ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس. وما لبث كتبغا أن وقع في الفخ إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، فدخل قطز المعركة لجمعهم، ولم تنقضِ سوى بضع ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وسحقت زهرة القوات المغولية ووقع قائدهم نفسه أسيرا. وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حمله مقيدا بالأغلال إلى السلطان حيث احتزَّ رأسه!

توجه السلطان قطز إلى دمشق بعد أيام قلائل من المعركة حيث استُقبل استقبال الأبطال وهرب نواب المغول منها بعد أكثر من سبعة أشهر من خضوعها لسيطرتهم، وقام قائده الظاهر بيبرس بملاحقة فلول العدو شمالا وتطهير البلاد منهم، حيث قتل وأسر عددا

كبيرا، وتمكن خلال شهر واحد من دخول حلب، المعقل الشمالي، وتخليصه من قبضة الغزاة. وهكذا تم تحرير بلاد الشام وفلسطين من أقصاها إلى أقصاها.

ومع أن هولاكو أرسل العساكر لاسترداد حلب؛ فإنهم اضطروا للانسحاب بعد أربعين يوما أجروا أثناءها المذابح في عدد كبير من المسلمين انتقاما لمصرع كتبغا، غير أن ذلك كان كل ما استطاع هولاكو أن يفعله للانتقام لقائده الشهير.

ٌمطبد ِ المعروخ :

❖ تقدم الملك المظفر إلى سائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر ومن وجد منهم قد اختفى يُضرب بالمقارع! فلما كان الليل ركب السلطان وحرك أعلامه وقال: أنا ألقى التتار بنفسي. فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره!

❖ أقسم المظفر لقادة الصليبيين في فلسطين أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر!

❖ أمر الملك المظفر بالأمراء فجُمِعوا، وحضهم على قتال التتار، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوَّفهم من وقوع مثل ذلك، وحثَّهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذَّرهم عقوبة الله، فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد.

❖ عندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته: "**وإسلاماه!**" وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيَّده الله بنصره..

❖ مر العسكر في أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر والتقوا بالمسلمين لقاء ثانيا أعظم من الأول فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديدا فصرخ السلطان صرخة عظيمة سمعه معظم المعسكر وهو يقول: "**وإسلاماه!**" ثلاث مرات.. "**يا الله انصر عبدك قطز على التتار!**" فلما

انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ثم ركب، فأقبل العساكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم!

- ❖ كتب السلطان إلى دمشق يبشر الناس بفتح الله وخذلانه التتر، وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق. فلما ورد الكتاب سرّ الناس به سرورا كثيرا، وبادروا إلى دور النصارى الذين كانوا من أعوان التتار فنهبوها وخربوا ما قدروا على تخريبه، وقتلوا عدة من النصارى واستتر باقيهم، وذلك أنهم في مدة استيلاء التتر هموا مرارا بالثورة على المسلمين وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا بالصليب وشربوا الخمر في الطرقات ورشوه على المسلمين!
- ❖ لما بلغ هولاكو كسرة عسكرة وقتل نائبه كتبغا، عظم عليه فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك..

وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزي المعاصر ستيفن رانسمان في كتابه "الحروب الصليبية" يقول: [تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ.. ومن المحقق لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسر تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في عين جالوت من قرار. فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له. فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم، فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم.

ولو انتصر كتبغا النصراني، لازداد عطف المغول على النصارى، ولأصبح للنصارى السلطة لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام. على أنه من

العبث أن نفكر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ، فليس للمؤرخ إلا أن يروي ما حدث فعلاً إذ أن معركة عين جالوت جعلت سلطة المماليك بمصر القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين، إلى أن قامت الدولة العثمانية.. فما حدث من ازدياد قوة العنصر الإسلامي وإضعاف العنصر النصراني لم يلبث أن أغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام. وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية، لأن المسلمين المظفرين، حسبما تنبأ مقدم طائفة فرسان التيوتون، أضحوا حريصين على أن يتخلصوا نهائياً من أعداء الدين.] ا.هـ

وقد حققت هذه المعركة الفاصلة وحدة بين مصر والشام كانت ذات قيمة استراتيجية كبيرة في صراع الإسلام ضد خصومه التاريخيين.. إذ أصبحت الدرع الذي يقي المسلمين هجمات المغول الشرسة، ويمكن في الوقت نفسه من مجابهة التحدي الصليبي ومحاولة استئصال وجوده من الأرض الإسلامية.

إنها الوحدة نفسها التي سهر عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود على إقامتها، وجاء الناصر صلاح الدين من بعدهما لكي يبني عليها انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين الغزاة ويحرر القدس.. وها هي معركة عين جالوت تشد الآصرة مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم ودفعهم إلى إحدى اثنتين: الإذعان لكلمة الإسلام أو العودة من حيث جاءوا..

لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت السلاجقة من قبل، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة أن تعوض عالم الإسلام عما فقدَ هناك..

وقد حققت المعركة للحركة الحضارية الإسلامية القدرة على مواصلة المسير، وعلى أن تتجاوز محنة الدمار والتخريب الذي شهدته بغداد.. فها هي ذي في مصر والشام والمغرب تنجز المزيد من العطاء وتتحقق بالإبداع في جوانب عديدة وساحات شتى..

وليس كما يقال من أن عالم الإسلام دخل عصر الظلمة بعد سقوط بغداد.. وليس ابن خلدون وابن كثير وابن تيمية وأبو الفدا والسيوطي والسخاوي وابن القيم والجزري.. وغيرهم كثيرون؛ سوى إشارات على طريق هذا التحقق المبدع الذي شهدته حضارة الإسلام يومَها..

ويبقى لمعركة عيـــن جـــالوت ثقلها وأهميتها وخصوصيتها.. ذلك أنها جاءت وظلام الإعصار الوثني المتحالف مع الصليبية يكاد يُطبق على نور التوحيد ويطمس على ألقه.. فردّت على القوة بالقوة، وقارعت سيف الشيطان بسيف الله، وعلمت البشرية؛ بالانتصار الباهر الذي حققته؛ كيف يكون الإيمان الجاد المعزز بالرؤية الواعية والتخطيط المدروس قديرا على تحقيق المعجزات.. [1]

فيا عبد الله..

لقد قادت العقيدة العسكرية الإسلامية النبيَّ ﷺ وصحبه إلى النصر، وإلى توحيد الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام خلال تسع سنين فقط من عمر الزمان.

وقادت الخلفاء الراشدين الهادين المهديين من بعده على عهد أبي بكر الصديق، والفاروق عمر بن الخطاب، والصدر الأول من عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهم، وقادت قادة الفتح الإسلامي وجنوده إلى فتح العراق وبلاد الشام ومصر وليبيا وبلاد فارس وخراسان، وتوحيد هذه البلاد الشاسعة تحت لواء الإسلام خلال أقل من عشرين سنة.

فلما تخلى العرب والمسلمون عن العقيدة الإسلامية، وطبقوا العسكرية الغربية أو الشرقية أو الغرابية التي هي مزيج من العسكرية الشرقية والعسكرية الغربية؛ قادتهم هذه

---

[1] عين جالوت: الواقعة والمغزى بحث للدكتور/ عماد الدين خليل – مجلة الأمة العدد (٩) (بتصرف يسير)

العقائد الدخيلة إلى الهزائم المنكرة، وخسروا حتى بلادهم، وقادهم تلك العقائد العسكرية الأجنبية إلى الذل والهوان. فقد انتصرنا بالإسلام، ولن ننتصر بغيره..

فافهم دروسَ الدهرِ في دورانِهِ ... فالدهرُ أبلغُ حُجَّةً وخطابا
يا أمتي: هذا مقامُك فانهضي ... فالحُكمُ حُكمُكِ سُنَّةً وكتابا
ترنو لكِ الدنيا فقودي خَطوَها ... واشفي السقيمَ وبَصِّري المُرتابا
آن الأوانُ لأمةِ الإسلام أنْ ... تبني الحياةَ هدايةً ومَتابا
يا فجرَ أمتِنا تَجَلَّ على المدَى ... واكسُ الزمانَ تفاؤلا وشبابا
شُقِّ السوادَ فللمخاضِ تألُّمٌ ... والصبحُ مِن كنفِ الظلام انسابا
آمنتُ أنّ اللهَ منجزُ وعدِهُ ... والمرجَفون رجاؤهم قد خابا [1]

عظماء جعلوا كلمة الله هي العليا

[1] من قصيدة "شكوى بين عامين" للمبدع/ صالح بن علي العمري

☆ في **غضّح رجْن عخ رغغ ِ جٌنّح**، أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لملاقاة الروم، الذين شرعوا يكيدون للإسلام.. وكانت الأيام التي دعا فيها الناس للجهاد أيام عسر وقيظ.. وكانت الشقة بعيدة.. والعدو مخيفا..

ولقد تقاعس عن الخروج نفر من المسلمين، تعللوا بشتى المعاذير.. وخرج الرسول ﷺ وصحبه.. وكلما أمعنوا في السير ازدادوا جهدا ومشقة، فجعل الرجل يتخلف، ويقولون: يا رسول الله! تخلف فلان، فيقول: **"دعوه.. فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه"..!**

وتلفت القوم ذات مرة، فلم يجدوا أبا ذر.. وقالوا للرسول ﷺ: لقد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره.. وأعاد الرسول ﷺ مقالته الأولى: **"دعوه.. فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم.. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه"..!**

كان بعير أبي ذر قد ضعف تحت وطأة الجوع والظمأ والحر، وتعثرت من الإعياء خطاه.. وحاول أبو ذر أن يدفعه للسير الحثيث بكل حيلة وجهد، ولكن الإعياء كان يلقي ثقله على البعير..

ورأى أبو ذر أنه بهذا سيتخلف عن المسلمين وينقطع دونهم الأثر، فنزل من فوق ظهر البعير، وأخذ متاعه وحمله على ظهره ومضى ماشيا على قدميه، مهرولا،

وسط صحراء ملتهبة، حتى يدرك رسوله ﷺ..

وفي الغداة، وقد وضع المسلمون رحالهم ليستريحوا، بصر أحدهم فرأى سحابة من النقع والغبار تخفي وراءها شبح رجل يغذ السير.. وقال الذي رأى: يا رسول الله! هذا رجل يمشي على الطريق وحده.. فقال الرسول ﷺ: **"كن أبا ذر"..!**

وعادوا لما كانوا فيه من حديث، ريثما يقطع القادم المسافة التي تفصله عنهم، وعندها يعرفون من هو.. وأخذ المسافر الجليل يقترب منهم رويدا.. يقتلع خطاه من الرمل المتلظي اقتلاعا؛ وحِمله فوق ظهره.. ولكنه مغتبط فرحان لأنه أردك القافلة المباركة، و لم يتخلف عن رسول الله ﷺ وإخوانه المجاهدين..

وحين بلغ أول القافلة، صاح صائحهم: يار سول الله! إنه والله أبو ذر..

وسار أبو ذر صوب الرسول ﷺ. و لم يكد ﷺ يراه حتى تألقت على وجهه ابتسامة حانية واسية، قال: **"يرحم الله أبا ذر.. يمشي وحده.. ويموت وحده.. ويُبعث وحده.."**

وبعد مضي عشرين عاما على هذا اليوم أو تزيد، مات أبو ذر وحيدا، في فلاة الربذة..

بعد أن سار حياته كلها وحيدا على طريق لم يتألق فوقه سواه.. ولقد بُعث

في التاريخ وحيدا في عظمة زهده، وبطولة صموده.. ولسوف يُبعث

عند الله وحيدا كذلك؛ لأن زحام فضائله المتعددة، لن يترك

بجانبه مكانا لأحد سواه..!!! [رجال حول الرسول]

لِي سادةٌ مِن عِزِّهِم؛
أقدامُهم فوقَ الجِباهْ
إنْ لم أكن منهمُ فلي في
حُبِّهم عِزٌّ وجاهْ

☆ **جهز الصديق أبو بكر رضي الله عنه جيوشا عديدة لفتح بلاد الشام وتخليصها من حكم الروم**، واختار لإمارتها نفرا من القادة المهرة: أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، ثم معاوية بن أبي سفيان..

وعندما نمت أخبار هذه الجيوش إلى إمبراطور الروم نصح وزراءه وقواده بمصالحة المسلمين، وعدم الدخول معهم في حرب خاسرة.. بيد أن وزراءه وقواده أصروا على

القتال وقالوا: والله لنشغلنَّ أبا بكر على أن يورد خيله إلى أرضنا..! وأعدوا للقتال جيشا بلغ قوامه مائتي ألف مقاتل، وأربعين ألفا.

وأرسل قادة المسلمين إلى الخليفة بالصورة الرهيبة للموقف فقال أبو بكر: **والله لأشفينَّ وساوسهم بخالد..!!**

وتلقى ترياق الوساوس؛ وساوس التمرد والعدوان والشرك؛ تلقى أمر الخليفة بالزحف إلى الشام، ليكون أميرا على جيوش الإسلام التي سبقته إليها..

وما أسرع ما امتثل خالد؛ فترك على العراق المثنى بن الحارثة، وسار مع قواته التي اختارها حتى وصل مواقع المسلمين بأرض الشام، وأنجز بعبقريته الباهرة تنظيم الجيش المسلم وتنسيق مواقعه في وقت وجيز، وبين يدي المعركة واللقاء، وقف في المقاتلين خطيبا

فقال بعد أن حمد ربه وأثنى عليه: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي.. أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وتعالوا نتعاور الإمارة، فيكون أحدنا اليوم أميرا، والآخر غدا، والآخر بعد غد، حتى يتأمَّر كلكم

"هذا يوم من أيام الله".. ما أروعها من بداية..!! "لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي".. وهذه أكثر روعة وأوفى ورعا!!

ولم تنقص القائد العظيم الفطنة المفعمة بالإيثار، فعلى الرغم من أن الخليفة وضعه على رأس الجيش بكل أمرائه، فإنه لم يشأ أن يكون عونا للشيطان على أنفس أصحابه، فتنازل لهم عن حقه الدائم في الإمارة وجعلها دولة بينهم.. اليوم أمير، وغدا أمير ثانٍ.. وبعد غد أمير آخر.. وهكذا..

كان جيش الروم بأعداده وبعتاده، شيئا بالغ الرهبة.. لقد أدرك قواد الروم أن الزمن في صالح المسلمين، وأن تطاول القتال وتكاثر المعارك يهيئان لهم النصر دائما، من أجل ذلك قرروا أن يحشدوا كل قواهم في معركة واحدة يجهزون خلالها على العرب حيث لا

يبقى لهم بعدها وجود، وما من شك أن المسلمين أحسوا يوم ذاك من الرهبة والخطر ما ملأ نفوسهم المقدامة قلقا وخوفا..

ولكن إيمانهم كان يخفُّ لخدمتهم في مثل تلك الظلمات الحالكات، فإذا فجر الأمل والنصر يغمرهم بسناه..!!

ومهما يكن بأس الروم وجيوشهم، فقد قال أبو بكر، وهو بالرجال جد خبير: خالد لها..! وقال: والله، لأشفينَّ وساوسهم بخالد..!! فليأت الروم بكل هولهم، فمع المسلمين الترياق..!!

عبأ ابن الوليد جيشه، وقسمه إلى فيالق، ووضع للهجوم والدفاع خطة جديدة تتناسب مع طريقة الروم بعد أن خبر وسائل إخوانهم الفرس في العراق.. ورسم للمعركة كل مقاديرها..

ومن عجب أن المعركة دارت كما رسم خالد وتوقع، خطوة خطوة، وحركة حركة، حتى ليبدو وكأنه لو تنبأ بعدد ضربات السيوف في المعركة، لما أخطأ التقدير والحساب..!! كل مناورة توقعها من الروم صنعوها.. كل انسحاب تنبأ به فعلوه..

وقبل أن يخوض القتال كان يشغل باله قليلا، احتمال قيام بعض جنود جيشه بالفرار، خاصة أولئك الذين هم حديثو العهد بالإسلام، بعد أن رأى ما ألقاه منظر جيش الروم من رهبة وجزع..

وكان خالد يتمثل عبقرية النصر في شيء واحد، هو الثبات.. وكان يرى أن حركة هروب يقوم بها اثنان أو ثلاثة، يمكن أن تُشيع في الجيش من الهلع والتمزق ما لا يقدر عليه جيش العدو بأسره..!!

من أجل هذا، كان صارما، تجاه الذي يلقي سلاحه ويولي هاربا.. وفي تلك الموقعة بالذات؛ **موقعة اليرمـ ڽن**، وبعد أن أخذ جيشه مواقعه، دعا نساء المسلمين، ولأول مرة سلَّمهن السيوف، وأمرهن بالوقوف وراء صفوف المسلمين من كل جانب، وقال لهن:

من يولي هاربا فاقتلنه..!!

وكانت لفتة بارعة أدت مهمتها على أحسن وجه..!!

وقبيل بدء القتال طلب قائد الروم أن يبرز إليه خالد ليقول له بضع كلمات .. وبرز إليه خالد، حيث تواجها فوق جواديهما في الفراغ الفاصل بين الجيشين..

وقال ماهان قائد الروم يخاطب خالدا: قد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجوع والجهد.. فإن شئتم، أعطيتُ كل واحد منكم عشرة دنانير، وكسوة، وطعاما، وترجعون إلى بلادكم، وفي العام القادم أبعث اليكم بمثلها..!!

وضغط خالد الرجل والبطل على أسنانه، وأدرك ما في كلمات قائد الروم من سوء الأدب.. وقرر أن يرد عليه بجواب مناسب، فقال له: إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت، ولكننا قوم نشرب الدماء، وقد علمت أنه لا دم أشهى وأطيب من دم الروم، فجئنا لذلك..!!

ولوى البطل زمام جواده عائدا إلى صفوف جيشه. ورفع اللواء عاليا مؤذنا بالقتال..
" الله أكبر".. " هبي رياح الجنة"..

كان جيشه يندفع كالقذيفة المصبوبة.. ودار قتال ليس لضراوته نظير.. وأقبل الروم في فيالق كالجبال.. وبدا لهم من المسلمين ما لم يكونوا يحتسبون.. ورسم المسلمون صورا تبهر الألباب من فدائيتهم وثباتهم..

فهذا أحدهم يقترب من أبي عبيدة بن الجراح والقتال دائر يقول: إني قد عزمت على الشهادة، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ أبلغها له حين ألقاه؟ فيجيب أبو عبيدة: نعم قل له: يا رسول الله! إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا.

ويندفع الرجل كالسهم المقذوف.. يندفع وسط الهول مشتاقا إلى مصرعه ومضجعه.. يَضرب بسيفه، ويُضرب بآلاف السيوف حتى يرتفع شهيدا..!!

وهذا عكرمة بن أبي جهل.. أجل ابن أبي جهل.. ينادي في المسلمين حين ثقلت وطأة الروم عليهم قائلا: لطالما قاتلت رسول الله ﷺ قبل أن يهديني الله للإسلام، أفأفرُّ من أعداء الله اليوم؟! ثم يصيح: من يبايع على الموت..؟! فيبايعه على الموت كوكبة من المسلمين، ثم ينطلقون معا إلى قلب المعركة؛ لا باحثين عن النصر، بل عن الشهادة.. ويتقبل الله بيعتهم وبيعهم، فيستشهدون..!!

وهؤلاء آخرون أصيبوا بجراح أليمة، وجيء لهم بماء يبللون به أفواههم، فلما قدم الماء إلى أولهم، أشار إلى الساقي: أن أعطِ أخي الذي بجواري فجرحه أخطر، وظمأه أشد.. فلما قدم إليه الماء أشار بدوره لجاره. فلما انتقل إليه أشار بدوره لجاره.. وهكذا.. حتى جادت أرواح أكثرهم ظامئة.. ولكن أنضر ما تكون تفانيا وإيثارا..!!

أجل.. لقد كانت معركة اليرموك مجالا لفدائية يعز نظيرها.

ومن بين لوحات الفداء الباهرة التي رسمتها عزمات مقدرة؛ تلك اللوحة الفذة.. لوحة تحمل صورة خالد بن الوليد على رأس مائة لا غير من جنده، ينقضّون على ميسرة الروم وعددها أربعون ألف جندي، وخالد يصيح في المائة الذين معه: والذي نفسي بيده ما بقي مع الروم من الصبر والجلد إلا ما رأيتم. وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم.

مائة يخوضون في أربعين ألف.. ثم ينتصرون..!! ولكن أي عجب؟؟ أليس ملء قلوبهم إيمان بالله العلي الكبير..؟ وإيمان برسوله الصادق الأمين ﷺ؟ وإيمان بقضية هي أكثر قضايا الحياة بِرًّا وهُدًى ونُبلاً؟ وأليس خليفتهم الصديق رضي الله عنه، هذا الذي ترتفع راياته فوق الدنيا، بينما هو في المدينة؛ العاصمة الجديدة للعالم الجديد؛ يحلب بيده شياه الأيامى، ويعجن بيده خبز اليتامى..؟! وأليس قائدهم خالد بن الوليد ترياق وساوس التجبر، والصلف، والبغي، والعدوان، وسيف الله المسلول على قوى التخلف والشرك؟!

أليس ذلك كذلك..؟ إذن هي رياح النصر..

هي قوية، عزيزة، ظافرة، قاهرة..[1]

☆ وأي ذكر للمجاهدين أولى من ترديد ذكريات جهاد فاتح مصر أبي عبد الله عمرو ﭬ العاص بن وائل السهمي؟! وتذكير المؤمنين بهداية الإسلام في هذا الوادي بأن إيمانهم بالله الواحد، وبيانهم العربي، وحضارتهم الإسلامية، وجميع ما كان من ذلك لألوف الملايين من أسلافهم، وما سيكون منه لأضعاف أضعافهم من الأجيال المصرية التي سيخلقها الله إلى يوم الدين؛

كل أولئك حسنات من الحسنات التي كتبها الله

وسيكتبها في صحائف عمرو بن العاص

ومن كان معه من المجاهدين المحسنين..

ولولا العزائم الصادقة التي اتصف بها عمرو وصحبه، وما بذلوا من جهود منقطعة النظير في التاريخ لتحويل مصر مما كانت عليه إلى ما صارت إليه؛ لكانت مصر بمثقفيها يومئذ وقادة شعبها؛ كالحبشة سواء بسواء!

عاش عمرو رضي الله عنه تسعين سنة، صرف الشطر الناضج المبارك منها تحت رايات الإسلام، وقد نقل الحافظ ابن حجر في "الإصابة" عن الزبير بن بكار أن رجلا قال لعمرو: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك؟ قال: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدُّم، وكانوا ممن توازن حُلومُهم الجبال، فلما بعث النبي فأنكروا عليه قلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا؛ فإذا حقٌّ بيِّن، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك مني من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه؛ فبعثوا إليّ فتى منهم فناظرني في ذلك، فقلت: أنشدك الله ربك ورب مَن قبلك ومَن بعدك؛ أنحن أهدى أم فارس والروم؟

[1] رجال حول الرسول.

قال: نحن أهدى! قلت: فنحن أوسع عيشا أم هم؟ قال: هم.. قلت: فما ينفعنا فَضلُنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا، وهم أعظم منا فيها..! وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليُجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل.

كان هذا الحديث في أوائل السنة الثامنة للهجرة، وخرج عمرو بعد ذلك قاصدًا النبي ﷺ ليعلن إسلامه، فلقي في طريقه خالد بن الوليد من بني مخزوم، وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار سدنة الكعبة. قال عمرو: فقلت لخالد: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: أذهب والله لأسلم، إنه والله قد استقام المنسم[1]، وإن الرجل لنبي ما أشك فيه.. فقلت: وأنا والله.

فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ونظر إليهم قال لأصحابه: "لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها".

قال عمرو: فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله! أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي، فقال لي: "يا عمرو.. بايع فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله".

ولما أسلم رضي الله عنه كان النبي ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته.

أخرج أحمد بسند حسن عن عمرو بن العاص قال: بعث إليّ النبي ﷺ فقال: "خُذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني". فأتيته فقال: "إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة". فقلت: يا رسول الله! ما أسلمت من أجل المال، بل أسلمت رغبة في الإسلام. فقال ﷺ: "نعم المال الصالح للرجل الصالح".

وكان هذا أول عمل تولاه عمرو في الإسلام، وهو قيادة جيش المسلمين في غزوة

[1] قد استقام المَنْسِم: أي تَبيَّن الطريق. والأصل فيه مَنْسِما خُفِّ البعير، وهما كالظُّفرين في مُقدَّمه بهما يُستبان أثر البعير الضال.

ذات السلاسل، وكان ذلك بعد إسلامه بأربعة أشهر، وجعل النبي ﷺ تحت قيادته أهل الشرف من المهاجرين والأنصار، ثم أمده بمدد على رأسه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح والمهاجرون الأولون رضي الله عنهم، فكان عمرو بن العاص يرأسهم جميعا ويصلي بهم. وكان منه في هذه الغزوة من حسن التدبير وسديد القيادة ما أدى إلى النصر وجميل الظفر.

وولاه النبي ﷺ صدقات بني عذرة وسعد هذيم على أن يذهب قبل ذلك إلى "جيفر" و"عمرو" ابني الجلندَى؛ وهما من الأزد، وكانا أميرين على مقاطعة عمان بساحل الخليج العربي. فما زال عمرو بحسن سياسته حتى استمال إلى الإسلام "عمرًا" ثم أخاه الأكبر "جيفر"؛ فأخليا بينه وبين الصدقة يأخذها من الأغنياء ويردها على الفقراء، ويجبي الجزية من المجوس، ويدعو ما استطاع إلى دين الله، ولم يزل قائما بهذه المهمة حتى وصل الخبر بوفاة الرسول ﷺ.

وفي أوائل خلافة أبي بكر احتاج الإسلام إلى خيرة أبطاله ليكبح جماح الردة؛ فكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأضرابهما على رأس الجيوش الإسلامية التي قضت على تلك الفتنة في أوجز وقت.

فلما انتهت حروب الردة أعاده أبو بكر رضي الله عنه إلى عمله الذي كان رسول الله ﷺ ولاه إياه من صدقات سعد هذيم وعذرة. ولما عزم أبو بكر على قصد الشام كتب له: "إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاك رسول الله ﷺ مرة ووعدك به أخرى إنجازا لمواعيد رسول الله ﷺ، وقد وُليتَه، وقد أحببتُ أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك".

فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارمِ به.

فلما وصل كتابه إلى أبي بكر ولاه قيادة جيش من الجيوش الأربعة، وهو الجيش الذي وجهته فلسطين، فكانت له المواقف العظمى في "اليرموك"، ثم في فتح دمشق، وتوفي أبوبكر وتولى عمر بن الخطاب؛ ولا يزال عمرو بن العاص في جهاده مع إخوانه قواد الأجناد؛ فكان في قيادة الجيش الذي استولى على فحل وبيسان وأجنادين، وكان قائد الروم في أجنادين يُسمى "أرطبون"، وكان من دهاة قوادهم؛ فقال عمر بن الخطاب: "رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب؛ فلننظر عم تنفرج"!

ولقد انفرجت عن غلبة ساحقة لأرطبون العرب وداهيتهم الخطير عمرو بن العاص؛ على أرطبون الروم الذي ترك جيشه للهزيمة وولى هاربا إلى مصر، التي سيلحقه بها عمرو بعد قليل، ليرفع فوق ربوعها الآمنة راية الإسلام.

وبعد فتح أجنادين زحفت الجيوش التي فيها عمرو على غزة واللد ونابلس وغيرها إلى أن بلغوا بيت المقدس فلم تفتح إلا بحضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

هـــذه صحيفة عمـــرو بن العاص من ساعة إســـلامه إلى أن تفرغ من حرب الشـــام وفلسطين لفتح مصر، فجاءها على رأس كتيبة لا يزيد عددها على أربعة آلاف مقاتل،

وليس على وجه الأرض قائد -لا في ذلك الوقت ولا في أي وقت- يبلغ به

الاعتداد بالنفس والاعتماد على خالقها أن يقتحم قطرا عظيما كمصر

بمثل هذا الجند؛ مهما كانت ثقته بشجاعة رجاله

وبمن يوافيهم بعد ذلك من الأمداد!!

من معجزا تبوسيخ الد شة:

إن الذين يقيسون بطولة القادة والفاتحين بمقياس النتائج العسكرية لحركاتهم الحربية، مع مقارنتها بالوسائل التي كانت بين أيديهم، وإكمالهم نقائص هذه الوسائل بدهائهم وحسن تدبيرهم وقوة عزائمهم؛ يقضون العجب من إقدام عمرو بن العاص على اقتحام الحدود المصرية على رأس حملة متواضعة في عددها واستعدادها الحربي. ولو أن عمرا لم

يسبق له ارتياد مصر والتغلغل في عاصمتها يومئذ وهي مدينة الإسكندرية؛ لكان هنالك مجال للظن بأنه غامر في هذه الحملة جزافًا وبلا حساب! أما وأنه يعرف مصر في عمرانها وتعداد سكانها، وقد حارب في سوريا وفلسطين جيوش الدولة الأجنبية التي كانت تحتل مصر أيضا بجيوشها، فمن غير المعقول أن يكون مدفوعا إلى هذه المغامرة العجيبة عن قلة تقدير للمسئوليات الحربية، وعن استخفاف بفنون القتال وأعبائه؛ فهو جد خبير باستعداد أعدائه الحربي، وبأساليبهم العسكرية، وأنظمتهم في التعبئة هجوما ودفاعا، ويعلم أن لديهم من قادة الحرب كل صعب المراس، متمرن على الكر والفر، معتمد على المعاقل والقلاع في الحصار والمطاولة. بل إن أدهى الروم وهو الأرطبون كان قريع عمرو ونده في أخطر الجولات الحربية في فلسطين؛ وهذا الأرطبون نفسه تحول إلى مصر قبيل وصول عمرو إلى تخومها.

هذه الحقائق من أوليات ما يعرفه عمرو عن مهمته في وادي النيل وما كان ينتظره في آفاقها. ولو أن عمرا مأمور من خليفته بهذه المغامرة لقيل: إنه مُرغَم جازف فيما أُرغم عليه؛ فواتته الفرصة وهو على غير علم بها أو تقدير لعواقبها! ولكنه صاحب الرأي الأول في هذه الحملة العجيبة في عددها واستعدادها. وقد استعمل الحيلة والدهاء في إمضائها واتقاء الصوارف عنها؛ فكانت هذه الحملة بمقدماتها ونتائجها أشبه بالحلم، ولولا أنها من حوادث التاريخ التي لا ينفذ إليها الشك؛ لجاز لمن شاء أن يرتاب في صحتها!!

أما وأن هذا الحادث العسكري العجيب بمقدماته، المدهش في حلقاته، قد تم بتدبير هذا القائد وعزائم أربعة آلاف من رجاله، بلغ عدد النجدات التي لحقت بهم اثني عشر ألفا فقط؛ فلا جناح على مَن شاء أن يقول:

إن هذه الحملة كانت من معجزات تاريخ الحرب!

ومن أول ما وقعت عليه أنظار البطل الفاتح في حقول وادي النيل الخصبة ومزارعه الجميلة؛ أن العاملين في حرثها وجنيها وحصادها كان منظورا إليهم منذ أيام الفراعنة على أنهم من مملوكات الحقل؛ يعملون بلقمتهم الجافة، و لم يكن معترفا لهم بالحرية الإنسانية!

فكان من النتائج الأولى للفتح الإسلامي في مصر أن أصبح هؤلاء العمال الزراعيون أحرارا؛ لا جناح على أحدهم أن ينتقل من حقل إلى غيره، أو أن يتحول عن عمله الزراعي إلى أي عمل يختاره.. ومن عجائب التاريخ أن الإسكندر المقدوني -تلميذ أرسطو أعظم حكماء الدنيا في زمانه- لم يحاول عند استيلائه على مصر، وبعد تشييده مدينة الإسكندرية؛ أن يعلن بطلان ذلك النظام القديم، فبقي كما كان في أيامه وأيام خلفائه البطالسة ومَن بعدهم إلى أن ألغي عمليا وبلا تبجح ولا امتنان؛ عقب فتح عمرو لهذه الأرض المباركة.. ولو لم يكن لعمرو وللفتح الإسلامي من المآثر غير هذه المأثرة الاجتماعية لكان أمرها عظيما..

وقد تعوّد المؤرخون أن ينعتوا عمرا بـ "فاتح مصر".. بيد أن في هذا الوصف تجوزا وتجاوزا، ولعل أحق النعوت بعمرو أن ندعوه بـ "محرر مصر".. فالإسلام لم يكن يفتح البلاد بالمفهوم الحديث للفتح، إنما كان يحررها من تسلط إمبراطوريتين سامتا العباد والبلاد سوء العذاب، هما: إمبراطورية الفرس.. وإمبراطورية الروم..

ومصر بالذات، يوم أهلت عليها طلائع الإسلام كانت نهبا للرومان، وكان أهلها يقاومون دون جدوى.. ولما دوّت فوق مشارف بلادهم صيحات الكتائب المؤمنة أن: "الله أكبر.. الله أكبر".. سارعوا جميعا في زحام مجيد صوب الفجر الوافد وعانقوه، واجدين فيه خلاصهم من قيصر ومن الرومان..

فعمرو بن العاص ورجاله، لم يفتحوا مصر إذن؛ إنما فتحوا الطريق أمام مصر لتصل بالحق مصايرها.. وتربط بالعدل مقاديرها.. وتجد نفسها وحقيقتها في ضوء كلمات الله، ومبادئ الإسلام..

ولقد كان رضي الله عنه حريصا على أن يباعد أهل مصر وأقباطها عن المعركة، ليظل القتال محصورا بينه وبين جنود الرومان الذين يحتلون البلاد ويسرقون أرزاق أهلها..!!

وسيظل الذين يحملون هذا الإيمان مشحوذي الولاء للرجل الذي جعلته الأقدار سببا، وأي سبب، لإهداء الإسلام إلى مصر، وإهداء مصر إلى الإسلام..

فنعمت الهداية ونعم مهديها..[1]

☆ روى ابن عساكر عن عبد الله بن محيريز الجمحي أنه خرج بعث للجهاد من دمشق لغزو الروم، وهو بعث الصائفة، فاكتتب في البعث أبوه **محيريز الجمحي**؛ وهو صحابي؛ فمرض مرضا شديدا.. فقال لابنه عبد الله: يا بُنيّ! احملني، فسِرْ بي إلى أرض الروم. قال عبد الله: فحملتُه، فلم أزل أسير به، وهو يقول: يا بُنيّ! أسرع بي السير.. !قلتُ: يا أبت! إنك مريض.. قال: يا بُنيّ! أسرع بي السير، فإني أحب أن يكون أجلي بأرض الروم. قال: فما زلت أسير به، حتى مات بأرض حِمص..

☆ روى الذهبي عن حصين بن جندب قال: غزا جيش المسلمين القسطنطينية زمن معاوية، وقد أتيتُ مصر بعد رجوع الجيش من هناك، فأخبرني بعض مَن كانوا في الجيش أنهم لما كانوا محاصرين للروم في القسطنطينية احتُضر **أثْ أيوب الأنصاري** رضي الله عنه، فقال لمن حوله: إذا مت، فضعوني على الخيل، ثم سيروا بي، حتى تلقوا العدو، عند أقرب نقطة من جيش العدو، وهناك احفروا لي قبرًا ثم ادفنوني، ثم سووا قبري كي لا يعرفه أحد.

☆ روى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان **أثْ ِغ ُ الخولاني** مع المجاهدين بأرض الروم، في خلافة معاوية رضي الله عنه، وكان قائد الجيش بسر بن أرطاة

[1] الإصابة في معرفة الصحابة – الكامل في التاريخ – مع الرعيل الأول – رجال حول الرسول.

رضي الله عنه . فمرض أبو مسلم الخولاني واحتُضر، فقال لبسر بن أرطأة قبل أن يموت: إذا أنا مت، فأمِّرني على مَن مات معك من المسلمين، واعقد لي لواءً عليهم، واجعل قبري أقصى القبور إلى العدو، فإني أرجو أن أجيء يوم القيامة بلوائهم.

☆ روى الحافظ أبو الحجاج المزي عن العلاء بن سفيان الحضرمي قال: غزا **ثغش أشّطبح** رضي الله عنه الروم، وصار الروم يكمنون لساقة الجيش المجاهد، ويصيبون منهم. ولما رأى بسر بن أرطاة ذلك، أخذ معه مائة من أصحابه، وراح يبحث عن الكمائن الرومانية.. وانفرد يوما في بعض أودية الروم، ورأى في الوادي كنيسة، ورأى نحو ثلاثين برذونا مربوطة بجانب الكنيسة، وكان فرسان تلك البراذين داخل الكنيسة، وهم الذين كانوا يكمنون الكمائن للمسلمين.

توجه بسر بن أرطاة نحو الكنيسة، ونزل عن فرسه وربطه بجانب البراذين، ثم دخل الكنيسة، وأغلق عليه وعلى الفرسان باب الكنيسة!

وعجب فرسان الروم من إغلاق الباب، وفوجئوا به يهجم عليهم، وما أن أخذوا سلاحهم حتى كان قد قتل منهم ثلاثة، واشتبك معهم!

وفقده أصحابه، وبحثوا عنه ورأوا فرسه عند الكنيسة، فتوجهوا نحوها، وسمعوا الجلبة وصوت السلاح في الكنيسة، وأرادوا الدخول، لكن بابها مغلق من الداخل، فقلعوا بعض السقف ونزلوا عليهم! ورأوا قائدهم ممسكا بطائفة من أمعائه بيده اليسرى، وهو يقاتلهم بالسيف بيده اليمنى! ولما دخل أصحابه الكنيسة سقط بسر مغشيا عليه، وتغلب المسلمون على فرسان الروم فقتلوا بعضهم وأسروا الباقين!

وقال الأسرى الروم للمسلمين: ننشدكم بالله؛ مَن هذا الرجل الذي هجم علينا وحده وقاتلنا؟ قالوا: هذا بسر بن أرطاة! قالوا: والله ما ولدت النساءُ مثلَه!!

وردوا أمعاءَه في جوفه، ولم ينخرق منه شيء، ثم عصبوه بعمائمهم، وبعد ذلك خاطوا بطنه فسلم وعوفي، واستأنف الجهاد، رضي الله عنه!! [مشارع الأشواق]

☆ كان الإمام الزاهد المجاهد الفارس المشهور، **أ دّذ ثّ إعذبق أغشب سّ** البخاري، شيخ الإمام البخاري، أحد شجعان العالم، المضروب بشجاعته المثل.

قال عنه البخاري: ما بلغنا أنه كان في الجاهلية ولا في الإسلام مثله. وقال إبراهيم ابن شماس: كنت أكاتب أحمد بن إسحاق السرماري، فكتب إلي: إذا أردت الخروج إلى بلاد الغزو في شراء الأسرى، فاكتب إليّ، فكتبت إليه ليأتي معنا.. فقدم إلى سمرقند، فخرجنا معا، ولما علم حاكم سمرقند بنا استقبلنا في عدة من جيشه، وأقمنا عنده إلى أن فرغنا من شراء الأسرى.

ودخل عليه أحد رجاله يوما ونحن عنده، فعظمه وبجله، وسأل عنه أحمد السرماري، فقال: هذا رجل مبارز يُعَدُّ بألف رجل. قال السرماري: أنا أُبارزه.

وبارزه في الصباح، وقتله، ولحق به خمسون فارسا، فصرعهم واحدا واحدا، وقتلهم بعمود حديد كان يضعه في كُمه! وكان وزن العمود حوالي ستة وثلاثين رطلاً، فلما شاخ جعله أربعة وعشرين رطلا . وقال: لقد قتلتُ بسيفي هذا ألف تركي كافر، وإن عشتُ قتلتُ به ألفا آخرين.

توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين على فراشه. رحمه الله ورضي عنه. [مشارع الأشواق]

☆ كان **عبد الله ثٓجبسن** حريصا على الجهاد والغزو، والمرابطة على الثغور، وكان يحثُّ الناس عليه، وينكر على المعتكف للعبادة، القاعد عن الجهاد.

قال محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة: كنتُ مع عبد الله بن المبارك بطرسوس، وكنا مرابطين في الثغور، فأردت الذهاب إلى الحج، وكان الفضيل بن عياض مجاورا عند الكعبة، معتكفا في المسجد الحرام، فكتب ابن المبارك لابن عياض:

يا عابدَ ٱلحرمين أتٱص شذّ إ لعلمتَ أفـي العبلج تلع ةُ
وا يـخضةُ خدَّ تذوعـ ُفـإذـــ شُ اتذاٍ إذرخ ضةُ
أّو ا يُتعِ ُةخيلَفـي تاطٍ فخيولٕ إ يومَ الصبيذح تتعبُ
ريحُ العبثِن ُ ى ُ ٱذ عبيرُ ا سّجُ ٱغاتِ هٱغثلسُ الأطيبُ
ّمذ أذأا ِمـاي أبيِّـ إـال ـــ ي صحيــ حص ـادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي غثــلسُ خيـ ِ اللهِ في أفـ اِش اِ دخـ اْ ــلسِ ذِ ةُ
زاورابُ اللهِ ينطِــ كُبينـ اِ: ليس الشهيـــ ذبميد لا يكذبُ

قال: ولما لقيتُ الفضيل بن عياض عند الكعبة ناولته رسالة ابن المبارك له، فلما قرأها ذرفت عيناه بالدمع، وقال: صدق أبو عبدالرحمن ونصحني. [مشارع الأشواق]

☆ وهذا الفقيه المجاهد والمحدِّث الثقة، قاضي القيروان، تلميذ مالك بن أنس: أبو عبد الله، **أعذ ثّ ٱفـشاد ثّ عبْ**، شخصية فريدة في عالم الجهاد والفتوحات..

ولد سنة ١٤٢هـ بمدينة "حرّان" من أعمال ديار بكر بالشام، ثم انتقل إلى بلاد المغرب مع أبيه الفرات بن سنان سنة ١٤٤هـ، والذي كان قائدا للمجاهدين الذين خرجوا لنشر الإسلام في بلاد المغرب، واستقر مع أبيه بالقيروان، ونشأ منذ صغره على حب العلم وحفظ كتاب الله حتى أتمه في مرحلة الصبا وأصبح هو نفسه معلما للقرآن وهو دون الثانية عشر.

رحل إلى الشرق في طلب الحديث، وفي الحجاز قابل إمام دار الهجرة مالك بن أنس، فأمضى ابن الفرات فترة من الزمن غير قصيرة يجلس إلى مالك ويشهد حلقاته، ويكتب عنه ويتحدث إليه، ثم رحل إلى العراق ليكمل رحلته العلمية، قبل عودته إلى أفريقية، وفي العراق التقى بأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الذي وجد منه من العناية به والرعاية لشأنه، ما سدد خطاه ومضى به نحو غايته.

وهكذا قُدّر لابن الفرات، أن يدرس المذهبين الكبيرين السائدين في العالم الإسلامي وقتذاك، مذهب أهل الحديث في المدينة النبوية، ومذهب أهل الرأي في بغداد.

وفي طريق عودته إلى القيروان، قابل في مصر أئمة الفقه من أصحاب مالك، فأخذ عنهم أيضا، ثم عاد بعدها إلى بلده القيروان، بعد رحلة علمية طويلة.

اتخذ ابن الفرات القيروان مقرا له بعد عودته، فأقبل عليه الناس من كل مكان، من المغرب والأندلس، واشتهر أمره، وظهر علمه، وارتفع قدره، وانتشرت إمامته..

اتسعت دراسته في القيروان، فولاه أمير الأغالبة في ذلك الوقت "زيادة الله" منصب القضاء، فأصبح هو القاضي في مدينة القيروان.

وفي عام ٢١٢هـ وجد ابن الفرات في نفسه رغبة تسيطر عليه يتقرب بها إلى الله، لإعزاز دينه، وهي الرغبة في جهاد أعدائه، فاستأذن أمير الأغالبة للذهاب للجهاد في سبيل الله، فقد ورث حب الجهاد عن أبيه الذي كان أمير المجاهدين في حران، فرفض الأمير الأغلبي أن يدعه يذهب، ولكنه ألح في التماس تحقيق رغبته.

وكان يقول وقد تجاوز السبعين من عمره: وجدوني رخيصا فلم يقبلوني، وقد أصابوا من يُجري لهم مراكبهم، فما أحوجها إلى مَن يجريها بالكتاب والسنة!

وبعد إلحاح من ابن الفرات استجاب الأمير زيادة الله الأغلبي له، بل ولاه قيادة أسطول صقلية، لكن ابن الفرات ما أراد الإمارة، لقد أراد الجهاد جنديا عاديا، فقال لزيادة الله: "أصلح الله الأمير! من بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه، تعزلني وتوليني الإمارة؟!".

لقد رأى ابن الفرات النظر في حلال الله وحرامه فوق الإمارة، وأسمى منها، وأعلى منها مرتبة، فقال زيادة الله: إني لم أعزلك عن القضاء، بل وليتك الإمارة، وأبقيت لك اسم القضاء، فأنت قاض أمير.

قبل ابن الفرات هذه الولاية، وعند الوداع في الميناء وقف المشيعون من العلماء وطلاب العلم والوجهاء ورجال الدولة وعامة الناس، يودعون قاضيهم وشيخهم ومعلمهم فكان مشهدا مؤثرا، وهو شيخ كبير قد جاوز السبعين من عمره، يعجز القلم عن وصفه، ويعجز اللسان في التعبير عنه وانطلق ابن الفرات بتسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل، وكان معظمهم من الجند المجاهدين في سبيل الله.

أمنيـــاخٌ لَــــــدَّسَ الله ِتُحقيقِ ا في الأرضِ ثيِعُ وثُنِشُ
عِـــشّها ڤـيدستِـ ا الخيـــ الأصيلةٌ
يِـ جَـإـاحُ أَغـــش دّ نَعتُـــشُ
تغـ ا

وجزيرة صقلية جزيرة كبيرة واسعة فيها العديد من المدن والقرى والقلاع والحصون، وصلت الحملة بعد مسير خمسة أيام في البحر إلى جزيرة صقلية، ونزلوا في أقرب مدينة بها تسمى "مازارا" كان ذلك عام ٢١٢هـــ.

انهزم البيزنطيون أمام أسد بن الفرات ممن كانوا في هذه المدينة وهربوا إلى مدينة أخرى تسمى "قصريانة"، وفتح المسلمون عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى أحد القلاع، وقد اجتمع بها خلق كثير، فخادعوا ابن الفرات على الصلح وأداء الجزية، حتى استعدوا للحصار، ثم امتنعوا عليه فحاصرهم، عندها قام أسد بن الفرات في الناس خطيبا فذكرهم بالجنة وموعود الله عز وجل لهم بالنصر والغلبة وهو يحمل اللواء في يده، ثم أخذ يتلو آيات من القرآن، ثم اندفع للقتال والتحم مع الجيش الصقلي الجرار، واندفع المسلمون من ورائه ودارت معركة طاحنة لا يُسمع منها سوى صوت قعقعة السيوف وصهيل الخيول والتكبير الذي يخترق عنان السماء، والأسد العجوز أسد بن الفرات الذي جاوز السبعين يقاتل قتال الأبطال الشجعان حتى أن الدماء كانت تجري على درعه ورمحه من شدة القتال وكثرة من قتلهم بنفسه وهو يقرأ القرآن ويحمس الناس.

وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا الجيش الصقلي شر هزيمة، وفر قائدهم من أرض المعركة وانسحب إلى مدينة قصريانة، ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين ففر إلى إيطاليا وهناك قتل على يد بني دينه بسبب جبنه وإحجامه عن قتال المسلمين.

وزحف البيزنطيون بعد ذلك إلى المسلمين وهم يحاصرون مدينة "سرقوسة"، واشتد حصار المسلمين لهذه المدينة برا وبحرا، وأصيب عدد كبير من المسلمين، وهلك عدد آخر، واشتد القتال عندما بعث الإمبراطور البيزنطي مددا لصقلية، وجُرح ابن الفرات وهو يبدي حسن التدبير، وصدق الإيمان، وقوة الإرادة، فمات رحمه الله متأثرا بجراحه، ودفن بمدينة "قصريانة". [من محاضرة "فتح صقلية" لفضيلة الشيخ د/ ناصر الأحمد]

☆ وهذا العالم المجاهد **عز ٱدذين ٱمغدبَ**، ولــد في اللاذقيــة بســوريا عــام ١٣٠٠هـــ، ونشأ في أسرة كريمة، وعاش في بيئة إسلامية، وكان مضرب المثل بين أبنــاء بلده ذكاءً وتفوقا وخلقا. أرسله أبوه للدراسة في الأزهر، فكان على اهتمــام بــالغ في دراسته، ومتابعة مستمرة لحركات التحرر في الوطن الإسلامي.

وبعد أن أتم تعليمه العالي في الأزهر عاد إلى سوريا واشتغل بالتعليم والوعظ، وغــدا بخطبه ودروسه وسلوكه موضع احترام الناس، وامتدت شهرته وسمعته الحسنة إلى المناطق المجاورة فقدم الإسلام بفهمه الواسع الطلق، وربطته بكثير من المواطنين صداقات متينــة، فكثر أتباعه، وعظم شأنه، وذاع صيته.

لما دخلت القوات الإيطالية طرابلس الغرب (ليبيا) عام ١٩١١، قاد القسام مظــاهرة طافت شوارع "جبلة" تأييدا للمسلمين هناك، ودعا الناس إلى التطوع لقتــال الطليــان، وجَمع التبرعات للأسر المنكوبة، إلا أن السلطات منعته ورفاقه المتطوعين من الســفر إلى ليبيا، فعادوا بعد أربعين يوما من الانتظار، وبنوا مدرسة بمال المتبرعين لتعليم الأمّيين.

وعندما دخلت القوات الفرنسية سوريا عام ١٩٢٠، رفع القسام راية المقاومة ضد المستعمرين الفرنسيين في الساحل الشمالي لسوريا، وكان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في الثورة (١٩١٩ـ ١٩٢٠) مع المرحوم عمر البيطار، فقد ترك قريته على الساحل، وباع بيته؛ وهو كل ما يملك، واشترى أربعا وعشرين بندقية، وانتقل بأسرته إلى قرية جبلية ذات موقع حصين.

حاول الفرنسيون إقناع الشيخ القسام بترك الثورة والرجوع إلى بيته وإغرائه بالمناصب، إلا أنه رفض عرضهم، ونتيجة لإصراره على خط الجهاد حكم عليه الديوان العرفي الفرنسي في اللاذقية وعلى مجموعة من أتباعه بالإعدام، وطارده الفرنسيون فقصد دمشق ومنها إلى فلسطين.

هاجر من سوريا مع اثنين من إخوانه المجاهدين، وأقام في حيفا بفلسطين، واحتفى بهم أهل حيفا احتفاء بالغا، لما عرفوا في الشيخ من صلابة وشجاعة في الجهاد، وتواضع وصدق في القول والسلوك، وحاولوا تأمين مخصصات شهرية لهم، لكن الشيخ وأخويه رفضوا ذلك وأصروا على أن يعيشوا من عملهم، وتولى الشيخ إمامة جامع الاستقلال وخطابته، بينما اشتغل زميلاه بالزراعة، ولما استفحل الخطر الصهيوني في فلسطين ثار القسام على الإنجليز، وظهرت بطولته في معارك خاضها في عصبة من رجاله، يقاتلون كلما وجدوا سبيلاً إلى القتال، ويأوون إلى المغاور والكهوف.

آمن هذا الرجل بأن الجهاد هو السمة المميزة للأمة الإسلامية في طريقها الطويل، وهو الطريق المرسوم إلى الهداية والتمكين في الأرض، وإرضاء الله تعالى. قَدِم الشيخ المجاهد إلى فلسطين، وبريطانيا تقوم بدورها الصليبي الحاقد بتهيئة البلاد لإقامة وطن قومي لليهود، وكانت حيفا يومئذ مرفأ فلسطين الأول، وفيها يتجلى معترك عنيف بين المسلمين واليهود، واستقر القسام في حيفا، وتطلع إلى هذا الأفق فلم يطمئن إليه قلبه، وأصبح يرى مشروع الوطن القومي اليهودي عن كثب ينمو لبنة لبنة، ويرى حرص الإنجليز على كسر

شوكة المسلمين.

شعر القسام بخطورة اليهود وعرف نواياهم فصار يخطط في إقامة الجهاد على أرض فلسطين، وبدأ يفكر بالثورة والجهاد، وللجهاد في الإسلام مقدماته ومقوماته، من الإعداد المستمر معنويا كان أم ماديا، وحدد القسام ثلاثة أهداف للجهاد والثورة المسلحة وهي:

- طرد الاستعمار البريطاني من فلسطين.
- منع إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين.
- إقامة دولة عربية إسلامية تعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية بين الدول العربية.

وتلفت الشيخ من حوله إلى أوضاع البلاد العربية فإذا هي ممزقة، يعيث فيها الاستعمار فسادا، وكل شعب منشغل بحاله وبالمشكلات التي أوجدها له الاستعمار، فكان قوله: "إن علينا نحن عرب فلسطين، الاعتماد على أنفسنا، وعلى إمكاناتنا الذاتية، لا ننتظر حتى تهبط علينا النجدات من السماء، ولا حتى تصلنا من وراء الحدود". وبدأ العمل لتنفيذ فكرته بخطوات ثابتة وعمل متواصل ومراحل مدروسة.

المرحلة الأولى: مرحلة الإعداد وتهيئة الأجواء للثورة: بدأ الشيخ بإعداد الجهاد في فلسطين بحيث ينتمي إليها الذين يقع عليهم الاختيار ليكونوا طلائع الثوار، بحيث يتم ذلك بكتمان وسرية، والكتمان ضروري حتى لا يقع أحد فريسة بين براثن ذئاب الاستعمار، وينكشف أمر الثورة، وكانت أبسط مستلزمات اختيار الأعضاء أن يجد الشيخ الفرصة والوسيلة للاتصال بأكبر عدد من أبناء الشعب ومن مختلف فئاته.

وقد وجد الرجل الطريق إلى ذلك، فقد عمل خطيبا في جامع الاستقلال، أكبر مساجد حيفا، ومكنه هذا من التعرف على عدد كبير من المواطنين الذين يستمعون إلى دروسه وخطبه، فكان عندما يخطب على المنبر يراقب المصلين، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد لزيارته في منزله، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهددها من خطر. كما أنشأ مدرسة ليلية لمكافحة الأمية والاتصال بالناس، وكان عمله

سرًّا حتى لا ينكشف عند رجال الاستعمار، ولما انبثقت في فلسطين جمعية "الشبان المسلمين" وكان لفرع حيفا سباقا في هذا المضمار، رأى القسام أن الفرصة قد واتته، ووجد السبيل إلى توسيع نطاق صلاته بالناس، فالتحق بها، وانتُخب رئيسا لها، وبذلك أتيحت له فرصة أكبر ليقوى رجاله، وكان لابد أن يتصل بالقرى، ولابد من وسيلة تستر زياراته لها، فتقدم بطلب مأذون شرعي وُوفق على تعيينه، وبدأ يخرج إلى القرى، واستعان على أمره بالكتمان، لذلك كان لا يبوح بالسر الكبير الذي يحمله؛ وهو الدعوة للثورة ضد الاستعمار إلا لأشخاص قلائل جدا، بعد أن يدرس نفسيتهم دراسة كافية لمدة قد تطول عدة سنوات، وبهذه الوسائل تَسنى للشيخ الاتصال بمختلف فئات المواطنين من شباب وشيوخ، وعمال وفلاحين، وطلاب وموظفين، وتجار وحرفيين من خلال الاتصالات التي قام بها الشيخ، وممن وجد فيهم الصفات المطلوبة.

شرع الشيخ عز الدين بالمرحلة الثانية، فأخذ يختار طلائع الجهاد، وكان الشخص الذي يقع عليه الاختيار يخضع لتجربة ومراقبة تمتحن خلالها عزيمته وقدرته، وكان للعضوية في جيش القسام شرطان:

أولهما: أن يقتني العضو السلاح على حسابه من خاص ماله.

والثاني: أن يدفع اشتراكه الشهري البالغ عشرة قروش، ويتبرع بما يستطيع من دخله.

انتشرت طلائع القسام في أوساط الشعب على نطاق واسع، ولكن بحذر شديد، يُبصِّرون المواطنين بأبعاد الهجرة اليهودية إلى البلاد وآثارها في المستقبل، في الوقت نفسه عمل الشيخ وإخوانه على نشر روح المحبة والتآلف بين المواطنين، وبدأت روابط الوحدة الوطنية تقوى وتشتد بعد أن كان الإنجليز قد مزقوها بما أثاروا من حزازات وعداوات عشائرية وقبلية، وفي الوقت نفسه قام بتقسيم المجاهدين إلى وحدات منظمة، ومن هذه الوحدات: على سبيل المثال لكي يتضح كم كان عمل القسام منظما ودقيقا. فهناك وحدة خاصة بشراء السلاح، ووحدة التدريب العسكري، ووحدة مراقبة تحركات العدو

البريطاني واليهودي، ووحدة الدعاية في المساجد والمجتمعات، ووحدة جمع المال من الأعضاء والأنصار، ورعاية أسر المعتقلين والشهداء، وكان للمرأة دور بارز في هذا المجال. وقد جعل لكل وحدة رئيسا يتابع عملها.

وكان القسام يرى أن إمكانيات الشعب الفلسطيني لابد أن تُسخَّر للجهاد، وكان ينتقد ويقاوم بشدة إنفاق أموال الأوقاف في تشييد الأبنية والفنادق وتزيين المساجد، حتى ولا المسجد الأقصى المبارك؛ لأن إعداد الشعب وتسليحه للجهاد لخوض المعركة أفضل وأحق من الأمور الشكلية التي يمكن إنجازها في أوقات أكثر مناسبة، فمئات الألوف من الجنيهات كان بالإمكان تسليح خمسة آلاف مجاهد بها آنذاك

واستمر الشيخ في الإعداد للجهاد سنين عددًا، والناس تلتف من حول حركته التي تستميل المخلصين والغيورين على كرامتهم ومقدساتهم وبلادهم، ولم يحن عام ١٩٣٠م حتى بلغ أعضاء الحركة العاملين نحو مائة، بينما كان الأنصار بالمئات. وفي سنة ١٩٣٠م وعندما ازدادت هجرة اليهود إلى فلسطين بتنظيم من الإنجليز، ذهب وفد عربي من قادة الرأي في البلاد إلى لندن ليستجدي "العدل" ويستعطي "العطف" ورجع بخفي حنين، وعلى هذا المنوال كان فشل جميع الوفود العربية.. فالإنجليز ماهرون في فن الاستعمار، كانوا يستقبلون الوفود ويشكلون اللجان لدراسة الأوضاع، ويصدرون البيانات، وبهذا يقتلون الوقت ولا يفعلون إلا ما يكفل لقافلة اليهود اطراد المسير.

وكان القسام على بينة من أمره، عالم بمكر اليهود والإنجليز، ماضٍ في دعوته، وكان على يقين بأن جميع وفود العرب ومؤتمراتهم لن تجدي شيئا، وأن الطريق الوحيد لإنقاذ أرض الإسراء والمعراج هو الجهاد في سبيل الله، كان الإنجليز يدربون اليهود على القتال، ويسهلون لهم عملية استيراد الأسلحة، وحدث أن قام اليهود خلال الحرب العالمية الثانية باستيراد الأسلحة من بلجيكا بمقادير كبيرة مخيفة في براميل الأسمنت وصناديق البضاعة،

ووصلت إلى حيفا باسم بعض المحلات التجارية اليهودية، فتحطم منها صندوق على الرصيف فإذا به يحتوي على مسدسات وقنابل وبنادق سريعة الطلقات..

وعلم سكان حيفا بالأمر، وذُعر الناس وقامت المظاهرات والاحتجاجات أما القسام ورجاله فلم يعبأوا بهذه التظاهرات، وواصلوا عملهم واستعدادهم لإعلان الجهاد وبدء المعركة.

عندما قطع القسام شوطا من الإعداد المعنوي والمادي، وحصل على قدر من السلاح، وكان أحد المجاهدين يصنع القنابل على الطريقة البدائية. أراد القسام عام ١٩٣٤م أن يمتحن سلاحه ورجاله، فبدأ بعدد من العمليات على سبيل التجربة.

كانت الأولى حيث قام بعض المجاهدين بقتل عدد من اليهود وجرح عدد آخر، والثانية كانت بتصدي رجاله لسيارات تنقل العمال اليهود من مستعمرة إلى أخرى، وقتل في هذه العمليات عدد من اليهود، ولم تتمكن الحكومة من اكتشاف المجاهدين؛ لأنهم كانوا من الحذق والمهارة بحيث لم يمسكوا عليهم شيئا.

وكانت العمليات الفدائية ضد المستوطنات اليهودية عن طريق إعداد كمائن والهجوم على أفراد محددين ومستوطنات معينة، بهدف دفع اليهود في الخارج إلى وقف الهجرة إلى فلسطين.

ولم تكن أعمال القسام مهاجمة المستعمرات فحسب، وإنما قاموا بمجموعة أعمال أخرى ذكرها الأستاذ أميل الغوري في كتابه "فلسطين عبر ستين عاما" فقال: [أما الأعمال التي قام بها القساميون فكانت من أروع ما قام به المجاهد في فلسطين، وعلى الرغم من كثرتها وتعدد أشكالها ومظاهرها، فإنها ظلت محاطة بالسرية والكتمان إلى مدى كان معه أكثر الناس يجهلون مصدر هذه الأعمال، بل كانوا لا يعرفون إطلاقا بوجود حركة القساميين، **وكان من هذه الأعمال: ملاحقة وتأديب الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، والتجسس لحساب**

المخابرات البريطانية، أو بيع الأراضي لليهود أو السمسرة عليها للأعداء. وكان من أعمال القساميين العديدة الواسعة النطاق، التصدي لدوريات الجيش والشرطة، وقطع طرق المواصلات والإغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية، وزرع الألغام والمتفجرات فيها.] اهـ

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه أعمال القسام بمثابة الروح التي سرت في أوصال الأمة، فحركت الهمم وشدت العزائم، وحفزت الناس إلى العمل، كانت الحكومة البريطانية تعلن عن مكافآت ضخمة لمن يدلي بأية معلومات عن منفذي هذه الأعمال، لأنها فعلا ألقت الرعب في قلوب اليهود الذين رأوا ولأول مرة عملا جديدا من حديد ونار، وهذه لم يتعود عليها اليهود في فلسطين.. وازدادت الحكومة البريطانية واليهود ذعرا وبثوا الأرصاد، ونشروا الجواسيس في الليل والنهار، وصار الاعتقال لمجرد الشبهة.

عقد القسام مباحثات سرية مع رجاله بالقدس وتم الاتفاق على انتهاج خطة معينة لمقارعة الأعداء، ثم دعا قادة الجهاد وتدارس معهم الموقف، وكان قرار بدء الثورة..

وتبعه الأمر القيادي الأول: ليتوجه كل إلى أهله؛ يستودعهم الله ويعاهدهم على اللقاء في الجنة

وبعد أن اجتمع القسام بإخوانه، خرج بعد صلاة العشاء من جامع الاستقلال في حيفا، وكتب إلى أخيه وسنده في الجهاد الشيخ رشيد الحاج إبراهيم يقول: "إني واثق من نفسي، وإن صوتي سيجد صداه في كل مكان عند أول صيحة، ونستودعك الله، راجين من المولى تعالى أن يوفقنا في أعمالنا لتحرير الوطن".

وتوجهت الطلائع إلى منطقة جنين التي تبعد عن حيفا نحو ٤٠ كم، لتبدأ بعد ذلك أعمال الثورة وإقامة قواعد سرية في جبال وقرى جنين، وخرج مع القسام في تلك الليلة مجموعة من أصحابه يقدرون بخمسة وعشرين اتجهوا إلى الغابات، وصمموا على الجهاد مهما تكن العاقبة، وقامت الصيحة عند الأعداء، **فإن أخوف ما يخافه الإنجليز واليهود هو**

عودة الأمة إلى عقيدة الجهاد، وجرد الإنجليز عليهم قوات كثيفة، وطوقوهم بعدد ضخم وأسلحة فتاكة استخدموا فيها الطائرات، فانسحب المجاهدون إلى أعلى الجبال، ولاحقهم الجنود وترصدوهم من الجو، وبدأت المعركة منذ ساعات الفجر الأولى، ووزع القائد رجاله في مواقع حصينة وسط الصخور العالية والأشجار بحيث يسهل عليهم الدفاع، وكان في مقابل كل بطل منهم ما يزيد على الأربعين من جنود العدو، واحتدم القتال والرصاص ينهال عليهم من كل صوب، والمجاهدون صامدون كالنسور في مواقعهم، يقاومون بضراوة وإيمان، مع ما لديهم من سلاح وعتاد محدود، وأبوا الفرار وكانوا يستطيعونه، وبدت أمامهم فرصة أخرى للنجاة، عندما ناداهم الضابط البريطاني: استسلموا تنجوا.

ولكن الشيخ صرخ في وجهه: لا.. لن نستسلم، هذا جهاد في سبيل الله.. ثم التفت إلى أصحابه وهتف بهم: موتوا شهداء.. فردد الجميع، ورددت سفوح الجبال من حولهم النداء: لبيك يا فلسطين.. لبيك يا فلسطين.. جئناك مستشهدين.. الله أكبر.. الله أكبر..

وكانت معركة رهيبة استمرت يوما كاملاً بين المجاهدين والقوات البريطانية صمد فيها رجال القسام، وقاتل شيخهم قتال الأبطال، وظل يكافح وينزل بالأعداء الخسائر، حتى خر صريعا في ميدان الجهاد، شهيدا كريما في سبيل الله والإسلام. واستشهد في المعركة بعض إخوان القسام، وجُرح آخرون منهم وتم أسرهم..

وسرى خبر استشهاد القسام في أنحاء فلسطين مسرى النار في الهشيم، وحمل المواطنون جثمان الشهيد إلى حيفا، المدينة التي شهدت ميلاد الثورة، ومن هناك انطلق موكب تشييعه، وكان مهرجانا حقيقيا أشرفت عليه الهيئات الإسلامية، وقام به الفقراء والعمال والفلاحون الذين أحبهم فأحبوه، وافتداهم بالروح فأعزوه وأكرموه، وانطلقوا سيرا على الأقدام يحملون جثمان الشهيد على أكتافهم إلى بلدة الياجور، وهم يجددون العهد على المسير حتى تتحقق أهداف الشيخ القسام.

أما رفاق القسام وتلاميذه فلم يكونوا مع المشيعين، فقد أكرموا استشهاده واحتفوا به بالأسلوب الذي علَّمهم، وعلى الطريق الذي خطاه، ففي اليوم الثاني لوفاته انطلق رفيقه الشيخ فرحان السعدي على رأس مجموعة من أنصاره، ورابطوا في جبال صفد يقارعون الإنجليز، واستمر الصراع على أشده..

وكانت ثورة القسام المشعل الذي أنار الطريق، والمحرك الذي ألهب النفوس وأثار الشعور الإسلامي، وفتح باب الجهاد على مصراعيه للشعب الفلسطيني، فخاضه في ربيع عام ١٩٣٦م في ثورة هائلة عمَّت فلسطين من أقصاها إلى أقصاها.[١]

ٱأضـ عن ديـ عظيـ ثرُ ... عطـاءَ ٱمِـلٍّ ٱـ جَـتي وحيـاذيـا

فـٱ رثِـ ٱللهِ أعَـ جـ ... يـمۡيُ: أـا ٱدـ ذَ عأحمي دينيـا

تـظَـش تبطنيۤٱزساع تـٱمـتي ... بجنبي بعظمۤٱصذس درٰ التراقيا

على رِسۡج ٱوحيـ نخَفِـكُ رايتي ... ٱذ ذذَ روابيـ ا ذَصُـبٌ دِـائيـا

☆ في قرية سيلة الحارثية، من أعمال جنين بفلسطين، ولد **عبد الله يوسف عزام** سنة ١٩٤١م. تربى في أسرة ريفية متدينة، في كنف والده الوقور يوسف عزام. وتلقى علومه الابتدائية والإعدادية في مدرسة القرية، وبدأ دراسته الثانوية في مدرسة جنين الثانوية ولم يمكث فيها طويلاً حيث قبل للدراسة في المدرسة الزراعية الثانوية (خضورية) في مدينة طولكرم. وحصل على شهادتها بدرجة امتياز عام ١٩٥٩م.

---

[١] من محاضرة عز الدين القسام لفضيلة الشيخ د/ ناصر الأحمد – الشيخ عز الدين القسام: موقع إسلام أون لاين

تنقل عبد الله عزام وهو طفل بين مرابع القرية، وكان يرى أمام ناظريه سهول مرج ابن عامر الذي اغتصبه اليهود عبر المؤامرات الدولية، فأخذ يهيئ نفسه ويعدها إعدادا إيمانيا، فكان منذ صغره محافظا على الصلوات، دائبـــا على تلاوة القرآن، كما كان ملازما لمسجد القرية.

عاش عبد الله عزام منذ يفاعته في سيلة الحارثية مع الأستاذ شفيق أسعد، الذي كان يتولى رعاية مجموعة من أبناء القرية، يربيهم على أخلاق وأفكار ومبادئ دعوة الإخوان المسلمين، فكان الشيخ عبد الله عزام في أوائل الدعاة في القرية.

كما تعرف الشيخ عبد الله في مدينة جنين على الداعية المربي الشيخ فريز جرار، الذي كان هو والأستاذ شفيق أسعد من أنشط الدعاة في تلك الفترة تربية للشباب.

بعد حصوله على شهادة (خضوري) الزراعية تم تعيينه معلما في قرية أدر بمنطقة الكرك جنوب الأردن، وبقي فيها سنة واحدة، حيث نقل إلى مدرسة برقين الإعدادية بالقرب من مدينة جنين.

وكان كثير المطالعة لكتب الدعوة، وخاصة كتب الإمام حسن البنا وعبدالقادر عودة وسيد قطب ومحمد قطب.

تابع عبد الله عزام دراسته الجامعية في كلية الشريعة بجامعة دمشق، ونال منها شهادة الليسانس في الشريعة بتقدير جيد جدا سنة ١٩٦٦م، وفي دمشق التقى مع بعض علماء الشام فتتلمذ عليهم وصاحبهم.

بعد عام ١٩٦٧م، وسقوط الضفة الغربية وقطاع غزة في أيدي اليهود، دخل اليهود سيلة الحارثية، وحاول عبد الله عزام مع مجموعة من الشباب من أهل القرية الوقوف في وجه الدبابات الإسرائيلية، فنصحهم أهل القرية بالتريث لأنه ليس بمقدورهم ذلك.

فخرج عبد الله عزام مشيا على الأقدام مع غيره من أهل القرية إلى الأردن، ولكن خروج عبد الله عزام من بلده ما زاده إلا عزما وتصميما على الجهاد في سبيل الله، فبدأت فكرة التدريب على السلاح للوقوف في وجه اليهود تلح عليه. وكان الشيخ عبد الله عزام من أوائل التشكيلات الإسلامية التي انضوت مع حركة فتح للتدريب على الجهاد. قرن الشيخ عبد الله عزام جهاده وتدريبه بانتسابه إلى جامعة الأزهر في مصر لدراسة الماجستير في أصول الفقه. وحصل الشيخ على الماجستير في عام ١٩٦٩م.

وقد اشترك الشيخ في تلك الفترة بعدة عمليات جهادية كان أشهرها معركة الحزام الأخضر عـــام ١٩٦٩م، ومعركة ٥ حزيـــران ١٩٧٠م وقد تكبد اليهود في هذه المعارك أعدادا كبيرة من القتلى، إلا أن شباب الحركة الإسلامية لم يحاولوا أن ينسبوا هذه العمليات إليهم لأنهم يجاهدون في سبيل الله لا من أجل اكتساب شعبية أو الحصول على الثناء.

وفي عام ١٩٧١م ذهب الشيخ إلى مصر لتحصيل درجة الدكتوراه، وحصل عليها في عام ١٩٧٣م.. وفي مصر وجد الشيخ لنفسه مهمة جهادية أخرى هي مد يد المساعدة لأسر المعتقلين من الإخوان على الرغم من مضايقة المخابرات المصرية له.

لما عاد الشيخ إلى الأردن عمل مسؤولا لقسم الإعلام بوزارة الأوقاف، فكان له الفضل في تنشيط المساجد والوعاظ؛ حيث طعم القسم بطاقات شابة قادرة على الدعوة، وأصدر نشرات لنشر الوعي الإسلامي.

ثم عمل مدرسا وأستاذا بكلية الشريعة في الجامعة الأردنية مدة سبعة أعوام ١٩٧٣-١٩٨٠، عمل فيها في مجال الدعوة والتدريس، وكان متميزا

بطريقته وأسلوبه في الدعوة إلى الله، ولذلك كان كثير من الشباب خارج الجامعة يحرصون على حضور محاضراته، وكان له الفضل في فصل البنات عن البنين في المحاضرات.

كان الشيخ في هذه الأثناء على اتصال دائم مع حركة المقاومة الإسلامية (حماس) عن طريق اتحاد الطلبة المسلمين؛ حيث كانوا يوافونه بأخبار الجهاد أولا بأول. وكان يعد الشباب الذين لديهم التصاريح ويستطيعون الذهاب إلى فلسطين، ويرسلهم بعد الإعداد وينصحهم بأن يبقوا في فلسطين وينضموا إلى المجاهدين هناك، وكان كثيرا ما يجمع التبرعات أثناء جولاته في المدن العربية باسم الجهاد في فلسطين، ويدعو الله دائما أن يجعل له سبيلاً وطريقا للجهاد في فلسطين من أجل تحرير مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي عام ١٩٨١ سافر إلى السعودية للعمل في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، ثم طلب العمل في الجامعة الإسلامية بإسلام أباد في باكستان قريبا من الجهاد الأفغاني، فانتدب لهذا العمل، وعندما اقترب من المجاهدين الأفغان وجد ضالته المنشودة وقال: "هؤلاء الذين كنت أبحث عنهم منذ زمن بعيد"

بدأ الشيخ عمله الجهادي في أفغانستان عام ١٩٨٢ باستقبال القادمين للجهاد من الشباب العرب، ثم قام في عام ١٩٨٤ بتأسيس مكتب خدمات للمجاهدين وتفرغ له؛ ليكون مؤسسة إغاثية جهادية متخصصة بالعمل داخل أفغانستان وقد ساهم هذا المكتب في:

❖ تحويل قضية الجهاد الإسلامي في أفغانستان إلى قضية إسلامية عالمية، والعمل على إيقاظ الهمم واستنفار المسلمين في أرجاء العالم للوقوف بجانب هذا الجهاد المبارك.

- ❖ التعريف بقضية الجهاد عن طريق مجلة "الجهاد"، ونشرة "لهيب المعركة" وهي أسبوعية تتناول آخر الأحداث المستجدة على الساحة الأفغانية، بالإضافة إلى الكتب والمنشورات التي كان يصدرها الشيخ في باكستان، وكذلك خطبه في المساجد والمحاضرات المتخصصة التي كان يلقيها للتحريض على الجهاد، وتصوير بطولات المجاهدين إلى العالم أجمع؛ حيث كان النافذة التي يطل الأفغان من خلالها إلى العالم.
- ❖ في ميدان التربية والتعليم: إقامة الدورات التدريبية لقادة الجهاد، فتح المدارس داخل الخنادق، وإقامة المراكز التربوية في أرض المعركة، فتح دور القرآن الكريم تحت قصف المدافع، وطباعة الكتب، فقد طبع أربعمائة ألف نسخة من القرآن الكريم في سنة ١٩٨٨ وأدخل معظمها إلى المدارس في أفغانستان.
- ❖ تزويد القوافل وترحيلها وتجهيز الجبهات.
- ❖ الاعتناء بضحايا الحرب وجرحاها؛ بإنشاء خمس مستشفيات في داخل أفغانستان بالإضافة إلى تأسيس مستشفى مكة المكرمة، والمختبر المركزي، وعيادة الطب الطبيعي.
- ❖ إيقاف سيل الهجرة المتدفق؛ بكفالة العلماء والقادة الذين يحرضون على الجهاد بين الحمم المتساقطة.
- ❖ العناية بأبناء الشهداء وذلك بفتح قسم كفالة الأيتام والأرامل في داخل أفغانستان، وبناء دور للأيتام.
- ❖ رفع معنويات الإخوة المجاهدين الأفغان.
- ❖ انصهار الطاقات الجهادية في بوتقة إسلامية: عربيها وأفغانيها.

❖ تشكيل لجنة العلماء لإصدار الفتاوى واستنهاض الهمم ودحض الآراء الفاسدة.

ولقد كان الشيخ عبد الله عزام من أوائل السباقين للجبهة يتقدم الشباب ويقدم نفسه أمامهم قدوة لهم في الإقدام والتضحية، فقد خاض معارك كثيرة ضد الروس كان من أشدها وأشرسها "معركة جاجي" في شهر رمضان سنة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م

ألأ ٱؤصرة في الدعوة ٱ جهاد:

- إن الأبطال الحقيقيين هم الذين يخطون بدمائهم تاريخ أممهم ويبنون بأجسادهم أمجاد عزها الشامخة.

- لقد رأيت أن أخطر داء يودي بحياة الأمم هو داء الترف الذي يقتل النخوة ويقضي على الرجولة، ويخمد الغيرة ويكبت المروءة.

- لقد عودتنا التجارب أن نرى التكالب العالمي على كل قضية إسلامية تقترب من النصر، أو على كل داعية أصبح شامة في جبين الدهر.

- الجهاد بالنفس ضرورة حياتية للمسلم ليتحرر من الخوف والوهم والرعب الذي يغتصب به الطواغيت حقوق الأمم.

- الشهداء هم الذين يحفظون شجرة هذا الدين من أن تضمحل أو تذوي، لأن شجرة هذا الدين لا تروى إلا بالدماء.

- المسلم أعز ما يكون حينما يكون مجاهدا في سبيل الله.

- لا فرق بين رصاصة شيوعي في باكستان ورصاصة شيوعي في أفغانستان، ورصاصة عميل لليهود أو الأمريكان.. الكل قتل في سبيل الله مادامت النية خالصة له.. ولقد اخترنا الموت طريقا للحياة.

وقد عمل جاهدا على توحيد صفوف قادة المجاهدين

والتوفيق بينهم منعا للفرقة والاختلاف.

استمر الشيخ في جهاده حتى استشهـــد مع ولديه محمد وإبراهيم في باكستان، وهو متجه إلى مسجد "سبع الليل" الذي خصصته جمعية الهلال الأحمر الكويتي للمجاهـــدين العـــرب؛ إذ كانت الخطب في المساجد الأفغانية بلغة الأوردو، فحضر لإلقاء خطبته يوم الجمعة ٢٥/٤/١٤١٠هـــ الموافق ٤/١١/١٩٨٩م وانفجرت به سيارته التي لغمها له أعداؤه الذين لم تثبت هويتهم إلى اليوم..!!

ودُفن يوم وفاته في باكستان، وفُتح باب العزاء له بالأردن، حتى إن شيخ عشيرة العزام/ إبراهيم ناجي العزام تقبل التعازي به من الملك الحسين بن طلال؛ حيث كان يومها القتال في أفغانستان غير مستنكر في النظام السياسي العربي!![1]

لبئذ ِن أعظم قا دح اُجَد في القرن العشرين:

وُلد **عبِشثصّدب ُخث دّ عبد الله اُسويلم اُشهيرثد."خطّبة"** عـــام ١٣٨٩هـــ في مدينة "عرعر" شمال المملكة العربية السعودية، ينتمي لعائلة خـــيرة طيبـــة اشتهرت بالشجاعة والشهامة حتى أن جده عبد الله عرِف في منطقـــة الإحســـاء بـــــ "النشمي"، ولو لم تنجب هذه العائلة إلا خطابا لكفاها شرفًا وسؤددا..

وفي "عرعر" كان والده يأخذه مع إخوته كل أسبوع إلى المناطق الجبليـــة يعلمهـــم الشدة والشجاعة، ويحفزهم بالجوائز، ويطلب من أولاده العراك والصراع حـــتى تشـــتد سواعدهم، وفي هذا الجو بدأت تظهر آثار النجابة والشجاعة على خطاب، ثم انتقل والده

[1] بتصرف من كتاب "الشهيد عبد الله عزام رجل دعوة ومدرسة جهاد"/ نقلا عن موقع مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية الاستراتيجية.

رحمه الله بأبنائه إلى منطقة "الثقبة" بالقرب من "الخُبَر"، وهناك تربى خطاب في حي مشهور أخرج دعاة وصالحين وهو حي"الصبيخة".

وكان بيت خطاب كأي بيت في ذلك الوقت من جهة حب الدين والاهتمام بشعائره الظاهرة إلا أنه كان يتفوق على كثير من البيوت بالاهتمام بالشريط الإسلامي والمجلة الإسلامية، وهذه كانت شبه معدومة في ذلك الوقت، ولهذا لا غرابة إذا قلنا: إن البيئة التي نشأ فيها خطاب كانت مهيئة لإخراج القائد المجاهد خطاب رحمه الله.

وكان رحمه الله يتحدث بأربع لغا ت: العربية والروسية والإنجليزية والبوتشو.

وقد استشهد في أوائل شهر صفر من عام ١٤٢٣ هـ وله من العمر ثلاثة وثلاثين عاما.. نسأل الله أن يرفع قدره، ويعلي درجته في عليين..

وبْ خطبة فيثذايةقرحبثٌ يحلم كأي شاب بالوظيفة والرتبة العالية، ولهذا عرف بتفوقه الدراسي، حتى أنه حصل على الثانوية العامة – علمي بمعدل أكثر من ٩٤ % وكان أمله أن يدخل شركة "أرامكو" بمنطقة الظهران شرقي السعودية في نظام CBC وهو نظام يتيح للدارس الابتعاث إلى أمريكا، وهي أمنية كل شاب في ذلك الوقت يرجو الرتبة العالية، وفعلا تحققت أمنيته ودخل في ذلك النظام التدريبي، وكان يستلم راتبًا شهريا قدره ألفان وخمسمائة ريال، وجلس على مقاعد الدراسة قرابة النصف سنة، وقد نال إعجاب معلميه وزملائه.

ولكنه ترك الدراسة بعد أحداث أفغانستان الأولى، وضحى بحلمه راجيًا ما عند ربه متيقنًا أن من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير منه.

ِشاس أهَد:

التحق خطاب بالجهاد الأفغاني عام ١٤٠٨ هـ بعد رمضان مباشرة، وكان لا يزال في السابعة عشر من عمره، وما أن وصل حتى طلب من أحد القادة الميدانيين أن يكون في الصفوف الأولى للقتال فرفض أن يلبي له طلبه حيث أنه كان صغيرا و لم يتدرب.. وعند

ذلك توجه خطاب إلى مراكز التدريب فأتقن استعمال السلاح بسرعة فائقة. وبقي في أفغانستان حتى جلاء القوات الروسية عام ١٤١٢ هـ. وقد ظهرت حنكته وبراعته في مدينة "لوجر" الأفغانية، ووُلي قيادة "سرية أُحد" التي أصبحت فيما بعد نموذجا يحتذى به في سرايا المجاهدين. ثم انتقل بعد ذلك إلى طاجيكستان لمدة سنة واحدة، حتى أصيب في معركة من المعارك، وقطعت أصبعين من أصابع يده اليمنى بسبب قنبلة يدوية، واضطر إلى الذهاب إلى الشيشان لعلاج يده واستقر به المقام والجهاد هناك.

هكذا بدأ المشوار الجهادي عند خطاب، فدخل جبهات القتال وحارب الروس والشيوعيين من خلال الكمائن والعمليات والغارات، كما أنه حضر أغلب العمليات الكبرى في الجهاد الأفغاني منذ عام ١٩٨٨م؛ ومن ذلك فتح "جلال آباد" و"خوست" وفتح "كابل" في عام ١٩٩٣م، وقد نجا من الموت عدة مرات بأعجوبة، ولكنه كان على يقين أن وقته لم يحن بعد.

يصف أحد المجاهدين كيف أصيب خطاب بطلق ناري في بطنه بواسطة مدفع رشاش ثقيل من عيار (٧,١٢ مم) [1] في أفغانستان، يقول: خلال إحدى العمليات كنا نجلس في حجرة في الخط الخلفي، كان الوقت ليلاً وكان القتال في الخطوط الأمامية شديدا. بعدها بعدة دقائق دخل خطاب علينا الحجرة، وكان وجهه شاحبا ومع ذلك فقد كان يتصرف تصرفا طبيعيا. دخل الحجرة ماشيا ببطء ثم جلس في الناحية الأخرى من الغرفة بجانبنا وكان هادئا لا يتكلم على غير عادته، فأحس الإخوة أن هناك شيئًا غير طبيعي على رغم أنه لم ينبس ببنت شفة، ولم يظهر أي حركة توحي بأي شيء من الألم، فسألناه إذا كانت به إصابة؟ فأجاب أنه قد أصيب إصابة بسيطة أثناء وجوده في الخطوط الأمامية لجبهة القتال، وأنها ليست إصابة خطيرة، فاقترب منه أحد الإخوة ليرى

[1] الطلقات عيار (٧,١٢ مم) تستخدم لاختراق الفولاذ والدروع، وكما يقول الخبراء إنها لو أصابت إنسانا فإنها تحول موضع الإصابة إلى عجين من اللحم والدم!

إصابته فرفض خطاب أن يريه شيئًا قائلاً: إنها ليست خطيرة.. فأصر هذا الأخ على رؤية إصابته ولمس ملابسه بيده ناحية البطن؛ فوجد الملابس غارقة في الدماء، والنزف لا يزال مستمرا بشدة، فأسرعنا ونادينا سيارة ونقلناه إلى أقرب مستشفى، في الوقت نفسه كان خطاب يردد طوال الوقت أن إصابته لا تستدعي كل هذا الاهتمام، وأنها إصابة بسيطة.

يفديكَ خلفَك كلّ رعديدٍ إذا ... ذَكرَ الجهادُ تخاذلوا
يفديكَ جيلُ اللهوِ في غفلاتِه ... وارتابوا طربًا يُدنسُ أرضَهُ الأغرابُ

وفي يوم ١٦ أبريل ١٩٩٦ قاد خطاب عملية من أجرأ العمليات، وكانت عبارة عن كمين، وفيها قاد مجموعة مكونة من خمسين مجاهدا للقضاء على طابور روسي مكون من خمسين سيارة مغادرة من الشيشان. تقول المصادر العسكرية الروسية أن عدد (٢٢٣) عسكريا قُتلوا من ضمنهم (٢٦) ضابط كبير، ودُمرت الخمسون سيارة بالكامل.

نتج عن هذه العملية إقالة ثلاثة جنرالات، وقد أعلن "بوريس يلتسين" بنفسه عن هذه العملية للبرلمان الروسي. وقد تم تصوير هذه العملية بالكامل على شريط فيديو توجد منها بعض الصور في موقع "عزام" وموقع "القوقاز" بشبكة الإنترنت.

بعدها بشهور نفذت نفس المجموعة عملية هجوم على معسكر روسي نتج عنه تدمير طائرة هليكوبتر، ومرة أخرى تم تصوير العملية بالكامل على شريط للفيديو.

وقد ظهر اسم خطاب مرة أخرى على الساحة في يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧ عندما قاد مجموعة مكونة من مائة مجاهد شيشاني وغير شيشاني، وهاجموا داخل الأراضي الروسية وعلى عمق مائة كيلو متر القيادة العامة للواء ١٣٦ الآلي، ودمروا (٣٠٠) سيارة، وقتلوا العديد من الجنود الروس.

ذكر المسئولون الروس طبقًا لإحصائياتهم أن عدد الجنود الذين قُتلوا خلال ثلاث سنوات من الحرب في الشيشان فاق أضعاف عدد الجنود الذين قتلوا خلال عشر سنوات من الحرب في أفغانستان!

ِبسار ٱصبس:

جرت عادته رحمه الله على رسم خريطة حول كل منطقة يريد العمل فيها سواء من جهة الأماكن أو الطبائع أو العادات أو الأشخاص. و لما ذهب إلى الشيشان لم يكن يعرف حقيقة هذه المنطقة فجعل من نفسه مراسلا إعلاميا يمر بين الناس، ويلقي عليهم الأسئلة، ويتحسس المعاني المهمة في أجوبتهم، وقابل "شامل باساييف"[1] بهذه الطريقة.

ولكن الموقف الذي هز شعوره، وحرك عواطفه هو لقاؤه مع عجوز طاعنة في السن حيث سألها خطاب: ماذا تريدون من قتال الروس؟ فقالت العجوز له بلغة الواثقة: نريد أن نخرج الروس حتى يرجع إلينا الإسلام.. فسألها" هل عندكِ شيء تقدمينه للجهاد؟ فقالت وقد كُسرِ خاطرها: ليس عندي سوى هذا المعطف أجعله في سبيل الله! فجعل خطاب يبكي بشدة..

وكانت هذه العجوز سببا في ظهور خطاب الرمز لنا.. فنسأل الله أن لا يحرمها الأجر، وأن يجعل معطفها مهرا تدخل به جنة ربنا، وأين هذه العجوز من الشمطاوات في إعلامنا اللاتي فسدنَ وأفسدن شباب الأمة؟!

---

(1) عند احتلال القوات الروسية للشيشان في ديسمبر ١٩٩٤ كان باساييف قائد جبهة. وقد خطط لعملية احتجاز الرهائن في مدينة "بودينوفسك" الروسية بتاريخ ١٤ يونيو ١٩٩٥. وكانت هذه العملية الشهيرة الناجحة تهدف للفت أنظار العالم للاحتلال الروسي للشيشان والفظائع التي يرتكبها. وفي شهر أبريل من عام ١٩٩٦ انتخب قائدا للقوات الشيشانية المسلحة، وأدار الهجمة الكبيرة التي استهدفت جيش الاحتلال الروسي في العاصمة جهار قلعة عند نهاية الحرب الروسية ـ الشيشانية الأولى. وأجبرت هذه العملية روسيا على القبول بمطالب المقاتلين والانسحاب من الأراضي الشيشانية. عند مهاجمة الوحدات الروسية لمنطقة بوتليخ الداغستانية في ١٢ أغسطس ١٩٩٩ توجه شامل باساييف إلى هذه المنطقة لمساعدتها والدفاع عنها. وعاد إلى الشيشان مطلع شهر سبتمبر من العام نفسه إثر غزو روسيا للشيشان مجددا. [باختصار نقلا عن موقع/ "وقف القفقاس"]

رأى خطاب أن الشيشان بلد خصبة للدعوة، فعمل محاضن دعوية لتكوين مجموعات دعوية جهادية على الخط الصحيح، فأنشأ "معهد القوقاز لإعداد الدعاة"؛ حيث يلزم كل شخص بالانضمام إليه قبل قبوله في الجهاد، فيخضع لدورة علمية مكثفة تقارب الشهرين، ثم ما لبث أن تكاثر الناس عليه يريدون العلم والجهاد حتى وصل عـــددهم إلى أربعمائـــة طالب جاءوا من التتر، وداغستان، وطاجيكستان، وأوزبكستان، والأنجوش وغيرها، وهذا ما أفزع روسيا.

ثم تطور العمل فأنشأ رَحِمَهُ اللَّهُ دارًا لتحفيظِ القرآن، ووضع برنامجًا لإعـــداد الـــدعاة، وبرنامجًا آخر لإقامة محاضرات في القرى، ودورة للتعليم الأساسي، ودورة لر فع مستوى الدعاة، وكما قال رَحِمَهُ اللَّهُ: رأينا أثر هذا العمل على المجاهدين في تضحياتهم وبذلهم.

وبذلك صار الجهاد في الشيشان مضرب الأمثال؛ فلا نزاع ولا تفرق ولا تشـــرذم. كلهم على قلب رجل واحد، وجعلوا لهم مفتيا لا يتجاوزونه أبدا وهو الشيخ أبو عمـــر السيف الخالدي حفظه الله تعالى.

المتتبع لسيرة خطاب سواء من خلال أحاديثه على الأشرطة أو تصريحاته الصـــحفية، يعر ف يقينًا أن هذا الرجل متشبع بالفكر السياسي الذكي، وقد استطاع أن يحفظ الجهاد الشيشاني، بل ويقدم له الانتصارات العسكرية المهمة، ونستطيع في هذه العجالة ذكر نقاط حساسة جدا تعامل معها رَحِمَهُ اللَّهُ بالعقل الواعي والفهم السليم والفكر الحاذق:

- كان رَحِمَهُ اللَّهُ يرفض فكرة تدويل القضية الشيشانية، لأنه يعلم أن الغرب الكافر لن يأتي إلا بشر، حيث أخذ دروسا مهمة من الجهاد في البوسنة، وكيف أن ثمـــرة الجهاد دمرت من خلال اتفاق دايتون الأمريكي الظالم، وإن كان أحيانا ينادي المجتمع الدولي بالقيام بواجباته تجاه الشعب الشيشاني، وكان يقول هذا من باب المناورة السياسية فقط.

- كان لا يستعدي الدول الإسلامية ضده، وهذه من أهم الأشياء التي حافظ بها خطاب على بقاء جهاده، فهو لم يسب حاكمًا مسلمًا بعينه في أي تصريح من تصريحاته، وهذا الذي جعل الحكومات المسلمة لا تحاول ملاحقة أتباعه ملاحقة دقيقة. نعم قد يحصل تحقيق وسجن ولكن كانت هذه الحالات قليلة إذا ما قورنت بما حصل في حرب أفغانستان القريبة، وكانت بعض الدول العربية قد تغض الطرف أحيانا عن مسألة جمع التبرعات لذلك الشعب والتي بدورها تصب في ميزانية جهاده.
- استطاع ضبط رفاقه بعدم التعدي على البلاد غير الإسلامية غير المعنية بالتراع، ولهذا لما طلبت روسيا من بعض البلدان العربية محاربة الإرهاب بدعوى أنه هو أساس الحرب الشيشانية لم تستجب لها ولا دولة، وكان موقف هذه الدول التهكم بذلك الطلب علانية، وبهذه الطريقة نجح خطاب بدرجة عالية من التخطيط أن يحصر عداوته مع الروس فصار العدو واحدا فقط، وهذا هون عليه المهمة الجهادية.
- جعَل القيادة العسكرية بيد الشيشانيين مع أنه أكثر شخص مؤهل لها، والسبب في ذلك أن الشعب الشيشاني عُرف بحميته لأرضه وعرقه، فخشي أن يكون ذلك مدخلاً لخلخلة الجهاد من خلال العملاء والخونة الذين يجيدون هذا النوع من المكر، وقد عمل تحت قيادة "جوهر دوداييف" القائد الشيشاني السابق، وُأعجب خطاب به لخفة نفسه وحسن تعامله، وارتفع في نفسه عندما سأله: ما هو هدفكم من الجهاد ياجوهر دوداييف؟ فقال القائد الشيشاني: كل طفل من القوقاز هُجِّر إلى المهجر عشرات السنين يحلم أن يرجع الإسلام إلى أرضه.
- وسع محيط الجهاد من خلال وضع مجلس واحد لداغستان والشيشان، وهو يريد بذلك توسيع محيط الرقعة الجهادية؛ لأن الشيشان بلد صغير جدا، كذلك

استطاع بهذه الطريقة أن يحرك عددا هائلاً من الداغستانيين للجهاد، فتشتت جهود روسيا من خلال توجيه الضربات من عدة بلدان بدلاً من بلد واحد، واستطاع بهذه الطريقة تخفيف الضغط العسكري عليه وعلى مجاهديه.

❖ أحيا حب الجهاد والاستقلال في نفوس الشعوب المسلمة في آسيا الوسطى من سيطرة الحكومات الشيوعية العميلة، ولهذا صارت معاهده روضة طيبة يستقبل من خلالها طلاب ومجاهدي التتر والداغستانيين والطاجيك والأوزبك وغيرهم من شعوب القرم، فصارت نبتة طيبة تنمو في الجمهوريات الإسلامية.

كان خطاب يرى أن تطبيق شرع الله هو الهدف الأسمى للجهاد، كما أن نصرة المسلمين واجب شرعي لا يُترك، يقول: نحن أمام واجب شرعي قبل أن تكون مهمة إنسانية، وهذا الواجب هو تقديم النصرة لإخواننا المسلمين في كل مكان بالنفس والمال، كما قال الله تعالى:

(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) [الأنفال:٧٢]

خجش قـبرٌ:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤمن إيمانا راسخا أن أجله سوف ينتهي في الوقت الذي كتبه الله له لا يتقدم لحظة ولا يتأخر لحظة.

وقد **نجا من محاولات عديدة لاغتياله** آخرها عندما كان يقود شاحنة روسية كبيرة انفجرت وأصبحت حطاما، ومات من كان بجانبه، وهو لم يُصب بخدش!

لقد عجزت القوات الروسية؛ بل الحكومة الروسية بكل قواها البرية والجوية والبحرية أن تقتل القائد الهمام خطاب في ساحات النزال؛ وقد أذاقها مرارا كأس الذل ومرارة الهزيمة.. ولم تجد سبيلا إلى التخلص منه سوى بسلاح الغدر والخيانة؛ ذلك السلاح الذي تجرعت الأمة وتتجرع بسببه المرارات، وعن طريقه فقدت الأمة جملة من أعظم قادتها وخلفائها ممن أعجز أعداءها على مر التاريخ.

وقد اختلفت الرواية في كيفية قتله بالسم، وإن كانت لا تخلو الروايتان عن أن قتلـــه كان غدرا.. فبينما ذكر موقع "وا إسلاماه" أن قتله كان على يد واحد من أولئك الخونة المنافقين ممن وثق بهم خطاب وقربه منه؛ حيث سلمه رسالة مسمومة مات على إثرها.

وكان أحد القادة الميدانيين العرب قد أرسل رسولاً إلى القائد خطاب يحمـــل إليـــه رسالة خطية، وفي وسط الطريق أرسل خطاب رسولاً من عنده ليتسلم الرسالة، ولكـــن ذلك الرسول الذي من عند خطاب كان خائنا عميلاً؛ فوضع سما في الرسالة، وفور تسلم خطاب لها وملامسة السم ليده لم يلبث سوى خمس دقائق وفاضت روحه رحمه الله تعالى، وتقبله في الشهداء.

وثمة رواية أشار إليها إجمالا موقع "القوقاز"، تقول: إن قتله كان بسم دُس في طعامه غدرا، وقد وضع له السم بينما كان يتناول طعام الغداء في دعوة خاصة قبل وفاته بـــاثنين وثلاثين يوما..

إلا أن المجاهدين تكتموا خبر استشهاده لمصلحة الجهاد، ولحين ترتيـــب الأوضـــاع، ولكن الله تعالى شاء لحكمة يعلمها أن تتسرب أنباء استشهاده؛ حيث وقع شريط الفيديو الذي صوره المجاهدون لجثمان الفقيد عندما وقع حامله في أيدي القوات الروسية؛ فقتلوه وبادرت القوات الروسية بنشر الشريط وادعاء بطولة لم تحققها..!

خبر وفاة خطاب لم تحفل به أي قناة عربية ماعدا قناة "الجزيرة"؛ فقد تناولت الخبر من خلال محبي خطاب وليس من قِبَل أعدائه، ووضعت له برنامجا خاصا، وأعادت لقاءات تمت معه لتعطي صورة واضحة في معنى التميز في متابعة الحدث..

أما القنوات الغربية فكانت متابعتها للحدث مختلفة تماما عن متابعة القنوات العربيـــة! ففي روسيا قطع البث التلفازي من أجل عرض بيان وزارة الدفاع الخـــاص باستشـــهاد خطاب، وعرض عدة مرات في تلك الليلة واليوم التالي، ووزعت التبريكات من خـــلال مشاركات المشاهدين، ووضعت اللقاءات التي تحدثت عـــن هـــذا النصـــر الروســـي،

واستطاعت قنواتهم أن تجعل شعبها يعيش أياما هي من أسعد أيامه يتذكر بها أيام مجده الزائل، وأقيمت برامج كاملة عن حياة خطاب ونوقشت فيها أفكاره العسكرية وخططه التي وصفها أحد خبراء الروس في أحد البرامج بأنها "جهنمية"، ووصفها خبير آخر بأنها "شيطانية"..!!

لم تغفل الـ"بي بي سي"، ولا الـ "سي إن إن" هذا الحدث، فتحدثت عنه بإسهاب!

رحم الله فقيد أرض الشيشان الذي أبلى بلاء حسنا في قتال أعداء الله في مواطن عدة، اللهم ارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، وتقبله في الشهداء والصالحين، واغفر لنا وله ولجميع المسلمين.. اللهم آمين.[1]

يا أيها الأسدُ الذي تبكي له … كلّ الخنادقِ في رُبى الشجعانِ
إنا لنشهدُ أنكَ الليثُ الذي … قد دكَّ هامَ الكفرِ والطغيانِ
لِلّهِ بطنٌ قد حواكَ بعطفِهِ … أُمٌّ لها من مُهجتي عِرفاني
أنا لستُ أدري هل رضعتَ حليبَها … أم قد سقتْكَ العزَّ بالإيمانِ
خطّابَنا بُشراكَ ما نقلَتْ لنا … كتبُ الحديثِ بِشارةَ العدناني
مَن قاتلَ الأعداءَ كي يعلو بهِ … دينُ الإلهِ، مُدبِّرِ الأكوانِ
قد حازَ خيرَ المكرُماتِ مُجاهدًا … بُشراهُ بالجناتِ والرضوانِ[2]

---

[1] الثمر المستطاب في سيرة القائد خطاب: إعداد كتائب النور (باختصار وتصرف)

[2] من قصيدة "عاشق الحور" للشاعر/ حامد كابلي

☆ **أثناء معركة الفرقان الثانية نجح ثلاثة مجاهدين من "كتائب القسام" في أسر أحد الجنود الصهاينة، وخاضوا قتالاً أسطوريا، وقدموا ملحمة بطولية للحفاظ عليه لمدة يومين، ولم يستجيبوا لدعوات الاستسلام التي وجهها لهم الاحتلال عبر عدد من المدنيين الفلسطينيين قبل أن يُقدم الاحتلال على قصفهم مع المترل بشكل كامل؛ ما أدى إلى استشهادهم ومقتل الجندي الصهيوني.**

الجانب الأول من الحكاية كشف عنه "أبو عبيدة" المتحدث باسم "كتائب القسام" في مؤتمره الصحفي عقب اندحار قوات الاحتلال عندما أكد تمكن المجاهدين في الخامس من يناير ٢٠٠٩ من أسر جندي صهيوني بواسطة كمين محكم، واحتفظوا به لمدة يومين في أحد المباني على أرض المعركة.

وأشار إلى أن العدو أرسل إلى المكان أحد المواطنين الذين اختطفهم كدروع بشرية لمساومة المجاهدين لتسليم الجندي، إلا أنهم رفضوا تسليم أنفسهم أو تسليم الجندي، وهنا تدخل الطيران الحربي الصهيوني وأقدم على قصف المكان، وقُتل الجندي واستشهد في العملية ثلاثة من مجاهدي القسام، وهم: **ِتفشيد عبد الله، ِدّذ عجذ الله عبيد، وإيد د غ عبيد.**

الجانب الآخر للحكاية رواه المواطن الفلسطيني مجدي عبد ربه الذي استخدمته قوات الاحتلال كدرع بشري من أجل إقناع المجاهدين بالاستسلام لصحيفة "اندبندنت" البريطانية.

القصة بدأت في اليوم الثاني للهجوم البري الصهيوني، في الخامس من يناير عندما وصلت قوة صهيونية برفقة فلسطيني كان مستخدم كدرع بشري إلى مترل المواطن مجدي عبد ربه، وهو أحد العاملين في مخابرات رئيس السلطة منتهي الولاية محمود عباس في جباليا شمال قطاع غزة.

وبعد أن طلب منه الجنود أن يخلع قميصه وبنطاله للتأكد من أنه لا يحمل سلاحا، أمروه أن يطلب من أفراد عائلته الخروج.. ثم أشهر ثلاثة جنود السلاح في وجه عبد ربه بينما عائلته لا تزال في الباحة، وقام الجنود الصهاينة بتفتيش منزله من أسفله إلى أعلاه، ثم سأله الجندي الصهيوني الذي يتحدث العربية عن المنزل المجاور لمنزله، قال لهم إنه يعتقد أن لا أحد في ذلك المنزل.

يقول مجدي: وصل أحد الضباط، وأصدر أوامره بتفتيش المنزل المجاور، حينها سار الضابط في المقدمة بحذر على الدرج وبندقيته إم ١٦ موجهة إلى الأسفل، وأنا خلفه وكان الجنود ما زالوا يشهرون السلاح خلفه، وفجأة بدأ الضابط يصيح في جنوده.

وأضاف: عدنا أدراجنا على السلالم، وقد سحبني الجنود ووقعت مرتين، ذهبنا إلى منزلي.

وأصبح ما شاهده الضابط الصهيوني واضحا عندما تعرض الجنود فجأة وهم على أهبة الاستعداد القصوى خارج ساحة منزل عبد ربه لإطلاق النار عليهم، نُقل عبد ربه إلى مسجد قريب كان مليئا بالجنود، ووُضع القيد على يديه، وطُلب منه أن يجلس هناك.

بعد خمس عشرة دقيقة من الصمت أطلق مجاهدو "كتائب القسام" النار مرة أخرى، وواصل عبد ربه رواية حكايته قائلاً: "اتخذ الجنود مواقع لهم عند نوافذ المسجد، وبدأوا في الرد على النار، وبدأتُ أصيح موجها كلامي للجندي الذي يتحدث العربية: "زوجتي وأبنائي في خطر هناك".. فقيل له: "اصمت وإلا سنطلق عليك النار"! يضيف عبد ربه: "انهرت وبدأت في البكاء، وخشيت أن تكون عائلتي قد قضت نحبها".

بقي عبد ربه محتجزا لدى القوات الصهيونية لمدة يومين، وكان مقيدا لبعض الوقت، وظل مصاحبا لتلك الوحدة الصهيونية في تحركها في المنطقة، وفي أحيان كثيرة تحت وابل كثيف من النيران، وفي إحدى المرات طُلب منه أن يفتح أبواب سيارتين في منزل آخر للتحقق منهما، قبل النداء على الساكنة في الطابق الأرضي. بعد ذلك أمره الجنود في فترة

بعد الظهر أن يتوجه لتفحص المبنى المدمر الذي كان مقاتلو "حماس" يقبعون فيه. قلتُ: "إنني لن أذهب. قد يقتلونني. ولديَّ زوجه وأطفال".

فأشار إلى أن الضابط الصهيوني أبلغه: "لقد أطلقنا عشرة صواريخ وقتلناهم"، وطلب منه أن يذهب إلى المترل ويُحضر الأسلحة؛ بعد أن تلقى ضربة من عقب بندقية وركلة لتنفيذ الأمر..!

يقول عبد ربه: ذهبت إلى مترلي ووجدت أن عائلتي ليست هناك. بحثت عن آثار دماء، فلم أجد شيئا. كان خاليا. وعندما نزلت على الدرج كنت أصيح قائلا: أنا مجدي كي لا تذهب بهم الظنون ويعتقدوا أنني إسرائيلي ويطلقون النار عليّ.

ويواصل: ما أن اقتربتُ من باب الشقة حتى شاهدتُ أحد المقاتلين وبندقيته مشهورة يقف لحراسة القاعة وخلفه اثنان آخران، بقي عبد ربه في الممر، وقال لهم: إن جنود الاحتلال يعتقدون أنهم أموات.. سألوني: أين موقع الجنود؟ قلت لهم: إنهم منتشرون في كل مكان. فطلبوا مني أن أغادر المكان.

وقال: كانوا ثلاثة رجال يحملون بنادق "كلاشينكوف إيه كيه ٤٧"، ويرتدون ملابس التمويه وقبعات على رءوسهم تظهر عليها علامة "كتائب عز الدين القسام"، كانوا لا يزالون أحياء؛ وإن كان واحد منهم قد أصيب بجروح بالغة، وأقنع عبد ربه أن يشد الرباط حول ذراعه الأيمن. كان أصغرهم (ربما إحدى وعشرون سنة) يحتمي وراء قطعة من المبنى المهدم، حيث يمكنه أن يشاهد القوات الصهيونية التي أرسلت الزائر.

قال لهم عبد ربه بصوت متهدج: أرسلوني مرة ثانية إليكم لكي آخذ منكم أسلحتكم، قالوا لي: إنكم أموات..! رد عليه الأصغر سنا بتحدٍ واضح: "قل للضابط، إذا كنت رجلا فتقدم إلى هنا"..!

طلب منه الجنود الصهاينة المختبئون خلف حائط مترل على بعد مائة متر، أن يتعرى للتأكد من أنه لا يخفي أي سلاح بعد مغادرته المترل، بعد ذلك طُلب منه أن يقوم برحلة

ثالثة إلى موقع المقاتلين.. يقول عبد ربه: إن الضابط الإسرائيلي شتمه وركله بعد أن استمع إلى تقريره. بعد وقت قصير قامت مروحية أباتشي بإطلاق ثلاثة صواريخ، يقول: إنها دمرت المنزل الذي كان فيه المجاهدون.

هبط الظلام عندما أمرته القوات الصهيونية بالذهاب إلى ذلك المنزل مرة أخرى، إلا أن عبد ربه أقنعهم أن المشي عبر الركام من منزله أمر مستحيل في الظلام. ومن عجب أن المجاهدين كانوا لا يزالون أحياء، وأطلقوا النار مرة أخرى. ثم أُخذ عبد ربه إلى منزل آخر وأُمر بالبقاء هناك مكبل اليدين في البرد..

وحضر الجنود الصهاينة لأخذه مرة أخرى في السادسة والنصف صباحا، مؤكدين له: "لقد قتلناهم الليلة الماضية"..! وأمروه بالذهاب ليرى. وقال عبد ربه: كيف يمكن أن أذهب؟ سقف بيتي مدمر، الأمر خطير جدا.

ولكنه استطاع، بعد أن لم يتركوا له خيارا، الوصول إلى الدرج والنزول بحذر؛ وهو ينادي كما فعل مرتين من قبل. وقال: "رأيت كل شيء مدمرا. كانوا جميعهم جرحى ولكن الشخص الذي كان ينزف كان الأسوأ حالاً. كان يرفع أصبعه ويقول: لا اله إلا الله".

ويضيف: "كان أحدهم ممددا تحت الأنقاض، لكنه كان ما يزال حيًّا. قال الشخص الأفضل حالاً: إنهم لا يمكن أن يستسلموا أبدا، وإنهم سيصبحون شهداء. وذكر لي أحدهم اسمه طالبا مني أن أوصل رسالةً إلى عائلته".

وقال عبد ربه: إن جنود الاحتلال بدأوا بإطلاق النار بينما كان هناك، وأنه ركض هاربا..! وأوضح: "عدتُ إلى الجيش وكذبتُ عليهم. قلت: قالوا لي إنهم سيقتلونني إذا عدت".

ثم استخدم الجنود الإسرائيليون مكبرا للصوت ليخاطبوا المجاهدين بالعربية: "لكم عائلات. اخرجوا وسنأخذكم إلى المستشفى ونعتني بكم. المنطقة مليئة بالقوات الخاصة. قادة حماس كلهم مختبئون تحت الأرض"..!!!

قال عبد ربه: "بينما كانوا يتحدثون كذلك، أطلق مجاهدو القسام النار مرة أخرى، فدفعني الضابط إلى الجدار وقال: أنت تكذب عليّ. يوجد أكثر من ثلاثة هناك"..!

ثم أمر الجنود اثنين آخرين من السكان بأخذ كاميرا إلى المترل لتصويره وتصوير مجاهدي القسام. وبعدئذ أرسل الجيش كلبا عاد مجروحا وسرعان ما توفي بعد ذلك..!

ثم قيل للمجاهدين: "أمامكم خمس عشرة دقيقة للخروج من دون ملابس ورافعين أيديكم. إذا لم تفعلوا، فسنهدم البيت عليكم".

وبعد خمس عشرة دقيقة، حسبما قال عبد ربه، تحركت جرافة بين المنازل والجامع، ودمرت أجزاء كبيرة من بيته قبل أن تقوم بهدم منهجي للبيت الذي كان المجاهدون بداخله. وكان يوم الثلاثاء قد بلغ منتصفه عندئذ.

رأى عبد ربه قبل أخذه بعيدا مترله المدمر رؤية واضحة، كما رأى المترل المهدوم بجانبه وجثامين مجاهدي القسام الثلاثة ممدة على الأنقاض..

وهكذا آثر مجاهدو القسام الاستشهاد على الاستسلام ليقدموا نموذجا فريدا في التضحية والفداء [(بتصرف) نقلا عن موقع "المركز الفلسطيني للإعلام"]

وسئل أبو عبيدة المتحدث باسم "كتائب القسام": ما هو الموقف الذي لن تنساه في معركة الفرقان الثانية؟

فأجاب قائلا: كان هناك مواقف كثيرة جدا، لكن من هذه المواقف الرائعة والبطولية أن أحد المجاهدين كان يستعد للهجوم على مجموعة من الجنود الصهاينة، فتمت مهاجمته عن بعد بقذيفة قطعت يده اليسرى بالكامل وتعلقت يده، ولكنه أصر على تفجير العبوة في الجنود وبالفعل قام بذلك، وبعد أن انتهى أخذ يزحف منسحبا من المكان، وكانت يده

المقطوعة لازالت لم تسقط وأعاقت زحفه؛ فأصر على قطعها وواصل الزحف بمعنويات مرتفعة وعجيبة رغم شدة الألم.

ومن هذه المواقف اشتداد القصف على المجاهدين لمدة سبع ساعات كاملة في محيط لا يتجاوز نصف كيلو متر مربع؛ وأصروا تحت القصف على الصلاة واقفين. وبالفعل أتموا صلاتهم، وبعد هذه الصلاة الأخيرة في تلك الليلة استشهد اثنان من المجاهدين في معركة بطولية وجها لوجه مع الجنود الصهاينة. [نقلا عن موقع "المركز الفلسطيني للإعلام"]

عادٱفاس ط ُ ٱجٱدْ
دِد ْ إٱ عاح ِ ٱجٱدْ
حنت عيونُهْي الـّغاجذِ دامعةْ
دِد لِ ْبقُي المدائن خاشعةْ
دِدٌخٱذِها الخيولُ ٱـعُّشَ جَ ْ
ّذجاسِغي وٍّ عقِ ساىٔجٌ
طاب ٱشِشاءْ
طاتد ُفْ طٌ بائعةْ
إٱ.. لا ِى ٱغادسِ أ ٌفِطِ الخانعه ْ
عم طد جميعُ الأقنعةْ
وملا دُ ْولتُغضجَ سائعهْ
لٱد ْإٌا :
إٱ الصلاةَمذعِإ يومًا " صـلاةٌ جامعه ْ "
يومًا " صلاةٌ جامعه ْ ") (

فيا عباد الله..

ذلكم نذر يسير من سيرة صفوة المجاهدين؛ خاضوا المعارك باسم الله لتحقيق المجد الأمة؛ فحازوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة..

ستظل الأجيال تذكر مآثرهم شرفا يجل على الزمان إلى يوم يبعثون..

---

[1] من قصيدة "بيان من غزة" للشاعر/ رأفت رجب عبيد – موقع أدباء الشام

أقرأتَ في صفحاتِهم تُحيي الكرامةَ في
قصصَ الفِدا السَّوادِ الأعظمِ؟!
أسمعتَ آياتِ يَطوي الأسى عن
اليقينِ ورجْعُها حاضرِ متجهِّم؟!
الصابرونَ على في غُربةِ الدنيا
مقارعةِ وسطوِ المجرم
العِدا هوجاءَ تَطحَنُ كلَّ
الصامدونَ على صخرٍ أعجمي
مَحكِّ شدائدٍ كتبسُّم اللهفانِ
الباسمونَ على عندَ المغنَمِ
تصاريفِ القضا بالفجرِ مِن بعدِ
الواثقونَ بنصرِ السوادِ المُظلِمِ
مَن فَلَقَ الدُّجى وعدوُّهُ الباغي
عُقبى المجاهدِ وَقودُ جهنمِ [2]
رفعةٌ وكرامةٌ

[2] من قصيدة "موكب الشهداء" للشاعر/ صالح بن علي العمري (بتصرف يسير)

جَبد أُىِّخ

لا تَخْشَ في اللهِ المَلامَةَ والرَّدَى
قَدَرُ الأبِيِّ يُقَاوِمُ الضُّلَّالا
لا تَخْشَ في اللهِ المَلامَةَ والرَّدَى
بَلْ فاكسِرُوا مِنْ حَوْلِنَا الأغلالا
وانْ النُّفُوسَ على الكَ

أ

فضً ٱجاد:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر"**. [رواه أبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني]، وفي رواية الترمذي: **"إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"**.[1]

لأن مجاهد العدو متردد بين رجاء وخوف، وصاحب السلطان إذا أمره بمعروف تعرض للعذاب والموت أحيانا فهو أفضل من جهة غلبة الخوف، ولأن ظلم السلطان يسري إلى جم غفير، فإذا كفه فقد أوصل النفع إلى خلق كثير بخلاف قتل كافر.

وعن كعب بن مالك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما ترموهم به نضح النبل"** [رواه أحمد والطبراني، وصححه الألباني]

ومن الجهاد باللسان فتوى العلماء في وجوب الجهاد خاصة عندما تخالف هوى السلطان، فهنا تكون الفتوى شديدة على النفس لأنها قد تكلف العالم وظيفته أو سجنه أو عنقه، ولذا لا يُستفتى في أمور الجهاد إلا الصادقون العالمون العاملون.

قال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا.

أي يشترط في الذي يفتي في أمور الجهاد أن يكون قادرا على الاستنباط، مخلصا وأن يعرف طبيعة المعركة وأحوال أهلها.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"**. [رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه الألباني]

---

[1] جائر: ظالم – السلطان: من له سلاطة وقهر.

بأن تخوفوهم وتوعدوهم بالقتل والأخذ والنهب وغير ذلك، وبأن تذلوهم وتذلوهن وتَسُبُّوهم إذا لم يؤدِ ذلك إلى سب الله تعالى، وبأن تدعوا عليهم بالخذلان والهزيمة وللمسلمين بالنصر والغنيمة، وبأن تحرضوا الناس على الغزو ونحو ذلك.

والآن الجهاد باللسان بأن تظهر الجهاد كذلك بأنصع صورة، وترد عنه الحملة الإعلامية مما نراه من الحملات المسعورة على الجهاد، وأن تقف دون تشويه الجهاد أو حرق شخصياته أو الإساءة إلى رموزه، وترد على المثبطين والمعوقين والمخذلين والمرجفين.[١]

والعلماء ورثة الأنبياء، قائمون في الأمة مقامهم، مضطلعون بدورهم، والجماهير دائمًا تتطلع إليهم، وعيونهم معلقة بهم، خاصة وقت الأزمات والنوازل، وكلما كان العالم الرباني منظورًا إليه، مقتدى به، كانت التبعة أعظم والمحنة أشد؛ فالعالم الرباني هو رجل الأمة، ودليل العامة، ودرع الحق والشرع الذي يحمي بيضة الدين، ويذب عن حياضه، وبثباته على الحق يثبت الكثيرون، وبتهاونه يضيع أيضًا الكثيرون، لذلك ما من عالم رباني قام في الأمة إلا وتعرض لكثير من المحن والابتلاءات..

فالعالم الرباني لا يصبر على منكر يراه، حتى إن سفيان الثوري يقول عن نفسه: إذا رأيت منكرًا ولم أتكلم تبولت دمًا من شدة الكمد..!

۞ ۞ ۞

ٱىلم الطيب دليل العزة:

قال تعالى: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠]**

---

[١] إتحاف العباد بفضل الجهاد لعزام.

هذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها..

إن العزة كلها لله. وليس شيء منها عند أحد سواه. فمَن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله. فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كنف، ولا بأي سبب (**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**)..

إن الناس الذين كانت قريش تبتغي العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة، وتخشى اتباع الهدى وهي تعترف أنه الهدى خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى. إن الناس هؤلاء القبائل والعشائر وما إليها؛ إن هؤلاء ليسوا مصدرا للعزة، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها (**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**).. وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله. وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله. وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر. ليأخذ من الأصل الذي يملك وحده كل العزة، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم. وهم مثله طلاب محاويج ضعاف!

إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية. وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزا كريما ثابتا في وقفته غير مزعزع ، عارفا طريقه إلى العزة؛ طريقه الذي ليس هنالك سواه!

إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر. ولا لعاصفة طاغية. ولا لحدث جلل. ولا لوضع ولا لحكم. ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جيمعا.. وعلام؟ والعزة لله جميعا. وليس لأحد منها شيء إلا برضاه؟

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح: (**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**)..

ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه. فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله. القول الطيب والعمل الصالح. القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه، والعمل الصالح الذي يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع. ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء.

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس. حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله. حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي. يستعلي بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس. ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه. فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم. ومخاوفهم ومطامعهم. ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان.. وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان!

إن العزة ليست عنادا جامحا يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل. وليست طغيانا فاجرا يضرب في عتو وتجبر وإصرار. وليست اندفاعا باغيا يخضع للنزوة ويذل للشهوة. وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح.. كلا! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس، واستعلاء على القيد والذل، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله. ثم هي خضوع لله وخشوع؛ وخشية لله وتقوى، ومراقبة لله في السراء والضراء.. ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه. ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأباه. ومن هذه المراقبة لله لا تعنى إلا برضاه.

هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة

وهذه هي الصلة بين هذا المعنى وذاك في السياق

وفي المقابل: (**وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ**) .. ويمكرون هنا مضمنة معنى يدبرون. ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها في السوء.

فهؤلاء لهم عذاب شديد . فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور. فلا يحيا ولا يثمر.

والذين يمكرون السيئات يمكروها طلبا للعزة الكاذبة، والغلبة الموهومة. وقد يبدو في الظاهر أهم أعلياء، وأهم أعزاء، وأهم أقوياء. ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه. وهما تكون العزة في معناها الواسع الشامل. فأما المكر السيئ قولا وعملا فليس سبيلا إلى العزة؛ ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان. إلا أن هايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد. وعد الله، لا يخلف الله وعده. وإن أمهل الماكرين بالسوء حتى يحين الأجل المحتوم في تدبير الله المرسوم. [في ظلال القرآن]

ومن ثم فإن كل عامل لله يصدع بكلمة حق، ولا يخشى في الله لومة لائم؛ فهذا دليل عى أنه يركن إلى القوي العزيز، ولا يستمد عزته إلا منه سبحانه، ولذلك تراه يستعلي على طواغيت الأرض، ولا يقيم لها وزنا؛ وهذا ما يفسر لنا كثيرا من مواقف العلماء العاملين والدعاة المخلصين؛ الذين صدعوا بكلمة حق في وجوه الطغاة على مدار التاريخ..

۞ ۞ ۞

آنش خذ ا التاريخ:

☆ **عسجبء ث حيوة** وزيرا لطائفة من خلفاء بني أمية ابتداءً من عبد الملك بن مروان، وانتهاءً بعمر بن عبد العزيز. لكن صلته بسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز فاقت صلته بمن سبقهما من الخلفاء..

وقد كان اتصاله بخلفاء بني أمية من عظيم رحمة الله بهم، وجزيل إكرامه لهم.

فلقد دعاهم إلى الخير، ودلهم على طرقه.. وثناهم عن الشر، وأوصد دوهم أبوابه.. وأراهم الحق، وزين لهم اتباعه.. وبصرَّهم بالباطل، وكرَّه إليهم إتيانه.. فنصح لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وقد وقعت لرجاء قصة أنارت له طريقه في مخالطة الخلفاء، وحددت له مهمته معهم، رواها بنفسه، فقال: إني لواقف مع سليمان بن عبد الملك في جموع من الناس؛ إذ رأيت

رجلا يتجه نحونا وسط الزحام.. وكان حسن الصورة جليل الهيئة، فما زال يشق الصفوف، وأنا ما أشك أنه يروم الخليفة.. حتى حاذاني، ووقف إلى جانبي ثم حياني وقال: يا رجاء! إنك قد ابتليت بهذا الرجل (وأشار إلى الخليفة)، وإن في القرب منه الخير الكثير أو الشر الكثير.. فاجعل قربك منه خيرا لك وله وللناس.. يا رجاء! من كانت له منزلة من السلطان؛ فرفع إليه حاجة امرئ ضعيف لا يستطيع رفعها؛ لقي الله عز وجل يوم يلقاه وقد ثبت الله قدميه على الصراط.

فكانت لرجاء مع خلفاء بني أمية مواقف صدق ما زال يكنها التاريخ في أزهى صفحاته، ويرويها الخلف عن السلف..

من ذلك أنه كان ذات يوم في مجلس عبد الملك بن مروان، فوُصف للخليفة رجل بسوء طويته على بني أمية. فقال عبد الملك: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن، ولأفعلن.. فلما أمكنه الله منه؛ همَّ بأن ينفذ وعيده؛ فقام إليه رجاء بن حيوة، وقال: يا أمير المؤمنين! إن الله قد قد صنع لك ما تحبه من القدرة؛ فاصنع لله ما يحبه من العفو؛ فسكنت نفس الخليفة، وعفا عن الرجل وأحسن إليه.

ومن أكبر مواقفه شأنا وأعظمها على الإسلام والمسلمين خطرا؛ موقفه من أمر ولاية العهد، وأثره في البيعة لعمر بن عبد العزيز.

فإنه لما كان سليمان بن عبد الملك في مرض الموت؛ وقد سأل رجاء أن يظل قريبا منه. فدخل عليه ذات مرة فوجده يكتب كتابا! فقال رجاء: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟

فقال: أكتب كتابا أعهد به إلى ابني أيوب!

فقال رجاء: يا أمير المؤمنين.. إن مما يحفظ الخليفة في قبره، ويُبرِئ ذمته عند ربه؛ أن يستخلف على الناس الرجل الصالح. وإن ابنك أيوب غلام لم يبلغ الحُلُم بعد، ولم يتبين لك صلاحه من طلاحه.. فمزق سليمان الكتاب.

يقول رجاء: ومكث بعد ذلك يوما أو يومين، ثم دعاني وقال: ما رأيك في ولدي داود يا أبا المقدام؟

فقلت: هو غائب مع جيوش المسلمين في القسطنطينية.. وأنت لا تدري الآن أحي هو أم ميت؟

فقال: فمن ترى إذن يا رجاء؟ فقلت: الرأي لك يا أمير المؤمنين..

وكنت أريد أن أنظر فيمن يذكرهم لكي أستبعدهم واحدا واحدا؛ حتى أصل إلى عمر بن عبد العزيز.

فقال: كيف ترى عمر بن عبد العزيز؟

فقلت: ما علمتُه —والله- إلا فاضلا، كاملا، عاقلا، دَيِّنا..

فقال: صدقت.. إنه والله لكذلك.. ولكنني إن وليتُه وأغفلتُ أولاد عبد الملك لتكونن فتنة، ولا يتركونه يلي عليهم أبدا..

فقلت: أشرك واحدا منهم، واجعله بعده.

فقال: أصبتَ؛ فإن ذلك مما يُسَكِّنهم، ويجعلهم يرضونه..

ثم أخذ كتابا وكتب بيده:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز؛ إني ولَّيتُه الخلافة من بعدي، وجعلتها من بعده ليزيد بن عبد الملك.

فاستمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا فيطمع الطامعون فيكم..

ثم ختم الكتاب، وناولني إياه.. ثم أرسل إلى "كعب بن حامز" صاحب الشرطة، وقال له: ادعُ آل بيتي فليجتمعوا.. وأعلِمهم أن الكتاب الذي في يد رجاء بن حيوة هو كتابي، ومُرهم بأن يبايعوا لمن فيه.

قال رجاء: فلما اجتمعوا قلت لهم: هذا كتاب أمير المؤمنين قد عهد فيه للخليفة من بعده، وقد أمرني أن آخذ منكم البيعة لمن ولاه، فقالوا: سمعا لأمير المؤمنين، وطاعة لخليفته من بعده.. وطلبوا أن أستأذن لهم على أمير المؤمنين للسلام عليه.

فلما دخلوا عليه قال لهم: إن هذا الكتاب الذي في يد رجاء بن حيوة هو كتابي، وفيه عهدي للخليفة من بعدي، فاسمعوا وأطيعوا لمن ولَّيتُ، وبايعوا لمن سميتُ في هذا الكتاب.

فطفقوا يبايعون رجلا رجلا..

ثم خرجت بالكتاب مختوما؛ لا يعلم أحد من الخلق ما فيه غيري وغير أمير المؤمنين.

فلما أسلم سليمان الروح أحكمتُ إغلاق الباب، وأجلستُ عنده حارسا أثق به، وأوصيته ألا يتزحزح عن مكانه حتى أعود، وألا يدخل على الخليفة أحدا كائنا من كان..

ثم أرسلتُ إلى "كعب بن حامز" صاحب الشرطة؛ فجمع أهل بيت أمير المؤمنين جميعا في مسجد "دابق".. فقلتُ: بايعوا لمن في كتاب أمير المؤمنين.

فقالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى؟!

فقلتُ: هذا أمر أمير المؤمنين.. بايعوا على ما أمر به، ولمن سمى في هذا الكتاب المختوم.. فبايَعوا رجًلا رجُلا..

فلما رأيتُ أني قد أحكمتُ الأمر؛ قلتُ: إن صاحبكم قد مات، وإنا لله وإنا إليه راجعون.. وقرأتُ عليهم الكتاب، فلما انتهيتُ إلى ذكر عمر بن عبد العزيز؛ نادى هشام ابن عبد الملك: لا نبايعه أبدا..!

فقلتُ: إذن –والله- أضرب عنقك.. قُم فبايِع.. فقام يجر رجليه..

فكانت بيعة جدَّد الله فيها للإسلام شبابه، ورفع للدين مناره..

فطوبى لخليفة المسلمين سليمان بن عبد الملك؛ فقد أبرأ

ذمته أمام الله بتوليته الرجل الصالح..

وهنيئا لوزير الصدق رجاء بن حيوة؛ فقد نصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين..

وجزى الله البطانة الصالحة الخير، ولقَّاها الأجر.. فبنور رأيها يهتدي الأخيار المحظوظون الموَفَّقون من ذوي السلطان..[1]

☆ لما نزل "عبد الله بن علي" عم السفاح العباسي "حَماة" بعد القضاء على الدولة الأموية؛ بعث إلى **الأوزاعي**؛ فأشخص إليه. فترل على "ثور بن يزيد الحمصي". قال الأوزاعي: فلم يزل "ثور" يتكلم في القدَر من بعد العشاء الآخرة إلى أن طلع الفجر؛ والأوزاعي ساكت، ما أجابه بحرف! فلما انفجر الفجر قام فتوضأ للصبح، ثم صلى وركب، فأتى حماة، فدخل الآذِن، فأذن للأوزاعي. قال: فدخلت على عبد الله وهو على سريره، وفي يده خيزرانة ينكت بها الأرض، وحوله جنوده وحشمه بالسيوف، والسيف والنطع بين يديه، فسلمت: فنكت في الأرض ثم رفع رأسه إليّ، وقال: يا أوزاعي! ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد، أجهادا ورباطا هو؟ فقلت: جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لامرأة يتزوجها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه". قال: فنكت بالخيزرانة نكتا هو أشد من النكت الأول، وجعل مَن حوله يعضون لي أيديهم..!

ثم رفع رأسه فقال: يا أوزاعي! ما تقول في دماء بني أمية؟ قلت: جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الزاني بعد إحصان، والمرتد عن الإسلام، والنفس بالنفس، فنكت بالخيزرانة نكتا هو أشد من ذلك وأطرق.

ثم رفع رأسه، فقال: يا أوزاعي! ما تقول في أموال بني أمية؟ فقلت: إن كانت لهم حراما فهي عليك حرام، وإن كانت لهم حلالاً فما أحلها الله لك إلا بحقها. قال: فنكت بالخيزرانة نكتا هو أشد من ذلك، وأطرق مليا..

---

[1] صور من حياة التابعين (باختصار وتصرف يسير)

ثم رفع رأسه، فقال: يا أوزاعي! هممت أن أوليك القضاء.. فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليَّ في ذلك، فإن رأى الأمير أن يستتم ما ابتدأه آباؤه فليفعل. قال: كأنك تريد الإذن؟ قلت: إن ورائي حرما لهم حاجة إلى قيامي بهم وستري لهم. قال: فذاك لك.

قال: فخرجت فركبت دابتي، وانصرفت. قال: فلم أعلم حين وصولي إلى بيروت إلا وعثمان على البريد. فقال: إن الأمير غفل عن جائزتك، وقد بعث لك بمائتي دينار!

فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرقها في الأيتام والأرامل والفقراء، ثم وضع الرسائل في رد ما سمع من "ثور بن يزيد" في القدر.

وقد كان "عبد الله بن علي" ملكا جبارا، سفاكا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمر الحق كما ترى؛ لا كخَلْق من علماء السوء؛ الذين يُحَسِّنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف، ويَقلِبون لهم الباطل حقًّا -قاتلهم الله!- أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق. **[مختصر تاريخ دمشق (بتصرف)- سير أعلام النبلاء]**

☆ في سنة ٦٣٩هـ تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين ضد ابن أخيه نجم الدين أيوب وأعطاهم نظير ذلك مدينة صيدا الساحلية وقلعة الشقيف، وأباح لهم دخول دمشق وذلك لأول مرة منذ اشتعال الحملات الصليبية، وأباح لهم شراء السلاح والمؤن، وكان **سلطان العلماء العز بن عبد السلام** وقتها خطيب الجامع الأموي ومفتي الشافعية ورأس علماء دمشق، فصعد الشيخ العز على منبر الجامع يوم الجمعة، وألقى خطبة نارية من العيار الثقيل أفتى فيها بحرمة البيع والشراء مع الصليبيين، وشدد على التحريم وأنكر على الصالح إسماعيل فعلته، وفي آخر الخطبة ترك الدعاء للصالح إسماعيل كما هي العادة وقال بدلاً من ذلك قولته المشهورة التي صارت مثلاً سائرًا ودعاء متداولاً: "اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف،

وينهى فيه عن المنكر".

كان قطع الدعاء في الخطبة للصالح إسماعيل بمثابة إعلان خلع وعزل من قبل العز بن عبد السلام، فاستشاط الصالح إسماعيل غضبًا وقامت قيامته، وعزل الشيخ العز عن الخطبة والإفتاء، وأمر باعتقاله، فأخذ الغضب يسري في أواسط الشعب الدمشقي الذي كره الصالح إسماعيل وجرائمه..

وبقي الشيخ مدة معتقلاً، ثم أُخرج من معتقله فأقام مدة في دمشق، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس، وجاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حِمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية، فسيَّر الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير.

وهنا قال سلطان العلماء كلماته النيرة، فيها استعلاء أهل العلم، قال:

والله يا مسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده. يا قوم! أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فقال له: قد رسم لي إن لم توافق علي ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك. فقال: افعلوا ما بدا لكم. فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان. وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه، فقال يوما لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم! قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم. فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها..!

بعد أن أعيت الصالح إسماعيل السبل، وفشلت كل ضغوطه على الشيخ ابن عبدالسلام، قرر أن ينفيه عن بلاد الشام كلها، فخرج الشيخ العز بن عبد السلام ومعه أبو عمرو بن الحاجب شيخ المالكية؛ وكان مثله في العلم والصدع بالحق، وتوجه الإمامان إلى مصر.

وشيئًا فشيئًا ثقلت وطأة الشيخ العز على الأمراء والأعيان ورجال الدولة الذين لم يعجبهم وجود مثل ذلك الشيخ الذي أحيا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس، ووصلت قوة الشيخ وجرأته في الحق لأن يقوم بإسقاط عدالة وشهادة نائب السلطان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ؛ بسبب قيامه ببناء طبلخانة -دار للطبول التي تدق أوقات الصلوات وخروج السلطان- على ظهر جامع بالقاهرة، وقد ظل الأمير فخر الدين ساقط الشهادة حتى مات، حتى أن الخليفة العباسي المستعصم ببغداد رفض رسالة جاءته من السلطان نجم الدين أيوب، بسبب أن مؤدي الرسالة هو الأمير فخر الدين، وبعد تلك الحادثة عزل الشيخ نفسه عن القضاء.

ثم وقعت حادثة أخرى، وهي الأشهر في تاريخ الشيخ والتي تدل على مدى عزته ومكانته وهي حادثة بيعه للأمراء المماليك، فقد ثبت عنده أن معظم هؤلاء الأمراء ما زالوا رقيقًا لا يصلح لهم أي تعامل من أي نوع، فاستشاط الأمراء غضبًا وأوغروا صدر السلطان على الشيخ العز، فاستدعاه وأغلظ له القول، فما كان من الشيخ العز إلا أن حمل متاعه على حمار وأركب عائلته على حمار آخر ومشى خلفهم خارجًا من القاهرة قاصدًا الشام.. فلما رآه أهل القاهرة خارجًا منها تسارع معظمهم خلفه رجالاً ونساءً، وخرج معه العلماء والصالحون والتجار، فبلغ الخبر السلطان وقيل له: متى خرج الشيخ العز ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه واسترضاه وطيب قلبه وترجاه من أجل العودة.

عاد الشيخ للقاهرة بشرط أن يتم بيع الأمراء الأرقاء، فوافق السلطان، فلما علم كبير الأمراء بذلك حاول استمالة الشيخ ليرجع عن رأيه، ولكن الشيخ صمم، فانزعج كبير الأمراء بشدة وقرر قتل الشيخ بنفسه، وذهب إلى دار الشيخ في جماعة من فرسانه

وأحاطوا بالدار وسيوفهم مشهرة، فلما رآهم عبد اللطيف ابن الشيخ العز ارتعد فزعًا ودخل على أبيه يخبره، فما اكترث لذلك ولا تغير وقال كلمته الشهيرة: "يا ولدي! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله"..

ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل عليهم، فحين وقع بصره على الأمير يبست يد النائب وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله، وبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، ووافق على أن يباع هو وزملاؤه الأمراء، وتم ما أراده الشيخ، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير.

ولما تولى سيف الدين قطز السلطنة والتتار على أبواب الشام ومصر، جمع قطز العلماء والفقهاء واستشارهم في جمع الأموال من الناس لتمويل الجيش ضد التتار فما تكلم أحد من الحاضرين مهابة من السلطان غير الشيخ العز الذي قال: لا يجوز ذلك إلا بعد أن ينفق السلطان والأمراء وقادة الجند ما في قصورهم من كنوز وأموال حتى يستووا مع سائر الناس في المأكل والملبس والسلاح، عندها يجوز للسلطان أن يأخذ من أموال الشعب للتمويل الحربي. [طبقات الشافعية – سلسلة ترويض المحن]

☆ ذكر الحافظ البزار أنه [لما ظهر السلطان قازان على دمشق المحروسة جاءه ملك "الكرج" وبذل له أموالا كثيرة جزيلة؛ على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق! ووصل الخبر إلى **شيخ الإسلام ابن تيمية**، فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف.

وانتدب منهم رجالا من وجوههم وكبرائهم وذوي الأحلام منهم؛ فخرجوا معه إلى حضرة السلطان قازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل: هم رؤساء دمشق. فأذن لهم فحضروا بين يديه.

فتقدم شيخ الإسلام أولا؛ فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة حتى أدناه

وأجلسه! وأخذ الشيخ في الكلام معه أولا في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين، وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكَّره ووعظه؛ فأجابه إلى ذلك طائعا، وحُقنت بسببه دماء المسلمين، وحُميت ذراريهم، وصين حريمهم.

وحدثني مَن أثق به عن الشيخ وجيه الدين ابن المنجا، قال: كنت حاضرا مع شيخ الإسلام حينئذ، فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه؛ حتى جثا على ركبتيه، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه؛ حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته، مُصغٍ لما يقول، شاخص إليه لا يُعرض عنه.. وأن السلطان من شدة ما أوقع الله في قلبه من المحبة والهيبة؛ سأل مَن يخصه مِن أهل حضرته: مَن هذا الشيخ؟! وقال ما معناه: إني لم أرَ مثله، ولا أثبت قلبا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتُني أعظم انقيادًا مني لأحد منه! فأُخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل..

وقال شيخ الإسلام للترجمان: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضي وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا.. وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت.. عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجُرت..!

وخرج من بين يديه مكرما معززا؛ قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين؛ فبلغه ما أراده، وكان ذلك أيضا سببا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم، وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم.] (1)

وفي سنة ٧٠٠ هـ تواترت الأخبار بعزم التتار على الهجوم مرة أخرى على الشام وعم الذعر بين أهل دمشق وأخذوا في الرحيل وارتفعت الأسعار بشدة، وهرب معظم الأعيان والقضاة والعلماء من البلد إلى مصر خوفًا من التتار، فقام ابن تيمية وخطب الناس في الجامع الأموي بدمشق، وحرضهم على القتال والصبر والمرابطة، وأوجب عليهم قتال

(1) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية

التتار، فسكن الناس قليلاً وربط جأشهم، ثم انتدب أمير دمشق الشيخ ابن تيمية سفيرًا إلى مصر ليستحث السلطان الناصر محمد على المجيء والدفاع عن البلد، وقد كلم ابن تيمية السلطان بمنتهى الشدة حتى إنه قال له: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه، وفي ذلك تهديد شديد للسلطان بالعزل إذا لم يقم بواجباته تجاه الأمة، ثم قال له: لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم.(1)

☆ وهذا الإمام **محيي ٱلدين إ** كان مواجها للملوك والجبابرة بالإنكار؛ لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، و يتوصل إلى إبلاغها، ومما كتبه إلى السلطان الظاهر التركي رسالة؛ طالب فيها السلطان بالعدل في الرعية وإزالة المكس عنهم، وكتب معه في ذلك شيخ الإسلام أبو محمد عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمرو؛ شيخ الحنابلة، والشيخ العلامة قدوة الوقت أبو محمد عبد السلام الزواوي شيخ المالكية، والشيخ العلامة ذو العلوم أبو بكر بن محمد بن أحمد السويسي المالكي، والشيخ العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم، والشيخ المفتي أبو حامد محمد بن العلامة أبي الفضائل عبد الكريم بن الجرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها. وجماعة آخرون..

فلما وصلت الرسالة إلى السلطان؛ رد جوابا عنيفا مؤلما؛ فتنكرت خواطر الجماعة الكاتبون وغيرهم. فكتب إليه الإمام النووي جوابا لذلك الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم.

من عبد الله يحيى النووي، يُنهي أن خدَمَة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان –أعز

---

(1) **سلسلة ترويض المحن**

الله أنصاره- فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد، وفهمنا منه أن الجهاد ذُكر في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها فقال تعالى: (**وإِذْ أخَذَ الله مِيثَاقَ الذِينَ أوتُواْ الكِتَابَ لتُبَيِّنُنَّهُ للناسِ وَلاَ تَكتمونه**). فوجب علينا حينئذ بيانه وحرم علينا السكوت، قال الله تعالى: (**لَيْس عَلى الضُّعَفَاءِ ولا على المرضى وَلاَ عَلى الذينَ لا يَجَدُونَ ما يُنفقُونِ حَرَجٌ إذا نَصحِوا لله وَرَسوُلِهِ مَا عَلى المُحَسنِينَ منْ سَبيلٍ واللهُ غَفُورٌ رحيمٌ**).

وذكر في الجواب أن الجهاد ليس مختصا بالأجناد، وهذا أمر لم ندَّعِه ولكن الجهاد من فرض كفاية، فإذا قرر السلطان له أجنادا مخصوصين ولهم أخباز معلومه من بيت المال، كما هو الواقع تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم من الزراعة والصنائع وغيرها، الذي يحتاج الناس كلهم إليها، فجهاد الأجناد مقابَل بالأخباز المقررة لهم. ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء مادام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض، أو ضياع أو غير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان -أعز الله أنصاره- متفقون على هذا، وبيت المال معمور، زداه الله عمارة وسعة وخيرا وبركة في حياة السلطان، المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين، (**وَمَا النَّصْرُ إلا مِن عند الله**) إنما يُستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله واتباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم، وملازمة أحكام الشرع، وجميع ما كتبناه أولا وثانيا هو النصيحة التي نعتقدها، وندين الله بها، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه.

والسلطان يعلم أنها نصيحة له، وللرعية، وليس فيها ما يُلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا بأنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في الرفق بالرعية، والشفقة عليهم وإكرامهم.

وأما ما ذكر في الجواب من تهديد الرعية بسبب نصيحتنا؛ فليس هو المرجو من عدل

السلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين؛ كيف يؤاخَذون بنصيحة العلماء للسلطان؟!

وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد، ولا أكثر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان. فإني أعتقد أن هذا واجب عَليَّ وعلى غيري، وما ترتب عليه الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى: (**إنمَا هذه الحَيَاةُ الدُنْيَا مَتَاعٌ، وإنَّ الآخرةَ هيَ دَارُ القَرَار**) (**وأفَوِّضَ أمْري إلى اللهِ بَصيرٌ بِالعَبادِ**).

وقد أمرنا رسول الله صلى الله وسلم أن نقول بالحق حيثما كنا، وأن لا نخاف في الله لوم لائم، ونحن نحب للسلطان معالي الأمور، وأكمل الأحوال، وما ينفعه في آخرته ودنياه ويكون سببا لدوام الخيرات له، ويبقى ذكره له على الأيام، يخلد في سننه الحسنة ويجد نفعا (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا).

وأما ما ذكر من تهيئة السلطان البلاد، وإدامته الجهاد، وفتح الحصون، وقهر الأعداء، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة، وصارت في أقطار الأرض، وثواب ذلك مدخَر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا النصيحة الواجبة علينا..

والسلام عليكم ورحمة الله بركاته والحمد لله رب العالمين.

وبعد إجلاء التتار عن البلاد، زعم وكيل بيت المال للسلطان الظاهر بيبرس أن كثيرا من بساتين الشام من أملاك الدولة، فأمر الملك بالحوطة عليها، أي بحجزها وتكليف واضعي اليد على شيء منها إثبات ملكيته وإبراز وثائقه؛ فلجأ الناس إلى الإمام النووي لينصح السلطان بالعدول عن هذا الأمر؛ فواجه السلطان الظاهر، ولكن السلطان ظل على رأيه، فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: (**وَذكِّر إنِ الذِّكْرَي تَنْفَع المُؤْمِنِنَ**)، وقال الله

تعالى: (**وَإذ اخَذَ الله ميثَاقَ الذينَ أوتُواْ الكِتَابَ لتُبَيِّننهُ لِلناس وَلاَ تَكتُمونَهُ**). وقال تعالى: (**وَتَعاوَنُوا عَلى البرِّ والتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ على ا لإِثمً والعُدْوانِ**).

وقد أوجب الله تعالى على المكلفين نصيحة السلطان -أعز الله أنصاره- ونصيحة عامة للمسلمين. ففي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**الدين النصيحة لله ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم**". ومن نصيحة السلطان وفقه الله لطاعته، وتولاه بكرامته، أن ينهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفة وإزالة التضرر عنهم، قال الله تعالى: (**واَخْفِضْ جَنَاحَكَ للمُؤمِنينَ**).

وفى الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**"، وقال صلى الله عليه وسلم: "**من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**". وقال صلى الله عليه وسلم: "**اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه**". وقال صلى الله عليه وسلم: "**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**". وقال صلى الله عليه وسلم: "**إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**".

وقد أنعم الله تعالى علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان، وأعزه الله؛ وأذل له الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة، وأوقع الرعب في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين، ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسيفه أهل الزيغ والفساد، وأمره بالإعانة واللطف والسعادة، ولله الحمد على هذه النعم المتظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين وزيادتها، في خير وعافية آمين.

وقد أوجب الله شكر نعمه، ووعد الزيادة للشاكرين، قال تعالى: (**وَلئنْ شَكَرْتُم**

لأزيدكم). وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثبات لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين؛ بل مَن في يده شيء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه، ولا يُكلَّف بإثباته، وقد اشتُهر عن السلطان أنه يحب العمل بالشرع، ويوصي نوابه به، فهو أولى مَن عمل به والمسئول إطلاق الناس من هذه الحوطة، والإفراج عن جميعهم؛ فأطلِقهم أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعفة وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين، والضعفة والصالحون، وبهم تُنصر، وتُغاث، وتُرزق، وهم سكان الشام المبارك، جيران الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، سكان ديارهم؛ فلهم حرمات من جهات، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم، وأطلقهم في الحال ولم يؤخرهم، ولكن لا تُنهى الأمور إليه على وجهها.

فيالَله.. أغِث المسلمين يُغثك الله، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجِّل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار، وتلف غلاتهم؛ فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء وقد نهبت كتبهم، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن رفق بأمته، ونصره على أعدائه، فقد قال الله تعالى: (**إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنْصرُكُم**)، ويتوفر له من رعيته الدعوات، وتظهر في مملكته البركات، ويبارك الله في جميع ما يقصده من الخيرات.

وفي الحديث: **"من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"**.

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يُذكر بها يوم القيامة، ويحميه من السنن السيئة.

فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فكان رحمه الله هذا دأبه، وهذه سنته التي سار عليها مع السلطان، وكثيرا ما أراد السلطان أن يبطش به، ولكن الله تعالى سلَّم الإمام وحماه.[1]

وصدق من قال فيه:

كساكَ ربُّكَ أوصافًا مُجمَّلَةً يَضيقُ عن حصرها التفصيلُ والجُمَلُ
زهدتَ في باطلِ الدنيا وزُخرُفِها عزمًا وحزمًا فمضروبٌ بكَ المثَلُ

☆ وهذا الإمام العلامة الحافظ الأوحد، شيخ الأندلس والمغرب، وفريد عصره، **ٱمبضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي** الأندلسي ثم السبتي المالكي، وُلد سنة ٤٧٦هـ بمدينة سبتة المغربية (وهي ما زالت واقعة حتى الآن تحت الاحتلال الإسباني) وكان جده عمرو قد هاجر من الأندلس إلى المغرب أيام ملوك الطوائف، وسكن مدينة سبتة وبها وُلد القاضي عياض.

كانت مدينة "سَبتة" عندما وُلد القاضي عياض تحت حكم دولة المرابطين العظيمة، وهذه الدولة كانت من أعظم الدول الإسلامية التي ظهرت في بلاد المغرب عبر عصورها جميعًا، فلقد كانت دولة مجاهدة من الطراز الأول، حققت في هذا المضمار الكثير من الفتوحات والإنجازات الخالدة، وكان لها الفضل في نشر الإسلام في غرب ووسط القارة الإفريقية، وكان قادة وسلاطين وأمراء تلك الدولة يعظمون العلماء والفقهاء ويجلونهم، وما سقطت تلك الدولة العظيمة إلا عندما تسلل الترف والفساد إلى جنباتها.

تولى القاضي عياض منصب القضاء سنة ٥١٠ هـ في مدينة سبتة، وكان في الخامسة

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام النووي (بتصرف يسير)

والثلاثين، وكانت أولى علامات الفساد بدأت في الظهور في جنبات الدولة المرابطية، وكانت تلك العلامة هي الوساطة والشفاعة لبعض الناس والمحسوبية لهم على حساب الآخرين فتصدى القاضي عياض لتلك الآفة، وسار في ولايته بمنتهى النزاهة والأمانة، وأبدى حزمًا في تطبيق الحدود والأحكام، واشتهر بين الناس بغزير علمه وحفظه، وصدق طريقته، ودقة فتياه، وحياديته الكاملة، حتى طارت شهرته في كل مكان.

يوسف بن تاشفين"- يوليه قضاء غرناطة بالأندلس، ليصلح من شأنها، نظرًا لانتشار المفاسد بين أهلها، وكثرة القلاقل والاضطرابات بها، فتولى القاضي عياض قضاء غرناطة في سنة ٥٣١ هـ، فقام به خير قيام، وأعرض عن الشفاعات والمؤثرات، وردع أرباب الولايات وأتباع السلطان عن الباطل، وعزل كل من ثبتت عدم أهليته وكفايته من منصبه، فشرد كثيرًا من حاشية أمير الأندلس "تاشفين بن عليّ" عن أعمالهم ومناصبهم، فاستاء منه الأمير "تاشفين بن عليّ" وضاق به ذرعًا، خاصة والقاضي عياض يرفض رفضًا تامًا أي تدخل في عمله وأي محسوبية أو وساطة، حتى لو كانت من الأمير نفسه، فسعى الأمير "تاشفين بن علي" عند أبيه أمير المسلمين "علي بن يوسف" حتى يصرف القاضي عياض عن منصبه، وبالفعل تم له مراده وعُزل القاضي عياض عن منصبه في رمضان سنة ٥٣٢ هـ.

لم يفت هذا العزل في عضد القاضي عياض ولم ينل من مكانته ولا قدره، فعاد إلى مدينته سَبتة وعكف فيها على التدريس والفتيا ونشر العلم، وفي سنة ٥٣٩ هـ طلب أمير المرابطين "تاشفين بن علي" أن يلي منصب القضاء في سبتة، وكانت أحوال دولة المرابطين قد تدهورت، واكتسحت جيوش الموحدين معظم ولاياتها في المغرب، فأراد "تاشفين بن علي" رجالاً صالحين في تلك المناصب الحساسة لوقف تدهور الدولة المرابطية.. ولله في خلقه شئون؛ فتاشفين بن علي هو الذي اجتهد أول مرة لعزل القاضي عياض عن منصبه، وهو نفسه الذي اجتهد لإعادته لنفس المنصب، وذلك عندما احتاج لعلمه وزهده

ونزاهته..!

بلغ الكتاب أجله، وسقطت الدولة المرابطية المجاهدة، لما تخلت عن أسباب قوتها وبقائها، وأخلدت إلى الأرض والترف والشهوات، وحلت محلها دولة الموحدين، وتلك الدولة كانت على النقيض من دولة المرابطين، فمؤسسها دجال ادعى المهدية اسمه "محمد ابن تومرت"، وقد ابتدع لهم عقيدة خاصة بأتباعه أسماها "المرشدة"، هي عبارة عن خليط من آراء المعتزلة والأشاعرة والجهمية، وقرر لهم الكثير من البدع والخرافات، وقد سلك ذلك الرجل الدجال وأتباعه مسلك القسوة المفرطة والوحشية القصوى في التعامل مع المرابطين، وسفكوا دماء مئات الآلاف من المرابطين واستحيوا نساءهم، وأبادوا مدنًا بأكملها من على وجه الأرض، حتى أن الموحدين قد قتلوا قرابة المليون مسلم من أجل إقامة دولتهم.

عندما رأى القاضي عياض تلك القسوة والوحشية الدموية المفرطة في تعامل الموحدين مع خصومهم، خاف على أهل سبتة من أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل مدينة "سلا" المغربية الذين ذبحهم الموحدون عن بكرة أبيهم عندما حاولوا مقاومتهم، ورأى أن من المصلحة أن يدخل هو وأهل سبتة في طاعة الموحدين، حتى تستقر الأمور ويرى بهدوء وروية ما يمكن عمله بعد ذلك، وبالفعل دخل القاضي عياض وأهل سبتة في طاعة الموحدين في سنة ٥٤٠ هـــ، وأقره الموحدون على منصب القضاء.

أخذ القاضي عياض في تسيير شئون "سبتة" حسب مقتضيات الشرع والعدل، وهو في نفس الأمر يفكر في كيفية التصرف مع هؤلاء الخوارج المبتدعين الضالين أتباع الدجال "ابن تومرت"، ثم وقعت مذبحة "مراكش" المهولة التي لم تعرف بلاد المغرب والإسلام قبلها من نظير، وذلك عندما قام الموحدون باقتحام مدينة "مراكش" عاصمة المرابطين وآخر حصونهم وذبحوا أهلها جميعًا وكانوا بمئات الألوف، واسترقوا النساء والأطفال، ثم

قاموا بعد ذلك بهدم المدينة بالكلية بدعوى أنها مدينة نجسة وأهلها مشركون.[1]

أثرت هذه المذبحة البشعة في نفسية القاضي عياض بشدة، وأيقن أنه لا سبيل للتعامل مع هؤلاء الضلال المبتدعة، وأن مصير "سبتة" سيكون كمصير "مراكش" و"سلا" و"وهران" وغيرها من البلاد والمدن التي رفضت عقيدة "ابن تومرت" الضالة.

قرر القاضي عياض الاتصال بزعيم المرابطين "يحيى بن غانية" وكان الوحيد الذي بقي من كبار قادة المرابطين، وقد استطاع أن يسيطر على جزر الأندلس الشرقية "ميورقة" وأخواتها، فاتصل به القاضي عياض ونسق معه من أجل القدوم إلى مدينة "سبتة" وتسليمها إليه، على أن يعمل "يحيى بن غانية" على مجاهدة الموحدين وتحرير مدن المغرب من نيرهم وضلالهم، وبالفعل وافق "يحيى بن غانية" على ذلك، فأعلن أهل "سبتة" خلع طاعة الموحدين، وذلك سنة ٥٤٣ هـ.

سارت الأمور على غير مراد القاضي عياض، إذ تخاذل "يحيى بن غانية" عن القدوم إلى "سبتة"، في حين أسرع الموحدون إلى حصار المدينة بجيوش كثيفة، فخاف القاضي عياض على أهل المدينة من القتل والسبي، فخرج إلى الموحدين بنفسه، وقرر لهم أنه المسئول عما جرى، فحملوه إلى أمير الموحدين "عبد المؤمن بن علي" وكان وقتها في "مراكش"، فعفا عنه عبد المؤمن وصفح عما جرى، ولكنه طلب منه أن يقر بعصمة "ابن تومرت" ومهديته، ويكتب بذلك كتابًا للآفاق كلها..!

أدرك القاضي عياض أن الموحدين قد طلبوا منه ذلك الكتاب ليكون حجة لهم ودليلاً على باطلهم، وصك شرعية من أكبر علماء المغرب والأندلس وقتها، وأدرك أن حياته على المحك، وأنه إذا رفض سيقتل ولابد، وعلم أنه لو أذعن وأعطاهم ما يطلبون لضلَّ كثير من الناس، واتبعوا الموحدين في ضلالهم وعقيدتهم المبتدعة، بل وأهدر بكتابه ذلك دماء مئات الألوف من الأبرياء الذين قتلوا ظلمًا وعدوانًا بسيوف الموحدين.

---

[1] كان الموحدون يصفون المرابطين بالمجسمة والمشبهة كما هي عادة أهل الزيغ والضلال مع أهل السنة والجماعة.

تراءت كل هذه المعطيات والنتائج في عقل القاضي عياض، فقرر التضحية بنفسه وإيثار مرضاة الله عز وجل وحده، وإيثار الحق والعلم الذي قضى عمره كله يدعو إليه ويقضي به وينشره بين الناس..

وأعلنها مدوية أمام الموحدين المبتدعين؛ أنه لا عصمة لابن تومرت، ولا مهدية له، وأنه دجال ضال في باب العقائد والأقوال والأفعال، وأن دماء الأبرياء في رقبته وهو مسئول عنها يوم القيامة.

وذلك في اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ، فقام الموحدون بقتله بالرماح حتى قطعوه إربًا، ثم قاموا بجمع أشلائه ودفنوها في مكان مجهول بمراكش بلا صلاة ولا غسل كأنه واحد من غير المسلمين، بل قاموا بعد ذلك بما هو أنكى، فأقطعوا تلك المنطقة للنصارى، فبنوا بجوار قبره كنيسة وبعض الدور.

ولأن الله عز وجل ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة والآخرة، فقد عثر على قبر القاضي عياض سنة ٧١٢ هـ في عهد الدولة المرينية السنية، والتي أسقطت دولة الموحدين الخبيثة، وفرح الناس والعلماء بذلك الأمر بشدة، وأمر القاضي أبو إسحاق بن الصباغ بتسوية ما حول القبر وإشهاره وإظهاره.[1]

☆ وهذا الإمام العلامة، القدوة الزاهد، العالم العابد، فخر الأندلس، وشيخ المالكية **لثثقش ِدّذ ثَ الوليث ّ خٍف ثَ سليمان بن أيـ دثة ٱفـَدري الأنـدُسي طُشطوشي**، فقيه الإسكندرية وعالمها، وناشر السنة، وقامع البدعة في مصر أيام الفاطميين الأشرار، وُلد في عام ٤٥١ هـ بمدينة طرطوشة الأندلسية.

انتقل الطرطوشي من الأندلس إلى المغرب إلى الحجاز إلى العراق إلى الشام إلى مصر، وذلك كله طلبًا للعلم والرواية، ونشرًا للعلم والتدريس، فلقد كانت قضية نشر العلم

---

(1) سلسلة ترويض المحن: شريف عبد العزيز – موقع "مفكرة الإسلام"

والسنة هي الشغل الشاغل لحياة الإمام الطرطوشي، فلما وصل إلى مصر، تاقت نفسه للإقامة في الإسكندرية، لموافقة طبيعتها لطبيعة مسقط رأس الإمام بالأندلس، فلما وصلها لم يكن في نيته المقام بها إلا قدر الحاجة، وحاجته كانت نشر العلم ونفع الناس، ولكنه لما وصل الإسكندرية وجدها قفرًا من العلم والعلماء، والمساجد خالية والمدارس مغلقة بسبب ملاحقة الفاطميين الزنادقة لعلماء أهل السنة وتشريدهم وقتلهم وإيذائهم، فقرر الطرطوشي استوطان الإسكندرية، ونشر العلم والسنة بها، وكان يقول في ذلك: إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية، أقول له: وجدت قومًا ضلالاً فكنت سبب هدايتهم.

وبالفعل لم يلبث الطرطوشي في الإسكندرية إلا قليلاً حتى عرف واشتهر، وأقبل عليه طلبة العلم الذين وجدوا فيه ضالتهم، وكأنهم قد وقعوا على كنز، فازدحموا على دروسه، وكان قد تزوج من سيدة موسرة صالحة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها ووهبته دارًا من أملاكها، فقرر أن يجعل تلك الدار مدرسة علمية على طراز المدارس النظامية التي رآها في بغداد أثناء رحلته، والتحق بتلك المدرسة الكثير من طلبة العلم، وكان ينفق على تلاميذه ويضيف الغرباء منهم فيها.

اصطنع الطرطوشي طريقة جديدة في التعليم هي أقرب ما تكون للتربية والتعليم بالنظم الحديثة حيث لم تقتصر علاقته مع طلبته وتلاميذه مع حلقة الدرس فقط، ثم ينفضوا من حوله، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم في رحلات خلوية إلى البساتين والمتنزهات خارج المدينة، وهناك يقضون عدة أيام على غرار المعسكرات الكشفية، يلقي دروسه في الهواء الطلق على تلاميذه ويذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه، وقد لاقت هذه الطريقة إعجاب تلاميذه فأقبلوا عليه، وكثر عددهم، حتى كان يخرج معه في رحلاته تلك أربعمائة طالب، وبذلك يكون الطرطوشي قد سبق الأوروبيين وغيرهم من أصحاب النظريات الحديثة في التربية.

كانت الدولة العبيدية الرافضية الخبيثة وقتها تحت سيطرة الوزير الأفضل شاهنشاه ابن

أمير الجيوش بدر الجمالي، وكان طاغية جبارًا، غشومًا ظلومًا، في ظل حكمه الجائر احتل الصليبيون بيت المقدس وسواحل الشام، فلما سمع الطرطوشي عن جبروته وقوته وسلطانه، قرر الذهاب إلى القاهرة لنصحه ووعظه كما يليق بالعلماء المخلصين الربانيين، ويطلب منه الرفق بالرعية، وإشاعة العدل بينهم.

وصل الطرطوشي إلى قصر الوزير الطاغية، ودخل عليه مجلسه، فوجده زاخرًا بمتع الدنيا وزخارفها، وفيه من علامات الأبهة والتكبر ما لا يوصف، فدخل الطرطوشي على الطاغية في قصره، ثم شرع في وعظه ونصحه بعبارات تفيض بالترهيب والترغيب، بأسلوب بلاغي رائع، جعل الطاغية الجبار يهتز ويبكي، وكان يجلس بجوار الوزير أحد النصارى، فأنشد الطرطوشي:

يا ذا الذي طاعتُه قُربةٌ وحقُّه مفترَضٌ واجبُ
إن الذي شرفتَ مِن أجلِه يزعمُ هذا أنه كاذبُ

وأشار إلى ذلك النصراني، فأقام الوزير النصراني من موضعه، وأخرجه من مجلسه.

عاد الطرطوشي إلى الإسكندرية، بعدما أدى النصح لولاة الأمور، وبرهن على واجبات العلماء الربانيين، وتفرغ بعدها للعلم والتعليم، وقد زادت شهرته بين الناس وازداد معه عدد الطلبة والتلاميذ، ولكن هذا الإقبال جر على الطرطوشي الوبال والمحن فقد ضاق به قاضي الإسكندرية "ابن حديد" ضيقًا شديدًا، خاصة وأن الطرطوشي قد أحدث نهضة علمية كبيرة بالبلد، واهتم الناس بالقرآن والسنة..

وكان للطرطوشي فتاوى كثيرة يعارض فيها النظم والقواعد التي يسير عليها ولاة الدولة، وكان دائم الانتقاد لسياسة بني حديد، وقد ألف رسالة مهمة في نقد أوضاع وعادات المجتمع وقتها سماها: "بدع الأمور ومحدثاتها"، ثم

أفتى بحرمة الجبن الذي يستورد من الروم وكانت تجارته رائجة، وتدر دخلاً كبيرًا على خزانة بني حديد.

جمع القاضي الفاسد ابن حديد هذه الأنشطة كلها، ورفعها إلى الوزير الأفضل وشفعها ببيان خطورة الطرطوشي على البلد، وأنه يهدد السلام الاجتماعي بكثرة انتقاده لأوضاع ونظم الدولة، ولربما يؤدي لثورة الناس، وضعف الإيرادات بسبب فتاويه بالتحريم وغيرها..!!

ولم يكن الوزير الطاغية بحاجة لمزيد من الشحن والتحريض ضد الإمام الطرطوشي، فأرسل إلى ابن حديد يأمره بإرسال الطرطوشي إليه، فلما جاءه الرسول الذي سيحمله إلى القاهرة قال له: "يسر حوائجك فإنك تمشي يوم كذا".. فقال الطرطوشي: "وأي حوائج معي؟ ريش الكتابة، وطعامي في حوصلتي".. مما يدل على زهده ورقة حاله، واستعداده الدائم لتقبل النوازل والمحن.

وصل الطرطوشي إلى القاهرة، وهناك أمره الوزير الأفضل بالبقاء في الفسطاط وحدد إقامته في مسجد الرصد جنوبي الفسطاط (القاهرة القديمة)، وضيق عليه بشدة، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه، وجعل رزقه الشهري بضعة دنانير يأخذها من متحصل جزية اليهود، إمعانًا في التضييق عليه، وذلك سنة ٥١٤ هـ.

ظل الطرطوشي رهن الإقامة الجبرية في مسجد الرصد، شهورًا طويلة، لا يجرؤ أحد على زيارته أو الاجتماع معه، وقد تحول المسجد إلى معتقل كبير للإمام، حتى أن الناس قد هجروا الصلاة في المسجد؛ خوفًا من أن يتهموا بالاتصال بالشيخ، وتطاولت الأيام عليه وهو وحده في المسجد، وليس معه إلا خادمه، وكان أشد شيء على الإمام منعه من التدريس والتعليم والاجتماع مع تلاميذه وطلبته، وضاقت نفسه بشدة من هذه المحنة.

ولما طال الحبس والمنع، قرر الإمام الصالح أن يخرج من هذا السجن الطويل، وذلك بمساعدة رب السموات والأرض، فترك الأكل من الطعام الذي يأتيه من رزق الوزير

الطاغية، وأمر خادمه بجمع المباح من الأرض، وتقوت به، وظل صائمًا قائمًا، يفطر على ما يأتيه من المباح من الأرض، وفي يوم من أيام شهر رمضان سنة ٥١٥ هـ، وتحديدًا يوم ٢٨ رمضان، وساعة الغروب قال الطرطوشي لخادمه: "لقد رميته الساعة"..!

فلما كان من الغد ركب الوزير الطاغية في موكبه، فهجم عليه مجموعة من الفرسان فقتلوه، فعُدَّ ذلك الأمر كرامة هائلة للإمام الطرطوشي تدل على قدره ومكانته.

تولى الوزارة بعد الأفضل، المأمون البطائحي، وكان يجل الإمام، ويعرف المحنة التي وقعت له مع الأفضل، فأخرجه من الحبس وأكرمه، فطلب الطرطوشي من الوزير الجديد أن يأذن له بالعودة إلى الإسكندرية، فأذن له.

فلما عاد جعل شغله الشاغل في تأليف كتاب في فن السياسة والحكم وأصول العدل والرفق بالرعية، حتى يقدمه كدليل ومرشد للوزير الجديد حتى لا تأخذه أبهة السلطان فيسير على نهج سلفه المقتول، وهذا الكتاب "سراج الملوك" هو أمتع كتبه وأجودها، نظمه قلم عالم سبكته المحن، وامتحنته البلايا والفتن، ولكنه خرج منها إمامًا كبيرًا، ومربيًا رائدًا، وعالمًا ربانيًا، يندر وجوده في أيامنا هذه. [1]

وهذا جزء من رسالة للإمام الطرطوشي يخاطب فيها الأمير "يوسف بن تاشفين": [1]

[.. فاتقِ الله يا أبا يعقوب في أمة محمد ﷺ؛ فإنَّ لك مع الله تعالى موقفًا يسائلك فيه

---

[1] سلسلة ترويض المحن: شريف عبد العزيز – موقع "مفكرة الإسلام"

[1] يوسف بن تاشفين هو أول من تسمى بـ"أمير المسلمين"، خاطب الخليفة المستظهر بالله العباسي ببغداد، وبعث إليه طالبًا أن يعقد له بالمغرب والأندلس؛ فعقد له. وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع أنه كان بعيدًا عنه، وأقوى شوكة منه؛ لتكون ولايته مستندة إلى الشرع، وهذا من ورعه رحمه الله.. وإنما تسمى بـ"أمير المسلمين" دون أمير المؤمنين أدبًا مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه؛ لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة. وهو صاحب النصر الأغر على الصليبيين بزعامة ألفونس السادس في معركة "الزلاقة"؛ التي حالت دون سقوط الأندلس كلها في يد النصارى، ومدت في عمر الإسلام بالأندلس حوالي القرنين ونصف القرن.

عنهم شخصًا شخصًا؛ ذكرًا وأنثى، صغيرًا وكبيرًا، حرًّا وعبدًا، مسلمًا وذِميًّا.. فأعد لذلك المقام كلامًا، ولذلك السؤال جوابًا..

واعلم يا أبا يعقوب أنه لا يزني فرج في ولايتك، ومدى سلطانك، وطول عمرك، إلا كنت المسئول عنه، والمرتهن بجريرته.. وكذلك لا يُشرَب فيها نقطة مُسكِر إلا وأنت المسئول عنها.. ولا يُنتَهك عرض امرئ مسلم إلا وأنت المطالَب به.. ولا يُتعامَل بالربا إلا وأنت المأخوذ به.. وكذلك سائر المظالم، وكل حرمة انتُهِكت مِن حرمات الله تعالى؛ فعُهدتها عليك، لأنك القادر على تغييرها..

فأما ما خفي من ذلك ولم يكن ظاهرًا يراه المسلمون فأنت المبرأ منه إن شاء الله تعالى، ألا ترى إلى عمر بن الخطاب كيف أشفق أن يطالبه الله ببعير من إبل الصدقة؟ وإنما هو البعير للمسلمين، فركب على بعيره، وجعل يطلبه بنفسه.. ولا عذر لك عند الله تعالى أن تقول: لم يبلغني..! فإنك إذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه؟! ولقد بلغني يا أبا يعقوب أنك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين، واتخذت دونهم حجابًا، وأن طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك..!

واعلم يا أبا يعقوب أن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين، ولا يرده جور جائر ولا فسق فاسق إلى أن تقوم الساعة؛ فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور؛ لأنك أقرب الملوك إليها، وعندك الكُراع والسلاح، ولأمة الحرب وآلتها، وجيوش المسلمين، وحُماة البيضة طائعون لك..

لم يُرَ في بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج إلا ما أمر الله به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم. وقد جبى في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبه أحد قبله. وكان رحمه الله زاهدًا في زينة الدنيا وزهرتها، ورعًا متقشفًا، لباسه الصوف لم يلبس قط غيره، ومأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها مقتصرًا على ذلك؛ على ما منحه الله من سعة الملك، وخوله من نعمة الدنيا. وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة، وأسقط ما دون الأحكام الشرعية، وكان يسير في أعماله بنفسه فيتفقد أحوال الرعية في كل سنة. وكان محبًّا للفقهاء وأهل العلم والفضل، مكرمًا لهم، صادرًا عن رأيهم، يُجري عليهم أرزاقهم مِن بيت المال. وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعًا، كثير الحياء، جامعا لخصال الخير.. رحمه الله تعالى ورضي عنه. [الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (بتصرف)]

فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السماوات والأرض فلا يكون لك فيها موقف قدم..! أعاذنا الله وإياك من هذا الموقف.] ا.هـــ

ٱدُ في درب الهدي ميلادُ

يـا فـوزَ رُوحِكَ يـا شهـيدُ وقـد غَدت
من
أسْــرِ هيكلِها تطيرُ وتُعتَقُ
صعدَتْ لـبارئـها الـكريمِ يَسوقُـها
فـــرِحٌ
ويَحـــدُوهــا إلـيهِ تَشـوُّقُ

ٱخ في درب الهدى ميلاد:

اعلم أن الشهادة رتبة عظيمة ومترلة سامية، لا يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم، ولا ينالها إلا مَن سبق له القدر بالفوز المقيم.

والشهداء مع الأنبياء في الجنة، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء:٦٩]

ٱخزِف ٱعلماء في دىّخ تسمية الشهيد شهيدا.. فقيل: سمي بذلك لأنه مشهود له بالجنة. وقيل: سمي الشهداء بذلك، لأن أرواحهم شهدت الجنة، وحضرت دار السلام، وهم أحياءٌ عند ربهم.. فالشهيد بمعنى الشاهد، والشاهد هو الحاضر في الجنة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح.

وقال ابن فارس: الشهيد القتيل في سبيل الله، وسمي بذلك إما لأن الملائكة تشهده، وإما لأنه شهد على نفسه لله عز وجل، حين لزمه الوفاء بالبيعة التي بايع الله عليها، والتي أشار لها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ [التوبة:١١١] فاتصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد، فسماه الله شهيدا.

وقال ابن الأنباري: سمي شهيدا لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة.

وقيل: سمي بذلك لأنه عند خروج روحه، يشهد ما أعد الله له من الثواب والكرامة. وقيل: سمي بذلك لأن عليه شاهدا يشهد كونه شهيدا، وهو الدم.

لذ نَّ الله عل ٱُلش ذَاء بنعم عظيمة، ّخصُصّٓش جليلخ.. ومن أعظم هذه النعم والمآثر المزايا أنه جعلهم أحياء عنده، يرزقهم من الجنة حيث شاءوا.

قال تعالى: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾** [البقرة:١٥٤]

أي: ولا تتحدثوا في شأنهم، فتقولوا: إنهم أموات، بل هم أحياء في عالم غير عالمكم، ولكن لا تشعرون بحياتهم، إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر، بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس وبها يرزقون وينعمون، ولا نعرف حقيقة هذه الحياة ولا الرزق الذي يكون فيها، ولا نبحث عن ذلك لأنه من عالم الغيب، فنفوض أمره إلى الله، وقيل: إنها حياة روحانية محضة لا ندرك سرها.

وقد أبان سبحانه في هذه الآية جزاء ما يلاقيه المؤمن في تأييد الدعوة إلى دينه مما يصل به أحيانا إلى القتل في التغلب على مَن يصد الناس عن الدعوة ويقاتل في الدفاع عن الباطل، فذكر ما أعد له من النعيم المقيم، والرزق المتواصل، والحياة التي لا يعرف كنهها إلا علام الغيوب، جزاء ما فعل لتأييد حجة الله البالغة، والجهر بالحق، والصدع بأمر ربه، فكان له ما كان مما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل، مما تظنون وتحسبون.

وفي هذه الآية، أعظم حث على الجهاد في سبيل الله، وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام، هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون

كذلك والله تعالى قد: (اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ).

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفسا فنفسا في سبيل الله، لم يكن عظيما في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وقال تعالى: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [آل عمران:١٦٩-١٧١]

روى البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارا هي أحسن وأفضل لم أر قط أحسن منها، قالا: أما هذه الدار فدار الشهداء"**.

وروى أحمد والحاكم وابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"الشهداء على بارق نهرٍ بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقُهم من الجنة بكرة وعشيا"**. ذكر ابن أبي حاتم أن "بارق" نهر بباب الجنة.

وروى الترمذي والحاكم عن جابر بن عبد الله قال: نظر إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **"ما لي أراك مهتما؟" قال: قلت: يا رسول الله! قُتل أبي وترك دينا وعيالا، فقال: "ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا، فقال: يا عبدي! سَلني أُعطك.. فقال: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأُقتَل فيك ثانيا، فقال: إنه**

قد سبق مني أهم إليها لا يُرجعون، قال: يا ربِّ! فأبلغ مَن ورائي، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا.. ﴾

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **"ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتَل عشر مرات لما يرى من الكرامة".**

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **"والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل".**

لذ اخزِف العلماء في معنى جبيح ٱشذاء.. قال القرطبي: الذي عليه معظم العلماء أن حياة الشهداء محققة، وأهم أحياءٌ في الجنة يرزقون فيها، كما أخبر الله تعالى.

لقد ماتوا وغادروا هذه الدنيا، لكنهم فُضلوا على سائر الناس بالرزق في الجنة، حتى كأن الحياة دائمةٌ لهم.

وذهب بعض العلماء إلى أنَّ أرواحهم تُرَد إلى أجسادهم وهم في قبورهم، فيتنعمون فيها. وقال مجاهد: يُرزق الشهداء من ثمر الجنة، ويجدون من ريحها، مع أهم ليسوا فيها.

ٱلشاجخ الصحيخ: أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، وأهم في الجنة، يرزقون ويتنعمون ويأكلون. لأنه هو الذي دلَّت عليه النصوص السابقة من الآيات والأحاديث.

ٱشيَد لا يجد ٱ ٱمز إلا وّب يجد ٱ ٱمشصرخ: روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"لا يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدُكم مِن مس القرصة".** [صححه الألباني]

وإذا كان هذا حال القتيل فكيف بما دون القتل؟ وهي الجراح التي يصاب بها الجريح؟ فالجريح في سبيل الله أيضا لا يجد من ألم الجرح ما يجده غيره، وهذا أمر مستقر، لا يجحده إلا مَن لم يجرب.. وإن العقل لا يستبعد ذلك، فإن سَوْرة الغضب والحمية إذا اشتدت عند الإنسان، فإنه يجد في نفسه من الشدة والقوة والاحتمال وقلة المبالاة بالمكروه وعدم الإحساس بالألم ما لم يكن يجده من قبل!

وربما يقع بين المتخاصمين من الشجاج المؤلمة والجراح البالغة، ومع ذلك لا يحسون بها إلا بعد انفصالهم مما هم فيه، وكل منهم مجتهد في الدفع عن نفسه، كاره للموت أن يترل به!

فكيف بمن يشتد غضبه لله، ويخرج عن نفسه إلى الله، ويتمنى الشهادة عند الله، ويُعدُّ ما أصابه من فضل الله، ويشهد بقوة نور الإيمان ما أعد الله للشهداء والجرحى في سبيله من الفضل الجزيل، شهودًا محققا لا علما مجردًا؟!

ومما يتفق مع هذا ما قاله أنس بن النضر رضي الله عنه يوم أحد: واها لريح الجنة، إني لأجد ريحها دون أُحد! ثم انغمس في المشركين حتى قتل.

ونقل عن امرأة فتح الموصلي أنها عثرت رجلها، فطار ظفرها، فضحكت! فقيل لها: يذهب ظفرك وتضحكين؟ قالت: إن حلاوة الأجر أذهبت عني مرارة الألم!

وروي أن رِجْل حتاش بن قيس القشيري قد قُطعت في معركة اليرموك، وهو يقاتل الروم، وقد قَتل كثيرين، فلم يشعر بقطع رِجْله إلا بعد انتهاء المعركة.

وذكر د. عبد الله عزام أنه رأى هذا مع خالد الكردي من المدينة المنورة عندما انفجر اللغم به، طارت قدمه وانبقرت بطنه واندلقت أمعاؤه وجُرح جروحا بسيطة في ظهر يده، فجاء الدكتور صالح الليبي وبدأ يلم أمعاءه ويعيدها إلى بطنه، وبكى الدكتور صالح، فقال له خالد الكردي: لماذا تبكي يا دكتور؟! هي جروح بسيطة في ظهر يدي!! وبقي

يحدثهم ساعتين ولقي الله، و لم يشعر أن قدمه قد قطعت، وبطنه مفتوحة..!! [إتحاف العباد بفضائل الجهاد]

الشهيد عند الله عز وجل: عن المقدام بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: **"للشهيدِ عندَ اللهِ ستُّ خِصالٍ: يُغفَرُ لهُ في أولِ دفعةٍ، ويَرى مَقعدَهُ مِنَ الجنةِ، ويُجارُ مِن عذابِ القبرِ، ويأمنُ مِنَ الفزعِ الأكبرِ، ويُوضَعُ على رأسِهِ تاجُ الوقارِ؛ الياقوتةُ منهُ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها، ويُزَوَّجُ اثنتينِ وسبعينَ زوجةً مِنَ الحُورِ العِينِ، ويُشَفَّعُ في سبعينَ مِن أقاربِهِ"**. [رواه ابن ماجه والترمذي، وصححه الألباني.]

قال مجاهد: قام يزيد بن شجرة الرهاوي في أصحابه خطيبا فقال: إذا لقيتم العدو فقدما قدما.. لقد فُتحت أبواب السماء، وأبواب الجنة، وأبواب النار، وزينت الحور العين، واطلعن عليه.. فإذا أقبل الرجل المجاهد، قلن: اللهم انصره. وإذا أدبر احتجبن منه، وقلن: اللهم اغفر له.. فأنهكوا وجوه القوم، فدى لكم أبي وأمي، ولا تخزوا الحور العين، فإن أول قطرة تنضح من دمه يكفر الله عنه كل شيء عمله، وتترل إليه زوجتان من الحور العين، تمسحان التراب عن وجهه..

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إذا قُتل العبد في سبيل الله فأول قطرة تقع على الأرض من دمه يغفر الله ذنوبه كلها.

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: **"يُغفَرُ للشهيدِ كلُّ ذنبٍ إلا الدَّيْنَ"**.

قال القرطبي: الدين الذي يُحبَس به صاحبه عن الجنة - والله أعلم - هو الذي قد ترك له وفاء و لم يوصِ به، أو قدر على الأداء و لم يؤده، أو ادَّانه في سرف أو في سفه ومات و لم يوفه. وأما مَن ادَّان في حق واجب لفاقة أوعسر ومات و لم يترك وفاء؛ فإن الله لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله.

ٱلشَيذ لا يفتن في ٱلجش، وقد ثبت أن المرابط في سبيل الله لا يفتن في قبره، فالشهيد أولى من المرابط بذلك، لأنه أفضل منه. ولا يفتن الشهيد في قبره، لأنه كفى ببارقةِ السيوف على رأسه فتنة.

إن الفتنة في القبر إنما هي لاختبار ما عند الإنسان من حقيقة الإيمان والتصديق. ولا شك أن مَن وقف للقتال ورأى السيوف تلمع وتقطع، والأسنة تبرق وتخرق، والسهام ترشق وتمرق، والرءوس تندر، والدماءَ تثعب، والأعضاء تتطاير، والناس بين قتيل وجريح وطريح، إن مَن رأى ذلك فثبت ولم يول الدبر ولم ينهزم، وإنما جاد بنفسه لله تعالى، إيمانا به، وتصديقا بوعده ووعيده، إنما يكفيه هذا امتحانا لإيمانه، واختبارا له، وهذه هي الفتنة التي ما بعدها فتنة.. إذ لو كان عنده شك أو ارتياب فيما عند الله لولى الدبر، وذهل عما هو واجب عليه من الثبات.. يكفي للشهيد هذا الامتحان من سؤال الفتان.

ٱلشَيد لا يصعق عندما يبعث ٱلجش يـ ٱلقيامخ: روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سأل جبرائيل عن هذه الآية: (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ**):[1] **"مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟" قال: "هم شهداء الله"** [صححه الألباني]

ـذي بساتيـ ٱجـ إ ... ٱخاطبيـــــ فأين مَـ
نَـزينَ دْ ... يرتـــــادُ
ميعادُ ٱطِلشُ ٱلمبينفُئن ي ى ... ـخُ فعنـــذ إـ ـإـــا
دعـ ا د درٱـــايَ ... ٱلميعـــــادُ
شَـــدجً ... نـا ـ ٱخُـي دربِ ٱـ ـ ذ. ميـــلادُ[2]

۞ ۞ ۞

تألقي يا طيور الخلد:

[1] الزمر: ٦٨

[2] من قصيدة "نسبى ونطرد" للشاعر د/ عبد الرحمن العشماوي

والشهداء ليسوا على رتبة واحدة عند الله، فهم متفاوتون في المكانة، ومتفاوتون في المكان. وسبب ذلك التفاوت هو تفاوتهم في درجات إخلاصهم، وسماحة أنفسهم بأنفسهم، وتفاوتهم فيما كانوا عليه قبل الاستشهاد من الأعمال الصالحة..

– من الشهداء من تكون روحه في جوف طير أخضر، يرعى في الجنة حيث شاء، ثم يأوي إلى قناديل معلقةٍ في ظل العرش.

– ومن الشهداء من يكون على بارق نهرٍ بباب الجنة، يأتيهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا.

– ومن الشهداء من يطير مع الملائكة في الجنة حيث يشاء.

– ومن الشهداء من يكون على أسرة في الجنة.

روى مسلم عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ **قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: "أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا ربِّ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا".**

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بخباء أعرابي وهو في أصحابه يريدون الغزو فرفع الأعرابي ناحية من الخباء، فقال: مَن القوم؟ فقيل: رسول الله ﷺ وأصحابه يريدون الغزو. فقال: هل مِن عرض الدنيا يصيبون؟ قيل له: نعم.. يصيبون الغنائم، ثم تقسم بين المسلمين. فعمد إلى بَكر له فاعتقله، وسار معهم، فجعل يدنو ببكره إلى رسول الله ﷺ، وجعل أصحابه يذودون بكره عنه. فقال رسول الله ﷺ: "دعوا لي النجدي

فوالذي نفسي بيده إنه لمن ملوك الجنة". قال: فلقوا العدو فاستشهد، فأُخبر بذلك النبي ﷺ، فأتاه فقعد عند رأسه مستبشرا (أو قال: مسرورا يضحك) ثم أعرض عنه. فقلنا: يا رسول الله! رأيناك مستبشرا تضحك ثم أعرضتَ عنه.. فقال: "أما ما رأيتم من استبشاري (أو قال: سروري) فلِمَا رأيتُ من كرامة روحه على الله عز وجل، وأما إعراضي عنه فإن زوجته من الحور العين الآن عند رأسه". [رواه البيهقي بإسناد حسن، وحسنه الألباني]

وروى الترمذي عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **"إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلُقُ من ثمر الجنة أو شجر الجنة"**. [صححه الألباني]

ومعنى "تعلُق": ترعى. أي: أنها ترعى من أعالي أشجار الجنة.

لقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الله يجعل أرواح الشهداء في أجواف طيرٍ خضر. ولعل الحكمة في جعل أرواح الشهداء في أجساد الطيور الخضر، أنهم جاهدوا في سبيل الله، وجادوا بأجسادهم الكثيفة لله تعالى، وبذلوها في حب الله، وعرضوها للآلام والمشقات الشديدة وسمحوا بها للفناء، امتثالاً لأمر الله، وطلبا لمرضاته!

فلما فعلوا ذلك عوضهم الله عنها أجسادا لطيفة في دار النعيم الباقي، يأكلون ويشربون، ويسرحون في الجنة حيث يشاءون..

ولعل الحكمة في اختيار الطيور ذوات اللون الأخضر والقناديل المعلقة في ظل العرش هي أنَّ ألطف الألوان هو اللونُ الأخضر، وألطف الجمادات الشفافة هو الزجاج. ولذلك جعل الله أرواح الشهداء في ألطف الأجساد، وهو الطير، واختار ألطف الألوان وهو الأخضر، ويأوي ذلك الطير الأخضر إلى ألطف الجمادات وهي القناديل المنورة والمفْرِحة في ظل العرش، لتكمل لها لذةُ النعيم في جوار الرب الكريم!

وليس هذا الفضل خاصا بالشهداء، بل هو عام يشمل المؤمنين الصالحين أيضا.. روى الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، عن الإمام مالك بن

أنس، عن الإمام الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"نسمةُ المؤمنِ طائر يعلق من شجرِ الجنة حتى يرجعه الله إلى جسدِه، يوم يبعثه".** [صححه الألباني]

وهذا حديثٌ عظيم صحيح عزيز الوجود، لأنه اجتمع في سنده ثلاثة من الأئمة الأربعة.

والفرق بين روح الشهيد وروح المؤمن غير الشهيد؛ أن روح الشهيد في جوف طير أخضر، فكأنها تركب ذلك الطير. أما روح المؤمن فإنها على شكل طير في الجنة، فكأنها تطير بنفسها! [مشارع الأشواق- تفسير المراغي- تيسير الكريم الرحمن]

ـي ر ِح اللهِ يا روحَ الشهيــ ِن اِذدْ. .لّذ اَيَ فضلاً غيرَ
فـّا تأشّح. . ّاعشّ تـآ بينَأث غاتين
تألقي يا طيــسَ اَخٍذِ ّاحتفلي

۞ ۞ ۞

أجغبد ٱشذاء لا تتغير:

روى مالك وابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، أنه بلغه أنَّ عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو الأنصاريين استشهدا يوم أحد، فوضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرٍ واحد.

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما جاء السيل فأخذ جزءا من قبرهما، فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما، فوُجدا لم يتغيرا، كأنما ماتا بالأمس.. وكان أحدهما قد جُرح فوضع يده على جرحه، فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه، ثم أرسلت، فرجعت كما كانت!

وكان بين يوم أُحد وبين يوم حُفِر عنهما ست وأربعون سنة!

وروى عبد الرزاق في مصنفه عن قيس بن أبي حازم قال: روى بعض أهل "طلحة بن عبيد الله" رضي الله عنه أنه رآه في المنام، فقال له طلحة: إنكم دفنتموني في مكان قد آذاني فيه الماء؛ فحولوني عنه! فأخرجوه كأنه سُلْفَة[1] لم يتغير منه شيء إلا شعرات من لحيته.

وروى نقلة الأخبار: إنَّ معاوية رضي الله عنه لما أجرى العين التي استنبطها بالمدينة في وسط المقبرة، وأمر الناس بتحويل موتاهم، وذلك في أيام خلافته، وبعد الجماعة بأعوام. وذلك بعد "أُحد" بنحو من خمسين سنة. فوُجِدوا على حالهم حتى أنَّ الكل رأوا المسحاة وقد أصابت قدم "حمزة بن عبد المطلب" رضي الله عنه فسال منه الدم. وأنَّ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أخرج أباه عبد الله بن حرام كأنما دُفِن بالأمس. وهذا أشهر في الشهداء مِن أنْ يحتاج فيه إلى إكثار.

وقد روى كافة أهل المدينة أنَّ جدار قبر النبي صلى الله عليه وسلم لما انهدم أيام خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة بدت لهم قدم؛ فخافوا أنْ تكون قدم النبي صلى الله عليه وسلم، فجزع الناس حتى روى لهم سعيد بن المسيب: "إنَّ أجساد الأنبياء لا تقيم في الأرض أكثر مِن أربعين يومًا ثم تُرفَع".

وجاء سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فعرف أنها قدم جده عمر رضي الله عنه، وكان قتل شهيدًا.

وذكر ابن كثير في "البداية والنهاية" أنه في سنة أربع وثلاثمائة ورد كتاب من خراسان بأنهم وجدوا قبور شهداء قد قتلوا في سنة سبعين من الهجرة، مكتوبة أسماؤهم في رقاع مربوطة في آذانهم وأجسادهم طرية كما هي، رضي الله تعالى عنهم.

---

[1] أي جلد رقيق.

ويروي د. عبد الله عزام في كتاب "قصص وأحداث" عن أحد الشهداء في أفغانستان؛ وهو [عبد الله المصري، استشهد في الأول من شوال يوم عيد الفطر، وفقدنا جثته، وظننا أنه قد أُخِذ أسيرًا، ثم وجدنا جثته في الثاني من ذي القعدة، بعد شهر ويوم؛ يتثنى كالنائم، ولا زال دمه لزجًا.] ا.هـ

وهذا أحد الشهداء العرب في البوسنة والهرسك تسلم إخوانه المجاهدون جثته بعد شهرين ونصف؛ فوجدوها كما هي لم يتغير منه شيء..!

أثدجبخ سائق شاحنة في المنطقة الشرقية، وكانت جاهليته كبيرة وسمعته بهذا الأمر مشهورة! وفي يوم من أيام عام ١٩٩٣م ؛ بينما كان ذاهبا للبحرين ليوصل حمولة؛ وكان في وضع شبه فاقد العقل من المؤثرات التي كان يتعاطاها؛ انحرفت به الشاحنة وانزلقت من على جسر البحرين، ولكن الله سلم بأن تعلقت بالسياج و لم تسقط على البحر، وأغمي عليه في هذه الأثناء..

ومن أقدار الله اللطيفة أنه في تلك اللحظة كان اثنان من الإخوة يريدان الذهاب للبوسنة عن طريق البحرين؛ وبينما هما على الجسر شاهدا شاحنة ليست بغريبة عليهما فنزلا ووجداه صاحبهما؛ حيث كان جارا لأحدهما..! فأخرجاه من الشاحنة، وذهبا به للشرقية.. ولما أفاق أمراه بالاغتسال والوضوء، وبعد أن صلى شرعا في نصيحته، ووقعت كلماتهما في قلبه، ثم ذهبا وسافرا؛ فأخذ أبو دجانة يحاسب نفسه، واعتزل أصحابه الفاسدين، وكلما رأوه في موقف للشاحنات ذهبوا إليه ووجدوه منفردا بالمصحف، فلم يصدق رفاقه ذلك المنظر، وظنوه يتخفى بذلك من جهة حكومية!!

ومرت عدة أشهر ورجع الأخوان اللذان أنقذاه، فذهب إلى أحدهما، وطرق عليه الباب، وسلم عليه بحرارة، وذكره بنفسه؛ فرحب به في مترله، وبدأت الأسئلة عن الجهاد والبوسنة وفضل الشهداء والمجاهدين والرباط.. وبعد حوار طويل قال:

إذن أقرب طريق للجنة هو الجهاد في سبيل الله، وأنا قد بلغت السادسة والثلاثين؛ وكلي ذنوب.. سألتك بالله أن أرافقك للجهاد..

فقال صديقه: الآن يوجد حصار على البوسنة، وليس من السهل الدخول، والإخوة ينتظرون أن يُفتح الطريق؛ إما في "كرواتيا" أو "سلوفينيا"، وكلتا هاتين الدولتين ملأى بالمعاصي والخمور والنساء والفتن مالا يطيق الصبر عليه بشر..!! فقال: سأذهب ولو انتظرت سنة كاملة..!

وفعلا ذهب أبو دجانة لكرواتيا، وفي مدينة ساحلية من أكثر المناطق في أوروبا فتنة وجمالا؛ وأبو دجانة حديث الالتزام بعد، ومع إصراره وصل لتلك المدينة الساحلية الحدودية مع البوسنة والهرسك، ومكث في بيت صغير هو وأخ تركي قرابة الستة أشهر يترقب الطريق..!

وكان يمضي كل وقته في العبادة وتعلم أمور الدين من الدعاة هناك، حتى أتته البشرى بفتح الطريق؛ فذهب ودخل الى البوسنة التي طالما حلم بدخولها المجاهدون، وتوجه إلى كتيبة المجاهدين في "زينيتسا"، وتدرب هناك وأعد واستعد، وكانت هناك معركة قرب قرية "شيريشا" فدخلها، وكانت أول معركة له في جهاده، وفتح الله على المجاهدين في هذه العملية، وتخندق المجاهدون في تلكم الجبهة، ونال شرف الرباط في سبيل الله.. وبعدها بشهرين كانت عملية أقوى وأكبر؛ وهي عملية "فيسيكو قلافا" أيضا في نفس المنطقة، وشارك بها وكانت سعادته لا توصف وكذلك شجاعته؛ فقد كان يمتاز رحمه الله بقلب لا يعرف الخوف، وبه نخوة قلما تجدها، وإيثار ومحبة عجيبين يعرفها كل مَن رافقه رحمه الله..

وبعد تلك العمليات في عام ١٩٩٤م ذهب مع جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية، وعمل معهم في مدينة "ترافنيك"، ومكث فترة هناك وتزوج ببوسنوية من أصل داغستاني، وكان رحمه الله شديدا في إنكار المنكر في تلك المدينة؛ حتى هابه جميع الفساق

بها، بل وصل صيته إلى الكروات في منطقة "فيتز" المجاورة؛ فلم يكن أحد منهم يجرؤ بالمرور في مكان به أبو دجانة!!

وكان يواصل الليل بالنهار لخدمة البوسنويين، وخصوصا الكبار والأطفال حتى أحبته المدينه بتواضعه الجم وروحه المرحه وإجادته للغة البوسنية، وأصبح حديث الألسن هناك بالخير؛ ومع ذلك يذهب للمجاهدين في "ترافنيك"، ويقضي حوائجهم، ويرابط معهم

وأخبروه بوجود عمليات قريبة؛ فاستعد، وكان في كل معركة يرجع في منتصف الطريق حيث لا يستطيع المواصلة؛ لأنه مصاب بمرض الربو، وزادت حدة المرض عليه في الفترة الأخيرة، حتى أتت عملية "فلاشيج" الثانية في ليلة عرفة من عام ١٤١٥هـ وواصل مع الإخوة المشي نحو العدو، وكان على غير عادته هادئا وكثير التلفت؛ وكأنه ينظر لشيء! وكان وقت العمليه الساعة الثانية عشر ليلا، وبدأت المعركة، وتقدم الليث أبودجانة ومعه سلاح الزوليا (قذيفة محمولة)، وتقدم نحو الصرب ومعه الأخ مصطفى البوسنوي؛ حتى أصبح مقابلا للخندق بأقل من عشرة أمتار وهو يستعد لضرب الصرب؛ فأتته طلقات في نحره فسقط شهيدا، وخرج من فمه مثل النور.. وتأكد الأخ مصطفى من مقتله وذهب وتركه حيث شدة القصف.. وسحب الصرب جثته عندهم..!

مكثت جثته عند الصرب أكثر من شهرين، ثم اتصل الصليب الأحمر بالجيش البوسني يخبره بطلب الصرب تبادلا للجثث، ومن ضمن الجثث جثة عربي، فأخبر الجيش المجاهدين وذهب الأمير ومعه عدد من المجاهدين، يقول الأمير: ذهبنا للمشرحة؛ فوجدنا الجثث حديثة القتل (يوم أو أقل) وروائحها كريهة ومنبعثة بشدة، فدخلتُ غاصبا نفسي بين الجثث حتى وجدت نعشا مكتوب عليه: (عرب)، فحملته أنا والإخوة، وأخرجناه فإذا الجثه مغطاة بكيس نايلون به سحَّاب، وأخبرنا الجيش أن هذه الجثث ومن ضمنها جثة العربي لم تكن في ثلاجة للأموات، بل مرمية في العراء.. فقربنا أخانا من القبر، وفتحت

بنفسي السحاب من جهة الرأس، وكانت الخواطر تدور برأسي ورأس الإخوة: كيف تكون حالته بعد شهرين ونصف؟ هل أكله الدود؟ أم تغيرت ملامحه؟ أم..؟

بدأت بفتح السحاب ويدي وجسمي يرتجفان من المفاجأة؛ فإذا وجهه كأنه القمر، ولحيته المهيبة التي يكسوها البياض وجسمه هو هو؛ لم يتغير، ورائحة كرائحة الحناء.. والله يشهد على ذلك، ثم الإخوة الحاضرون..

شهران ونصف لم يتغير منه شيء حتى رائحته.(١)

وهذا **الشهيد ˆ اُخِد ˆد اُيّ إدي** من أرض الإيمان والحكمة، كان رحمه الله مدرسا في بلاده اليمن، ولما سمعت زوجته أخبار المسلمين في البوسنة باعت ذهبها وحليها وجهزت بأموالها زوجها، وقالت له: اذهب وانصر إخوانك هناك.. فهب لنصرتهم، ووصل في عام ١٩٩٣م، وكان الطريق مغلقا من قبل الحصار الكرواتي على المسلمين، ولكنه لم ييأس بل حاول وحاول حتى استطاع الوصول إلى مدينة "موستار".. وبقي عليه ليصل إلى المسلمين مناطق كثيرة جلها تحت السيطرة الكرواتية؛ وكان الكروات في ذلك الوقت في حرب معلنة مع المسلمين لا هوادة فيها.. ولكنه أصر على الوصول إلى مدينة "زينيتسا" التي بها المجاهدون العرب.. وفعلا ذهب ورفيق دربه أبو الحسن اليمني رحمه الله وشرعا يمشيان على أرجلهما لمدة أسبوع كامل على الجبال الشاهقة الباردة.. وأخيرا وصلا إلى مدينة "زينيتسا"؛ فكانت فرحته لا توصف، والتحق بركب كتيبة المجاهدين العرب، وشارك إخوانه المعارك.. وكان رحمه الله ذا قلب رقيق وابتسامة دائمة..

خرج المجاهدون ذات يوم في منطقة "شريشا" إلى الخط الأول للحراسة، وكان أحد المجاهدين يصور الشباب وهم منطلقون إلى الجبهة، وأتى عند أبي

(١) (بتصرف) من قصص الشهداء العرب في البوسنة

الخلود اليمني وقال له: أبا الخلود.. ما رأيك بالشهادة؟! فرد عليه أبو الخلـــود بروحه المرحة: الشهادة فيها موت؛ وأشار ناحية نحره..

وعندما وصل المجاهدون إلى الجبهة، تعرض الصرب لهم؛ فردهم المجاهدون وأتت قذيفة هاون وسقطت بجانب أبي الخلود، وأتته شظية بالمكان الذي أشار إليه وقت التصوير؛ سقط بعدها شهيدا إن شاء الله!

دفنه المجاهدون باتجاه على غير اتجاه القبلة خطأ منهم غير متعمد، وبعـــد ثلاثة أشهر من دفنه؛ يقول من حضر دفنه: ذهبنا لإخراجه من القبر، وحفرنا له قبرًا جديدًا باتجاه القبلة؛ ونحن نحفر قبره تراودنا التخيلات.. كيـــف ســـيكون شكله بعد الدفن، ورائحته، وملامح وجهه بعد أن أكلها الدود..؟! حتى وصلنا إلى جسده؛ وكلنا أعين مفتحة، والقلوب ترتجف من الخوف للمنظر القـــادم.. فبان شيء من جسده.. ثم بان جسده كله.. الله أكبر! والله.. ثم والله؛ لم يتغير من جسده شيء.. ولم تظهر رائحة كريهة منه.. بل والله كأنه نائم!

فرحم الله أبا الخلود، وألحقنا به عاجلا.. [(بتصرف) من قصص الشهداء العرب]

۞ ۞ ۞

دغ ة ٱشٱدج أ ذىٌتْادا:

كان رسول الله ﷺ يحب الشهادة ويتمناها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: **"والذي نفسي بيدِهِ لولا أنَّ رِجَالا مِنَ المؤمنين لا تطيبُ أنفسُهم أنْ يَتَخَلَّفوا عني ولا أجدُ ما أحمِلُهم عليه ما تَخَلَّفْتُ عن سَرِيَّةٍ[1] تَغزو في سبيلِ الله، والذي نفسي بيدِهِ لَوَددتُ أني أُقتَلُ في سبيلِ اللهِ ثُم أُحيَا ثُم أُقتَلُ ثُم أُحيَا ثُم أُقتَلُ ثُم أُحيَا ثُم أُقتَلُ"**. [رواه البخاري]

---

[1] السرية: قطعة من الجيش أقصاها أربعمائة، وجمعه سرايا. سموا بذلك لأنهم خيار العسكر وصفوقم من الشيء. والسري: هو النفيس.

ومَن حرص على الشهادة نالها وإنْ لم تصبه، فقد روى مسلم وأحمد في مسنده بسند صحيح عن النبي ﷺ قال: "**مَن سألَ اللهَ الشهادةَ بصدقٍ بلَّغَهُ منازلَ الشـــهداءِ وإنْ ماتَ على فراشِهِ**". وأخرجـــه الحاكـــم بلفظ: "**مَن سألَ القتلَ في سبيلِ اللهِ صادقًا، ثم ماتَ أعطاهُ اللهُ أجرَ شهيدٍ**".

وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**من طلب الشهادة صادقا أُعطيها ولو لم تُصبه**".

وروى النسائي والحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم! كيف وجدت مترلك؟ فيقول: أي ربِّ! خير مترل. فيقول: سل وتمنَّ.. فيقول: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأُقتَل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة". [صححه الألباني]

فإذا كان أهل الجنة يتمنون الشهادة، ويسألوها، وقد حصلوا على ما حصلوا عليه من الفوز العظيم، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من النعيم المقيم، فكيف لا يسأل الشهادة ولا يتمناها من هو الآن في دار المحن والشرور؟

۞ ۞ ۞

أ ِاجنص ذلوا اللهف صذلُ:

☆ روى الحاكم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن **عبد الله ثّ جذش** رضي الله عنه قال له يوم أُحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فدعا سعد ربه قائلا: يا ربِّ! إذا لقينا القوم غدا، فلَقني رجلاً، شديدا بأسه، شديدا حَرَده، فأقاتلُه فيك ويقاتُلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتلَه!

ودعا عبد الله بن جحش رضي الله عنه ربه قائلا: اللهم ارزقني رجلاً، شديدا حرده، شديدا بأسه، أقاتلُه فيك ويقاتلُني، ثم يأخذُني، فيجدَعُ أنفي وأذنيَّ، فإذا لقيتُك غدا،

قلتَ لي: يا عبد الله! فيم جُدِع أنفك وأُذُناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت..

وقد استشهد عبد الله بن جحش رضي الله عنه في المعركة. وقال سعد لابنه إسحاق: يا بُني! كانت دعوة عبد الله خيرا من دعوتي، لقيته آخر النهار، وهو قد جُدِع أنفُه وأذُناه!

☆ وروى ابن إسحاق أنه لما حان خروج جيش مؤتة، ودَّع الناس الجيش. ولما ودَّع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مَن ودَّع بكى. فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ قال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابةٌ لها، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾ [مريم:٧١-٧٢] فلا أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ قال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين.. فرد عليهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قائلا:

ٌى نـي أعِيُ ألشدّ ـ َغفـشيحَضش تــــحَر اخفـش عِذمز فلض تَــــدَا
أ طعنــحَيــ ذَدشَّ أ ُ ـِحَن جَشنِت ح نم طعُ الأدشـــاءَ أىث ـــدَا
در ْ يُماِيَ إرا َرُّ ا علـ ْ جَدَثي: يلس شذَ الله ِـِغاص ِ لفش ذا

وحارب المسلمون الروم في مؤتة، وكان عبد الله بن رواحة القائد الثالث، حيث سبقه القائدان زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، ولقي الثلاثة الشهادة رضوان الله عليهم.

☆ وروى الذهبي عن سليم بن عامر قال: دخلت على **أجشاح ثَ عبد الله ا ُذكمي**، فرفع يديه، فرفع الأمراء أيديهم، فقال لي الجراح: يا أبا يحيى! هل تدري ما كنا فيه؟ قلت: لا.. وجدتكم في رغبة، فرفعت يدي معكم! قال: سألنا الله أن يرزقنا الشهادة. قال سليم بن عامر: فوالله ما بقي منهم أحد في تلك الغزوة حتى استشهد.

☆ وروى ابن المبارك عن حميد بن هلال قال: كان **الأسد ڈ ثّ وِضّ** قد خرج للجهاد، فدعا الله قائلا: اللهم إن هذه نفسي، تزعم في الرضا، أنها تحبك، فإن كانت صادقة، فارزقها لقاءك، وإن كانت كاذبة فاحملها عليه وإن كرهت، واجعله قتلاً في سبيلك، وأطعم لحمي سباعا وطيرا.. فانطلق الأسود للجهاد، وقاتل الأعداء حتى قُتل.

☆ روى ابن إسحاق في السيرة عن محمود بن لبيد لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أُحد كان **دسيلُ ثّجثبش** - وهو اليمان والد حذيفة بن اليمان **ّصبثذ ثّ لش** في الآطام مع النساء والصبيان. فقال أحدهما لصاحبه - وكانا شيخين كبيرين- : ماذا ننتظر، فوالله ما بقي للواحد منا من عمره إلا ظمءُ حمار[1]، وإنما نحن هامة اليوم أو غدا، فلنأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعل الله أن يرزقنا الشهادة..

فأخذا أسيافهما حتى دخلا في الناس، ولم يعلم بهما المسلمون. أما ثابت بن وقش فقد قتله المشركون رضي الله عنه. وأما حسيل بن جابر فقد اختلفت عليه أسياف المسلمين، وهم لا يعرفونه، فظنوه واحدا من المشركين، فقتلوه.. ورأى حذيفة والده يُقتَل، فنادى: أبي والله! فقالوا: واللهِ ما عرفناه، وظنناه أحد المشركين! فقال حذيفة: يغفر اللهُ لكم وهو أرحم الراحمين!

وأراد الرسول ﷺ بعد ذلك أن يدفع ديته، لأنه قُتل خطأ، فتصدق حذيفة رضي الله عنه بديته على المسلمين، فزاده ذلك خيرا عند رسول الله ﷺ.

☆ وروى أبو نعيم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن **عمر ثّأخطب ة** رضي الله عنه قال **لأخيه زيد** رضي الله عنه يوم أحد: خذ درعي يا أخي! فقال له زيد: إني أريد من

---

[1] قولهم: ما بَقِيَ منه إلاَّ قَدْرُ ظِمْءِ الحِمار: أي لم يبق من عُمُره إلا اليسير. يقال: إنه ليس شيءٌ من الدوابِّ أَقصر ظِمْأً من الحِمار، وهو أَقل الدواب صبرا عن العَطَش، يَرِدُ الماءَ كل يوم في الصيف مرتين. [لسان العرب]

الشهادة مثل الذي تريد! فتركا الدرع رغبةً في نيل الشهادة.. وقد استشهد زيد بن الخطاب في معركة اليمامة، بينما استشهد عمر في المحراب، رضي الله عنهما.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم إني أسألك شهادةً في سبيلك، ووفاةً ببلدِ رسولك صلى الله عليه وسلم. فاستجاب الله له، ورزقه الشهادة في المدينة.

☆ وروى ابن الأثير في أسد الغابة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت أخي **عمير ثّ أبي لبص** قبل أن يعرضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج إلى بدر يتوارى! فقلت له: مالك يا أخي تتوارى؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيستصغرني فيردني، وأنا أحب لقاء الله!

فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستصغره، وقال له: ارجع! فبكى عمير، فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت أعقد له حمائل سيفه[1] من صغره.. فقتل يوم بدر، وهو ابن ست عشرة، قتله عمرو بن عبد ود.

☆ وروى ابن المبارك في الجهاد أن رجلاً من قوم **صلخ ثّ أشيم ٱلعدوي** قال له: يا أبا الصهباء! إني رأيتُ أني أُعطيتُ شهدةً من عسل، وأُعطيتَ أنتَ شهدتين اثنتين من العسل. فقال له صِلَةُ بن أشيم: رأيتَ خيرا، سوف تنال أنت الشهادة في سبيل الله، وسوف أنالها أنا وابني أيضا!

وخرج صلة بن أشيم للجهاد، وكان عمره مائة وثلاثين سنة، وخرج معه ابنه للجهاد، وحارب المسلمون الترك بسجستان في أفغانستان.. ولما اشتدت المعركة قال صلة لابنه: يابُني! ارجع إلى أمك! فقال له ابنه: يا أبتِ! أتريد الخير لنفسك وتأمرني بالرجوع، وأنت والله كنت خيرا لأمي مني. فقال له أبوه: أما إذ قلتَ هذا، فتقدم

[1] العلاقة التي يعلق بها السيف.

للقتال.. فتقدم الابن، فقاتل حتى قتل.. ثم تقدم صلة بن أشيم، فقاتل حتى قتل.. وجاء خبر استشهاد صلة وابنه إلى امرأته مُعاذَة، فقالت للنساء: إن كنتن جئتن لتهنئتنا بما أَكرمنا اللهُ به من استشهادهما فذاك، وإلا فارجعن!

☆ **زّا ٱِه العادل ُس اُلذين ِدّد**، حامل رايتي العدل والجهاد، قَلّ أن ترى العيون مثله. قال الموفق عبد اللطيف: كان نور الدين لم يَنشف له لِبْدٌ مِن الجهاد..

كَسر الفرنج مرات، ودَوَّخهم وأذلهم.. وكان بطلاً شجاعًا، وافر الهيبة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع، وكان يتعرض للشهادة.

يقال: إنه لم يُر على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه.. وقد أسر بنفسه في بعض الغزوات بعض ملوك الإفرنج، فاستشار الأمراء فيه؛ هل يقتله، أو يأخذ ما يبذل له من المال؟ وكان قد بذل له في فداء نفسه مالا كثيرا.. فاختلفوا عليه، ثم حسن في رأيه إطلاقه وأخذ الفداء منه، فبعث إلى بلده من خلاصته مَن يأتيه بما افتدى به نفسه؛ فجاء به سريعا؛ فأطلقه نور الدين.. فحين وصل إلى بلاده مات ذلك الملك ببلده، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه، وبنى من ذلك المال المستشفى الذي بدمشق، وليس له في البلاد نظير، ومِن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه؛ فلا يُمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه فلا يُمنع من شرابه؛ ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه.

قال سبط الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أنّ الفرنج لما نزلت على "دمياط"، مازال "نور الدين" عشرين يومًا يصوم، ولا يفطر إلا على الماء؛ فضعف، وكاد يتلف.. وكان مهيبًا، ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك! فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيى! بَشِّر "نور الدين" برحيل الفرنج عن "دمياط"! فقلتُ: يا رسول الله! ربما لا يصدقني! فقال: قل له: بعلامة يوم "حارم"! وانتبه يحيى.. فلما صلَّى "نور الدين"

الصبح، وشرع يدعو هابه يحيى؛ فقال له: يا يحيى! تُحدثني أو أحدثك؟! فارتعد يحيى، وخرس!! فقال: أنا أحدثك.. رأيتَ النبي ﷺ هذه الليلة، وقال لك: كذا وكذا؟! قال: نعم.. فبالله يا مولانا؛ ما معنى قوله: بعلامة يوم "حارم"؟! فقال: لما التقينا العدو خفتُ على الإسلام؛ فانفردتُ، ونزلتُ، ومرَّغتُ وجهي على التراب، وقلتُ: يا سيدي! الدِّينُ دِينُك، والجندُ جندُك، وهذا اليوم افعل ما يليق بكرمك.. قال: فنصرنا الله عليهم.(١)

وكان صبـــورا في الحـــرب، يُضرب المثل به في ذلك، وكان يقـــول: قد تعرضتُ للشهادة غير مرة، فلم يتفق لي ذلك، ولو كان فيَّ خير، ولي عند الله قيمة لرزقنيها؛ والأعمال بالنية.

وقال له يوما قطب الدين النيسابوري: بالله يا مولانا السلطان لا تخاطر بنفسك؛ فإنك لو قُتلت قُتل جميع مَن معك، وأُخذت البلاد، وفسد حال المسلمين.. فقال له: اسكت يا قطب الدين! فإن قولك إساءة أدب على الله.. ومَن هو محمود؟ مَن كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو؟! ومَن هو محمود؟ قال: فبكى مَن كان حاضرا..

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة، وهي آخر مدته؛ أضمر على الدخول إلى الديار المصرية، وصمم عليه، وأرسل إلى عساكر بلاد الموصل وغيرها ليكونوا ببلاد الشام حفظا لها من الفرنج في غيبته، ويركب هو في جمهور الجيش إلى مصر..

فلما كان يوم عيد الفطر من هذه السنة ركب إلى الميدان الأخضر القِبلي، وصلى فيه صلاة عيد الفطر، وكان ذلك نهار الأحد، والقَدَر يقول له: هذا آخر أعيادك! وختن ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم، وزُينت له البلد، وضُربت البشائر للعيد والختان، ثم

---

(1) فتح نور الدين قلعة "تل حارم"، واقتلعها من أيدي الفرنج، وكانت من أحصن القلاع، وأمنع البقاع؛ وذلك بعد قتال عظيم، ووقعة هائلة كانت من أكبر الفتوحات. بعدما لبث سبعين سنة تجرع المسلمين الصاب والعلقم!

ركب في يوم الإثنين وأكب على العادة، ثم لعب بالكرة في ذلك اليوم، فحصل له غيظ من بعض الأمراء، فبادر إلى القلعة وهو كذلك في غاية الغضب، وانزعج ودخل في حيز سوء المزاج، واشتغل بنفسه وأوجاعه، وتنكرت عليه جميع حواسه وطباعه، واحتبس أسبوعا عن الناس، والناس في شغل عنه بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده.. فانعكست تلك الأفراح بالأتراح، ونَسخ الجد ذلك المزاح، وحصلت للملك خوانيق في حلقه منعته من النطق، وهذا شأن أوجاع الحلق، وكان قد أشير عليه بالفصد فلم يقبل، وبالمبادرة إلى المعالجة فلم يفعل، وكان أمر الله قدرا مقدورا..

فلما كان يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة قُبض إلى رحمة الله تعالى عن ثمان وخمسين سنة، مكث منها في الملك ثمان وعشرين سنة. [البداية والنهاية – سير أعلام النبلاء]

☆ وهذا السلطان الكبير، الملك العادل، عضد الدولة، أبو شجاع، **ألب أرسلان**، من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم.

كان متلهفا للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام داخل الدول المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة للفتوحات التي قام بها ألب أرسلان، وأكسبتها صبغة دينية؛ فأصبح زعيما للجهاد، حريصا على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية.

وكان الطاغية ملك الروم قد استشاط غضبا من الحركة الجهادية لألب أرسلان، فحشد جنده، وأقبل في جحافل أمثال الجبال، وعدد عظيم وعُدَد.. وقد عزم قبحه الله أن يبيد الإسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيرا، فقال له: ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا! ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدي المسلمين، والقدَر يقول: (**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**) [الحجر:٧٢] فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب

من عشرين ألفا بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت والتقى الجمعان، وتراءى الكفر والإيمان، واصطدم الجبلان..

نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، وقال لجنوده: مَن أراد الانصراف فلينصرف؛ فما ها هنا سلطان! وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف، وعقد ذنَب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط، وقال: إن قُتلتُ فهذا كفني.. وحمل بجيشه حملة صادقة، فنصر الله المسلمين على عدوهم، ومنحهم أكتافهم؛ فاستحر بهم القتل، وأُسر ملكهم أرمانوس

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة عبر السلطان بجيوشه نهر جيحون، وكانوا مئتي ألف فارس، فأُتي بعامل يقال له: يوسف الخوارزمي. كانت بيده قلعة، وكان قد ارتكب جريمة في أمر الحصن، فشتمه السلطان، وواقفه على أفعاله القبيحة، وأمر أن يُشبَح في أربعة أوتاد، فصاح: يا مخنث! مثلي يقتل هكذا؟! فاحتد السلطان، وأخذ القوس، وقال: دعوه. ورماه، فأخطأه، فطفر يوسف إلى السرير، فقام السلطان، فعثر على وجهه، فبرك على السلطان، وضربه بسكين، فمات منها السلطان، وله آنذاك أربعون سنة.[1] [(بتصرف) البداية والنهاية – الدولة العثمانية – سير أعلام النبلاء]

فـــ ذَ صـــــ أأ ذَـــ ... فيـــ ِ ِ ِ أمـ أَتطـــايٌ
أِـــشَ أِرـــإـــا ... صـــاديـــذُ
وألسجالا إرا الأحداثُلذ د ذ ... اشرـدَّ يـــ ِ ِ الأيـــــا
شَـ ـــ ذُ

---

[1] طفر: وثب في ارتفاع.

✰ وهذا أسد فلسطين **ضأس عبلمبدسسيبْ العسقلاني،** يصفه ابنه بلال قائلا: عالم عامل، عابد زاهد ومجاهد، استشهد مرابطًا على ثرى فلسطين الحبيبة.. لقد قالها رحمه الله في آخر لقاء بيننا: **نتمنى أن تسيل دماؤنا جميعا مقابل أن تحيا الأمة، وتعيش بكرامة.**

عاش عزيزًا كريمًا، ونال شهادة أغاظ الله بها قلوب الحاقدين المجرمين، فقد أكرمه الله بالشهادة لتكون وسام عز وشرف تخرس بها كل الألسنة المتطاولة على الجهاد والمجاهدين.

والدي الحبيب نزار عبد القادر ريان: وُلد في معسكر جباليا للاجئين في السادس من آذار عام ١٩٥٩ حيث ترعرع بين أهل هذا المخيم، وشاركهم معاناة الهجرة وآلامها، وعانى من تسلط العدو ومرتزقته الخونة، وتجبر الاحتلال على أهله وجيرانه وأحبابه..

فمثل أي إنسان حر وكريم يأبى الظلم على نفسه وأهله وشعبه حمل هم القضية الفلسطينية، وصمم على حقه في العودة إلى دياره التي هجر منها ظلمًا وعدوانًا، **وظل ينافح عن هذا الحق حتى قدم في سبيل ذلك حياته وستة عشر فردًا من أسرته..**

نزار ريان الأب الحاني، والابن البار، والأخ الصادق، والحبيب العاشق، وكل معاني الإنسانية الرائعة.. تميز بسعة الصدر ورحابته، وقد كان صدره متسعًا للجميع لكل الشرفاء وأهل الكرامة..

لقد كان رحمه الله علَمًا ونبراسًا لطلبة العلم، فلقد أسس المكتبة العامرة، وهو في بداية المرحلة الإعدادية لتكون عامرة بالعلم وأهله، أسسها قبل أن يؤسس منزلا ليسكنه، وكانت أكبر مكتبة خاصة في قطاع غزة

ولقد كان محبًّا للعلم وأهله؛ فهو التلميذ الوفي لأساتذته، والأستاذ العزيز بعلمه، المتواضع بأخلاقه مع تلامذته وطلابه، وبالرغم من انشغاله بقيادة العمل السياسي في صفوف حركة المقاومة الإسلامية حماس؛ إلا أن ذلك لم يشغله عن طلب العلم، فلقد حصل على درجة الأستاذية في علم الحديث الشريف..

ولم يثنه ذلك عن مواصلة درب الجهاد والمقاومة، فكان قائدا سياسيا وفي نفس الوقت جنديا في كتائب القسام، ولم يمنعه جهاده ورباطه من مواصلة التأليف والتصنيف، فقد صنف كتبًا عدة في الرقائق والأخلاق والسياسة الشرعية وعلوم الحديث

وأكثرها تأثيرًا في النفس كتاب: "وأظلمت المدينة" في وفاة النبي ﷺ، وكتب رسالته التحضيرية لنيل درجة الماجستير بعنوان: "أحاديث الشهادة والشهيد"، وقد قام بجمع الأحاديث المتعلقة بفضل الشهادة وأحكامها من جميع كتب السنة.

وكان يحدث إخوانه قائلا: "لا يليق أن أكتب في هذا الموضوع ثم لا ألقى ربي شهيدًا"

أما رسالة الدكتوراه فكانت بعنوان: "مستقبل الإسلام"، وأي مستقبل كتبته لنا أبتاه!

وأعظم رسالة سطرها بدمه، ودم زوجاته الأربع، وأبنائه الاثني عشر هي رسالة الصمود والتحدي للعدو المجرم الجبان.

لقد كان بيت والدي الحبيب نزار ريان عامرًا بالمكتبة العامرة وبأهله الكرام الطيبين، باب البيت كان دائما مفتوحًا لا يرد أحدًا، كان ملاذا للخائفين، وعونًا للمحتاجين، وفرجة للمكروبين، ومدرسة لكل طالب علم جادّ..

يشهد الله أن والدي رحمه الله كان ينفق على المحتاجين أكثر مما ينفق على نفسه وأهله، ولا يبخل عليهم بل يجود عليهم بكل ما يستطيع، ويتمنى أن يفعل لهم المزيد، كان لا يخرج من باب البيت حتى يملأ جيبه بالمال لينفقه على المحتاجين الذين يصادفهم في الطريق، كان يبذل كل ما يستطيع ليحل مشاكل الناس؛ لم يكن بعيدًا عنهم، بل كان فردًا منهم يشاركهم أفراحهم وآمالهم، ويحمل همومهم وآلامهم، حتى إنه كان لا ينام الليل يفكر في راحتهم وفي سبيل تفريج كربتهم.

أذكر أنه قبل الحرب بقليل ضاق الحال بالناس بشكل لم يسبق له مثيل، وكان الوالد متأثرًا بشكل كبير، ودموعه في عينيه يومها، أقسم بالله أنه يود بيع المترل لإنفاق ثمنه على

المحاصرين، فرجوته قائلا: أين يذهب أولادك وزوجاتك فهم أمانة في عنقك فرجوته كثيرا إلى أن يسر الله له الشهادة، ودُمِّر متزله بالكامل والمنازل المجاورة له.

إنني لم أحزن على نفسي رغم ألم الفراق الذي يهز أعماق الفؤاد، إنما حزنت على

هؤلاء الناس الذين سيفتقدون والدي أكثر مني، سيفتقدون مَن كان لهم عونًا وقلبًا رحيمًا ويدًا معطاءة؛ لكن الله أسأل أن يعوضهم ويرزقهم خيرًا..

نظرت إلى أطفال جيراننا فتذكرت موقفا لوالدي لن أنساه ما حييت: في الجهة الخلفية لبيتنا يوجد ساحة صغيرة، وبها عدة مراجيح قام أبي بتفصيلها لدى حداد في المعسكر، فكان أطفال الجيران على الباب ينظرون لإخوتي، وهم يلعبون ويتضاحكون، فرآهم والدي من نافذة المكتبة العامرة، وناداهم جميعًا، وأنزل إخوتي عن المراجيح، وترك أولاد الجيران يلعبون قرابة الساعة أو يزيد وهو فرح بذلك ويضحك معهم، ويطل عليهم بين الفينة والأخرى من نافذة المكتبة إلى أن اكتفوا. وقال لهم: متى شئتم تعالوا؛ فالباب مفتوح لكم.

في بداية الحرب خرج الوالد للسوق يشجع الباعة ويحثهم على البيع بشكل طبيعي في ظل الحرب، ويثبت الناس ويدعم صمودهم ويذهب لأعراس الشهداء ولزيارة المصابين، ويقسم لهم أن الله ناصرهم وأنه سيهزم العدو الجبان، ولن يتمكن من دخول القطاع، وأذكر يوم أن كان العدو على تخوم مخيم جباليا في معركة أيام الغضب، فأقسم الوالد على الإعلام أنهم لن يدخلوا معسكرنا؛ فبر الله قسمه وأتم وعده، ولم يتمكن العدو من الدخول.

طلب مني أن أصرف له بعض المال، قال لي: يا بني؛ الآن الناس في حرب، وأكثرهم محتاجون، ولا يجدون قوت يومهم، فصرفت له، وأنفق ما أنفق، واستشهد وبعضها تخضب بدمه حين استشهاده، رحمة الله عليه..

ووالدي رحمة الله عليه كان عملة نادرة، وشخصية فريدة، ولو بقيت أكتب عنه عمري كله لن أوفيه حقه، فعز أن تجد والدًا مثله، أو ابنًا مثله، أو أخًا مثله، أو جارًا مثله، أو زميل دراسة أو عمل مثله، أو أن تجد في الدنيا عابدًا عالما عاملاً بعلمه مجاهدًا، سامحه الله لقد رفع السقف عاليا، وأتعب مَن بعده حقًّا..! [1]

ـعلاءِ على الرءوسِ نُضارُ ... تاجُ العلاءِ أماجدٌ وكِبـ
المكارمَ طيِّباتٍ فارتوى ... شَجَرُ الفضائلِ يانعًا وثِمـ
ـةٌ فيها حدائقُ جَمَّةٌ ... فيها بغزةَ - لو رأيتَ - نـ
العلومَ حبائلاً لمناقبٍ ... فيها إذا افتخرَ الرِّجالُ فَـ
ـةُ فاضتْ يَراعَتُهُ بهِ ... عِلمًا كأنَّ حروفَه الأقمـ
ـدماءُ سكيبةٌ بمِدادِهِ ... مِسكٌ وفاحَ أريجُهُ المِعطارُ
الكرامةِ يا شهيدُ قَشيبةٌ ... والعِلمُ نورٌ والفـدا
(٢)

❂ ❂ ❂

فيا عباد الله..

درسان حيويان مُقتبَسان من قادة النبي ﷺ عبرة للمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم

ِجّ ً ُأدرس الأ ّي؛ ّ ْ أ ستين بالمائة ِ َأّىُٖ ُٓطبدح اعزشَ ذّا، َأسبعيَ ثبّّبىئخٍ ُِبتوا علفىِشاا شُ، ُأشهيد يمـ ُد ثؤجٍ، ُأ زقٌ دتف أنفه أيضًا يمـ ُد ثؤجٍ..

إن الشجاعة الفائقة هي إحدى المزايا الواجب توفرها في الكفاية القيادية، وكانت الشجاعة الفائقة هي القاسم المشترك بين مزايا قادة النبي ﷺ كافة.

والدليل القاطع على الشجاعة الفائقة لقادة النبي ﷺ، أن اثنين وعشرين قائدا منهم قضى شهيدا، وخمسة عشر قائدًا منهم مات على فراشه.

---

(١) منقول عن موقع "شبكة فلسطين للحوار"

(٢) من قصيدة "مداد ودماء" للشاعر/ رأفت رجب عبيد – موقع رابطة أدباء الشام.

ولا تُعرف نسبة عالية من الشهداء في القادة كنسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ في تاريخ الحروب القديمة والحديثة، فالخسائر في القادة (اعتياديا) أقل بكثير من الخسائر في غير القادة من الجنود وضباط الصف والضباط، وقد لا تكوِّن واحدا بالمائة في أحسن الأحوال وفي أعلى تقدير.

وارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ يدل على أنهم كانوا يقودون رجالهم من الأمام، يقولون لهم: اتبعونا! ويضربون لرجالهم أروع الأمثال في الشجاعة والبسالة، وأنهم كانوا يستأثرون دون رجالهم بمواطن الخطر، ويؤثرونهم بمواطن الأمن، وهكذا يكون القادة الذين يحوزون على ثقة رجالهم عن جدارة واستحقاق.

وارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ يدل على أن أولئك القادة لا يقودون رجالهم من الخلف، يقولون لرجالهم: تقدموا! ثم يبقون قابعين في مواقع أمينة في الخلف، كما يفعل القادة الذين يؤثرون مصالحهم الذاتية على مصالح رجالهم ومصلحة أمتهم العليا.

ومن حق كل مسلم أن يسأل المبهورين بالعسكرية الغربية الحديثة أو بالعسكرية الشرقية الحديثة، أو بالعسكرية الغرابية التي هي مزيج من العسكرية الشرقية والعسكرية الغربية: ما نسبة الذين قتِلوا من القادة الغربيين أو الشرقيين في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) وما بعدهما من حروب موضعية؟

أعلى نسبة من قتلى القادة لم تبلغ واحد بالمائة في العسكرية الغربية والعسكرية الشرقية والعسكرية الغرابية! فلماذا نستبدل العسكرية الشرقية أو الغربية أو الغرابية بالعسكرية الإسلامية؟ ولمصلحة مَن ينبهر بها العرب والمسلمون؟ ولماذا نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

أِب ِجّ ٱُدس ٱُطض بأي؛ فَ ٱٓامب ىئذ نُرجب ع ِبد شهيد ا، ٱُمبىئذ ٱُزَ أكثر شجاعة ٱِلذِاب ِبت على فراشٌ..

والهدف من إبراز هذه الحقيقة هو إثبات أن الجبن لا يحيي والشجاعة لا تميت، وصدق الله العظيم: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]

وقد علمتنا تجارب الحياة أيام الخدمة العسكرية في ميادين القتال؛ أن المقاتل الجبان الذي يخاف الموت ويرتبك وتنهار معنوياته؛ هو الذي يسعى إلى حتفه سعيا! فكأن للجبن رائحة خاصة تجذب إليها ما يصيب مقتلا في الجبان الرعديد!

لقد كان السلف الصالح مضرب الأمثال في شجاعتهم؛ لأنهم كانوا مضرب الأمثال في إيمانهم العميق.. وليس كالإيمان العميق حافز من حوافز الإقدام والاستقتال في طلب الشهادة..

فلما تخلى الخلف الطالح عن إسلامهم؛ اهتز إيمانهم وضعفوا واستكانوا، وتداعت عليهم الأمم من كل جانب..

لقد مات خمسة عشر قائدا من قادة النبي ﷺ في بيوتهم بآجالهم بعيدا عن ساحة الجهاد، مع أنهم جميعا دون استثناء من المتميزين بالشجاعة النادرة، وكانوا جميعا يتمنون على الله من أعماق قلوبهم أن يُستشهدوا في ساحة الجهاد، ولكن أمانيهم لم تتحقق؛ فماتوا وفي أنفسهم شيء من تخلفهم دون إرادتهم عن تحقيق أعز أمانيهم في الحياة!

وهذه أسماؤهم مرتبة بموجب أقدميتهم التاريخية في القيادة: **سالم بن عمير الأنصاري الأوسي – محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي – سعد بن أبي وقاص – عبد الله بن أنيس الجهني الأنصاري – أبو عبيدة بن الجراح – عبد الرحمن بن عوف – عمرو بن أمية الضمري – أبو بكر الصديق – غالب بن عبد الله الليثي – أبو قتادة بن ربعي الأنصاري الخزرجي – خالد بن الوليد – عمرو بن العاص – سعد بن زيد الأنصاري الأوسي الأشهلي – عيينة بن حصن الفَزاري – قطبة بن حديدة الأنصاري.. رضوان الله عليهم أجمعين.**

تلك هي الحقيقة الناصعة التي برزت لأول مرة في مطلع القرن الأول الهجري؛ رسالة من رسائل الغيب تنكشف وتُكتشف؛ لتذكر الجبناء بأن الأعمار بيد الله، ولا يزيد فيها الجبن لحظة واحدة. ولا تنقص منها الشجاعة لحظة واحدة أيضًا. فقد رُفعت الأقلام، وجفت الصحف، وصدق القائل: "احرص على الموت توهب لك الحياة".

ىزا ثىً ثغبطخ ِبد على فراشه الأشجع، ٱعزشٌ ٱلشجبع فـي ميدان القتلى.

و لم يستشهد الذي مات على فراشه من عجز، بل حرسه أجله؛ ونعم الحارس الأجل، ولا حارس كالأجل!

ومات الذين قضوا نحبم على فراشهم، ومات الشهداء تحت ظلال السيوف، و لم يبق أحد منهم، ولكن استأثر الشهداء بالحياة الباقية التي كرمهم بها سبحانه وتعالى، وجعلها ميزة لهم دون غيرهم من الناس.[1]

جيلٌ من العُشاق رامَ شهادةً طُويَتْ لهم صَوْبَ ال
طُبعوا على الآمالِ في آلامِهمْ جيلاً، ولا ي
إنَّ الذي رفعَ السماءَ بنى لنا عِزًّا دعائ
حيَّاكَ يا ألَقَ الشهيدِ شُوَيْعِرٌ نَزفتْ بهِ في

من قصيدة "مداد ودماء" للشاعر/ رأفت رجب عبيد

۞ ۞ ۞

ٱلشَبدح عجغ عْ ٱمزً:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"الشهداءُ خمسةٌ: المبطونُ، والمطعونُ، والغريقُ، وصاحبُ الهدمِ، والشهيدُ في سبيلِ اللهِ".** [متفق عليه]

---

(1) درسان حيويان مقتبسان من قادة النبي صلى الله عليه وسلم لحاضر المسلمين ومستقبلهم: بحث للواء الركن/ محمود شيث خطاب / مجلة الأمة العددان (٣٧-٣٨) [ملخصا بتصرف يسير]

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"خمسٌ مَن قبض في شيء منهن فهو شهيد: المقتول في سبيل الله شهيد، والغريق شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والنفساء شهيد"**. [رواه النسائي، وصححه الألباني]

قال صاحب حاشية "أبواب السعادة": ولا تناقض بين هذا الحديث والأحاديث التي ورد فيها ذكر أكثر من ذلك لاحتمال أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر هذه الأنواع للتمثيل لا للحصر، أو من قبيل أن هذا الحديث خاص والآخر عام، أو أن الحديث الذي يشمل العدد الأكثر ناسخ للآخر، والله أعلم بالصواب. ا.هـ

وعن جابر بن عتيك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يعود عبد الله بن ثابت رضي الله عنه فوجده قد غلب عليه، فصاح به فلم يجبه؛ فاسترجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع! فصاحت النسوة وبكين، وجعل ابن عتيك يسكتهن، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية". قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال: "إذا مات". قالت ابنته: والله إني لأرجو أن تكون شهيدا؛ فإنك كنت قد قضيت جهازك.. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته. وما تعدون الشهادة؟" قالوا: القتل في سبيل الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الشهادةُ سبعٌ سوى القتلِ في سبيلِ اللهِ: المطعونُ شهيدٌ، والغريقُ شهيدٌ، وصاحبُ ذاتِ الجَنْبِ شهيدٌ، والمبطونُ شهيدٌ، وصاحبُ الحريقِ شهيدٌ، والذي يموتُ تحتَ الهدمِ شهيدٌ، والمرأةُ تموتُ بِجُمْعٍ شهيدةٌ". [رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني]

[(فوجده قد غُلب): أي وجد النبيُّ صلى الله عليه وسلم عبدَ الله مغلوبًا؛ غَلب عليه أمر الله تعالى، ودنا من الموت. (فصاح به): أي صرخ به. (فاسترجع): أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(غُلبنا عليك): يعني أنا نريد حياتك، لكن تقدير الله تعالى غالب.

(فإذا وجب): أي مات. قال الخطابي: أصل الوجوب في اللغة السقوط. قال الله تعالى: (**فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا**) [الحج:٣٦] وهي أن تميل فتسقط، وإنما يكون ذلك إذا زهقت نفسها. ويقال للشمس إذا غابت: قد وجبت الشمس.

(قضيتَ جَهازَك): أي أعددت أسباب الجهاد وجهزت له. قال في المصباح: جَهاز السفر أهبته وما يُحتاج إليه في قطع المسافة.

(المطعون): هو الذي يموت بالطاعون. (والغرق شهيد): إذا كان سفره طاعة. (وصاحب ذات الجنب): وهي قرحة أو قروح تصيب الإنسان داخل جنبه ثم تفتح ويسكن الوجع وذلك وقت الهلاك، ومن علاماتها الوجع تحت الأضلاع وضيق النفَس مع ملازمة الحمى والسعال، وهي في النساء أكثر. (والمبطون): من إسهال أو استسقاء أو وجع بطن. (وصاحب الحريق): وهو الذي يموت بالحرق. (تحت الهدم): أي حائط ونحوه.

(والمرأة تموت بجُمْع)[1]: قال الخطابي: معناه أن تموت وفي بطنها ولد. وقال في النهاية: أي تموت وفي بطنها ولد، وقيل: التي تموت بكرا، والجُمع بمعنى المجموع كالذُّخر بمعنى المذخور، والمعنى: أنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة.

وعن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **أتاني جبرائيل عليه السلام بالحمى والطاعون، فأمسكتُ الحمى بالمدينة، وأرسلتُ الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتي ورجز على الكافر**". [رواه أحمد ورواته ثقات مشهورون، قاله المنذري]

---

[1] جُمْع: قد تُفتَح الجيم وتُكسَر أيضًا والضم أشهر، والمعنى أنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها.. ماتت النساء بأجماع، والواحدة بجمع، وذلك إذا ماتت وولدها في بطنها ماخضًا كانت أو غير ماخضٍ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون"**. قلتُ: يا رسول الله! هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: **"غدة كغدة البعير، والمقيم كالشهيد، والفار منه كالفار من الزحف"** [رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني]، ولفظ البزار: "قلتُ: يا رسول الله! هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: **"يشبه الدمل يخرج من الآباط والمراقّ**[1]**، وفيه تزكية أعمالهم، وهو لكل مسلم شهادة"**.

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الطاعون: **"الفار منه كالفار من الزحف، ومن صبر فيه كان له أجر شهيد"**. [أخرجه أحمد بإسناد حسن. قاله المنذري]] [عون المعبود]

وروى البيهقي عن حميد بن عبد الرحمن الحميري، أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له: حممة، جاء إلى أصبهان في خلافة عمر رضي الله عنه، فقال: اللهم إن حممة يزعم أنه يحب لقاءك، فإن كان حممة صادقا فيما يقول فاعزم له على صدقه، ولو كان كاذبا فاعزم له عليه. اللهم لا ترد حممة من سفره هذا.. فأخذه بطنه فمات بأصبهان. فقام أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس! إنا والله ما سمعنا فيما سمعنا من نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا فيما بلغ علمنا؛ إلا أن حممة مات شهيدا.

وأخرج الطبراني في الكبير عن سلمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"ما تعدون الشهيدَ فيكم؟" قالوا: الذي قُتِل في سبيلِ الله. قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ شهداءَ أمتي إذنْ لقليلٌ. القتلُ في سبيلِ الله شهادةٌ، والطاعونُ شهادةٌ، والنفساءُ شهادةٌ، والحرقُ شهادةٌ، والغرقُ شهادةٌ، والسُّلُّ شهادةٌ، والبطنُ شهادةٌ"**. [حسنه الألباني]

قال ابن حجر في "فتح الباري": [قال ابن التين: هذه كلها ميتات فيها شدة تفضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن جعلها تمحيصًا لذنوبهم، وزيادة في أجورهم، يبلغهم بها

---

[1] المراقّ: هو ما رقَّ من أسفل البطن ولان. ولا واحد له، وميمه زائدة. [لسان العرب]

مراتب الشهداء.

والذي يظهر أن المذكورين ليسوا في المرتبة سواء، ويدل عليه ما رَوى أحمد وابن حبان في صحيحه مِن حديث جابر، والدارمي وأحمد والطحاوي من حديث عبد الله بن حبشي، وابن ماجة من حديث عمرو بن عنبسة أن النبي ﷺ **سُئل: أي الجهاد أفضل؟ قال: "مَن عُقِرَ جَوادُهُ، وأُهرِيقَ دَمُهُ"**.

ويتحصل مما ذكر في هذه الأحاديث أنّ الشهداء قسمان: شهيد الدنيا، وشهيد الآخرة؛ وهو مَن يُقتَل في حرب الكفار مُقبلاً غير مُدبر مُخلِصًا.. وشهيد الآخرة؛ وهو مَن ذُكر –في الأحاديث السابقة–، بمعنى أنهم يُعطَون مِن جنس أجر الشهداء، ولا تجري عليهم أحكامهم في الدنيا.] ا.هـ

وروى ابن وهب من حديث عقبة بن عامر مرفوعًا: **"مَن صُرِعَ عن دابتِهِ في سبيلِ اللهِ فماتَ فهو شهيدٌ"** [قال ابن حجر: إسناده حسن]

وأخرج أبو داود والحاكم والطبراني من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعًا: **"مَن وَقَصَهُ فَرَسُهُ أو بعيرُهُ في سبيلِ اللهِ، أو لدغتْهُ هامةٌ، أو ماتَ على أيِّ حَتْفٍ شاءَ اللهُ فهو شهيدٌ"**.

فـ[مَن قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومَن خرج للجهاد فمات في سبيل الله قبل حضور المعركة فهو شهيد..

ويتميز الميت في سبيل الله عن المطعون والمبطون والغريق، ومَن ذُكِر معهم مِن الشهداء بما ناله مِن أجر الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والغُدُو والرَّواح، والغُبار والسير، والصدقة والنفقة، وتضعيف ما قام به في خروجه من عبادات وقُرُبات وطاعات..][1]

[1] مشارع الأشواق

وأخرج أصحاب السنن الأربعة عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"مَن قُتِلَ دونَ مالِهِ فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دونَ أهلِهِ فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دونَ دمِهِ فهو شهيدٌ"**. [صححه الألباني]

وفي رواية لأبي داود والترمذي: **"مَن أُرِيدَ مالُهُ بغيرِ حَقٍّ فقاتَلَ فقُتِلَ فهو شهيدٌ"**. فـ[إنَّ للإنسان أنَّ يدفع عن نفسه وماله، ولا شيء عليه؛ فإنه إذا كان شهيدًا إذا قُتِل؛ فلا قَوْدَ عليه ولا دِيَة إذا كان هو القاتل.] [فتح الباري]

يقول د. عبد الله عزام: [وهذا يسمى في الفقه: دفع الصائل، والصائل هو الذي يسطو بالقوة على الأعراض والنفوس والأموال.

وقد اتفق الفقهاء الأربعة على وجوب دفع الصائل على الأعراض، أما الصائل على النفس أو المال فيجب دفعه عند جمهور العلماء، ويتفق مع الرأي الراجح في مذهبي مالك والشافعي، ولو أدى إلى قتل الصائل المسلم.

قال الجصاص: لا نعلم خلافا أن رجلا لو شهر سيفا على رجل ليقتله بغير حق أن على المسلمين قتله. وقال ابن تيمية: فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه.] [إتحاف العباد بفضائل الجهاد]

وعن سويد بن مقرِّن عن النبي ﷺ قال: **"مَن قُتل دون مظلمةٍ فهو شهيد"**. [رواه النسائي والطبراني]، ويفسره الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: **جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: "فلا تعطه مالك". قال: أرأيتَ إن قاتلني؟ قال: "قاتله". قال: أرأيتَ إن قتلني؟ قال: "فأنت شهيد". قال: أرأيتَ إن قتلتُه؟ قال: "هو في النار"**.

فيا عباد الله..

الجهاد ضروب شتى: جهاد للعدو في ميدان القتال لنصرة الدين، وجهاد للنفس بقهرها ومنعها عن شهواتها التي ترديها، وجهاد بين النفس والخلق بترك الطمع في أموالهم والشفقة عليهم والرحمة بهم، وجهاد فيما بين المرء والدنيا بألا يتكالب على جمع حطامها، وألا ينفق المال إلا فيما تجيزه الشرائع، وتقره العقول السليمة.

ثِقوا يا بني الإسلام باللهِ واصبروا ... وسيروا على نهج النبِيِّ وأبشِروا
إذا إحلولكت ظلماءُ ليل وعسعست ... فإنَّ ضياءَ الفجرِ أزهى وأنضرُ
هي الأمةُ ألموعودةُ النصرِ لا تَمُت ... لو الروحُ في حُلقُومِها تتغرغرُ
تجلَّت على هام الليالي عزيَزةً ... على صخرِها تُدهَى الدواهي فتدبرُ
ستهوي لأعداها صروحٌ منيعةٌ ... ويعلو لها في مُقلَةِ الدهرِ مِنبَرُ
ركائبُها التقوى، وأسهمُها الدُّعا ... ودستورُها القرآنُ، والصبرُ مِئزرُ
وناصرُها الله الذي عزَّ شأنُهُ ... هو الخالقُ العدلُ القوي المدبِّرُ [1]

---

[1] من قصيدة "الوعد الحق" للمبدع/ صالح بن علي العمري

فـتَشط ٱموضوعاخ

الموضوع — الصفحة

تم بحمد الله